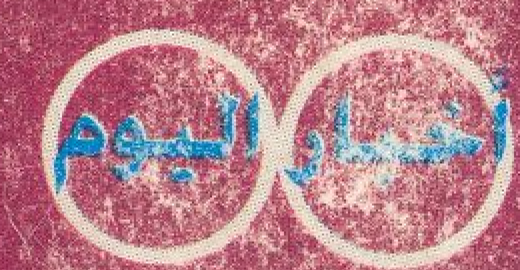


قطاع الثقافة

محمود السعدنى

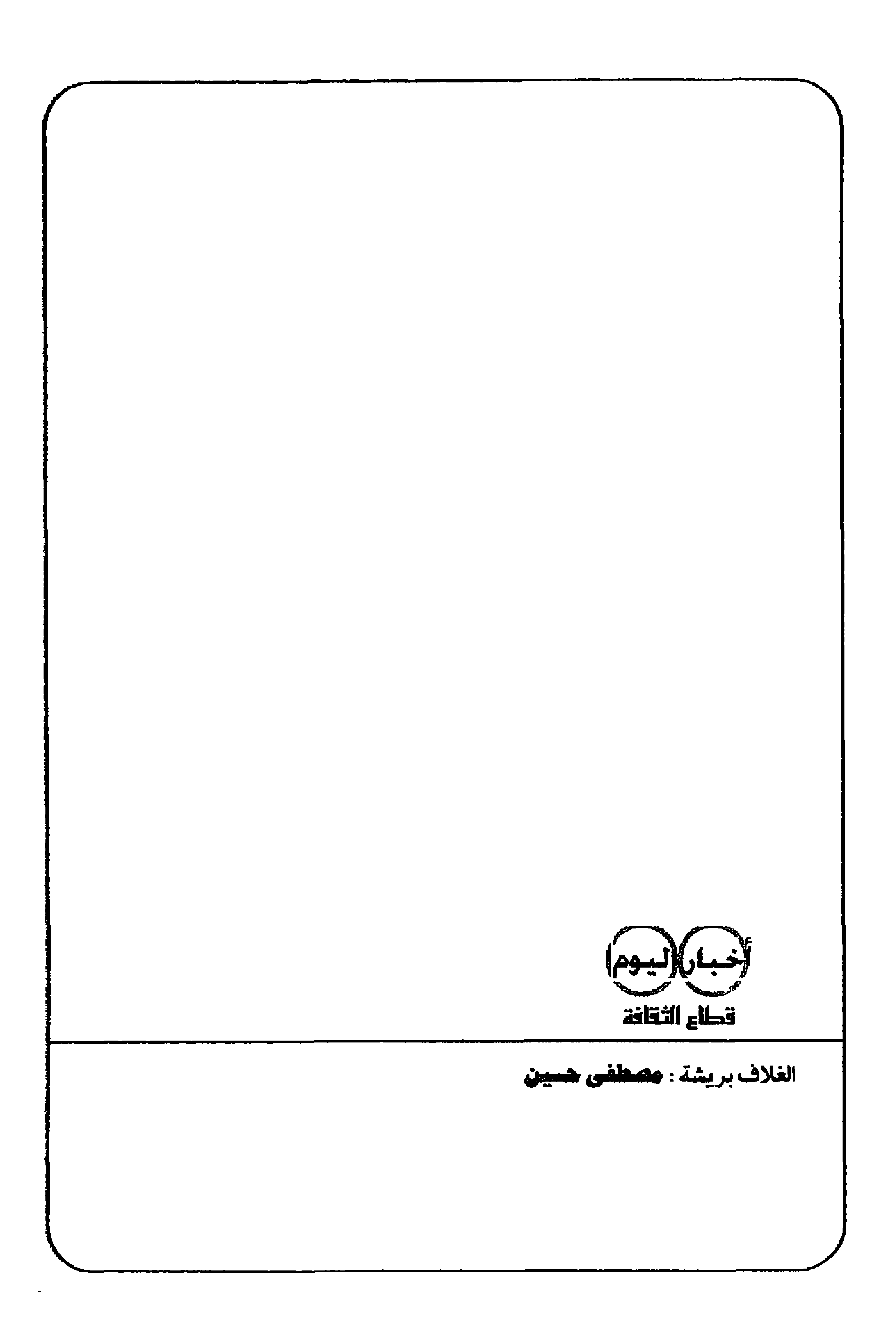
الولد الشقى

أخبار اليوم
قطاع الثقافة

محمود السعدنى

الولد الشقى

* الجزء الثانى *



الغلاف بريشة : **مصطفى حسين**



مقدمة

فى هذا الكتاب ستقرأ أسماء وهمية وأحداثا وقعت بالفعل . وهى أحداث لم يكن لى أى فضل فى تأليفها ، ولكننى ذكرتها كما حدثت وصورتها كما وقعت بلا رتوش . وهذا الكتاب ليس قصة الصحافة ، ولكنه قصة اشتغالى بالصحافة ! واذا كنت قد خضت خلال رحلتى فى الصحافة ، خرائب ومتاهات وصناديق قمامة ، فالذنب ليس ذنب الصحافة ، ولكنها الظروف والمرحلة التاريخية التى عاصرتها ثم حظى التعيس فى النهاية .

وللانصاف والتاريخ أقول أنه رغم اللوحة المظلمة التى رسمتها فى هذا الكتاب فقد كانت هناك نقط بيضاء ومضيئة وباهرة . الى جانب الأخ علوى السمين كخنزير برى ، الغبى كفحل جاموس منوفى ، كان صحفيون بالمئات يدخلون السجون دفاعا عن راى والتزاما بمبدأ . والى جانب مجلة السحاب الرخيصة ، كانت صحف بالعشرات تغلق وتصادر ، وكتاب يطاردهم البوليس كما يطارد السبع الجائع غزالا شاردا فى غابة . ورغم كل شىء فقد كان جيش الأمة المسلح باقلام وأوراق هو الذى ثار ضد النظام الملكى قبل ان يتحرك جيش الأمة المسلح بمدافع وبنادق ليهدم النظام من اساسه ويخلع الملك من فوق عرشه .

ورغم كل شيء ستظل الصحافة المصرية تفخر بعشرات من نجومها اللامعين ، هؤلاء الذين تحولت الأقلام فى أيديهم الى مدافع ، وتحولت الجرائد على أيديهم الى ساحات قتال . من عبدالله النديم الى مصطفى كامل الى الشيخ على المؤيد الى لطفى السيد الى طه حسين وعباس العقاد الى الدكتور محمد مندور ، الى كوكبة الصحفيين الشبان الذين يمثلون مكان الصدارة فى صحافة جيلنا الحاضر .

وعلى أية حال . فهذا الكتاب ليس تاريخا وليس تسجيلا ، ولكنه مجرد خواطر وانطباعات وذكريات حزينة ومريرة عن فترة من أعنف فترات مصر وأكثرها قلقا واضطرابا وازدهارا وطموحا ورغبة فى تجميل الحياة .

واذا كانت سطور الكتاب مريرة ، فلأنها الحقيقة ، وليس أوجع من الحقيقة ، وليس أشد ايلاما منها على النفس !

محمود السعدنى




(١)



١

وهكذا أصبحت صحفيا . . فذات صباح مبكر من عام ١٩٤٦ خرجت من الجيزة أسعى وراء طوغان الذى كان قد سبقنى وجرب حظه فى صحف ومجلات كثيرة أغلقت كلها أبوابها ! خرجت أسعى خلفه ببنطلون مجفف أخفت الجاكتة عورته ، وجاكته كاروهات كانت فى الاصل بطانية . . وكل عدتى قلم حبر رخيص وكشكول فيه بعض الازجال . وأول هذه الازجال كان عن عسكرى الد ورية . هذا البعبع أبو شنبات الذى هو مفروض ان يكون حارسا على الطريق فاذا به قاطعه !!

ومنذ اللحظة التى بدأت أتحرك فيها قاصدا عالم الصحافة كانت فى ذهنى فكرة لم تستطع التجارب والايام ان تمحوها من ذهنى.فكرة استقرت فى عقلى بفضل مقالات التابعى والصاوى وفرج جبران !

فكرة ان الصحافة صاحبة جلالة وان لها بلاطا . وانها حفلات ورحلات ونجم صحفى مشهور يكتب وهو جالس على كرسى فى مقهى انيق فى الشانزلزيه ، ونسوان كما القشطة الصابحة تعاكسه وتباكسه وتجرى وراه . . وزعماء يستيقظون فى الليل على هدير صوته ، ووزارات تسقط تحت هول كلماته ، وعدل يقوم وظلم يندك بفضل توجيهاته وتعليماته ، وغضبة عنترية قد تؤدى بالاستاذ الى السجن . . ثم يخرج بعد أربعة أيام ليحكى للناس قصة كفاحه العظيم داخل الزنازين الباردة .

ولكن منظر الصحف التى طرقنا ابوابها لم يكن يطابق صورة الحلم الذى فى أذهاننا ! مجلات فى العتبة وشارع محمد على وفى عابدين اسمها الخميس والكوكب والشهاب المضىء .

ولقد كنت اتخيل أن وراء الجدران يعيش العشرات من رهبان الفكر وحملة الاقلام وأصحاب القضية . . ولكن من النظرة الأولى على من كانوا داخل هذه الجدران شعرت بمدى بؤس هؤلاء الناس وفقرهم . . ولكن نظرتى الاولى اليهم لم تكن كافية لأن أتخلى عن فكرتى القديمة عنهم كرهبان رأى وأصحاب قضية !

ولقد دخت وراء طوغان دوخة الارملة الوحدانية . واستطاع هو أن يشق طريقه بسرعة لأنه كان يحمل بضاعة تختلف . . فبينما كان هو يبرز لهم رسوما . . وهى عملية لا يستطيع كل انسان ان يصنع مثلها ، كنت أحمل أنا بضاعة مغشوشة . . لأنها هكذا هى مهنة الكتابة . . فكل انسان يستطيع أن يكتب ، وكل كتابة هى مثل الاخرى ، لولا بعض الفروق . ولكى نكتشف الفرق فلابد من ميزان كميزان الذهب هو الذى يحدد أى الكتابات أنفع وأبقى ! . .

ولكنى فى النهاية ورغم ذلك وصلت ! فرحلة طولها ألف ميل تبدأ بخطوة واحدة . . ورحلتى لم تكن ألف ميل ولكنها كانت سبعة أميال فقط ، من بيتنا الى شارع الخليج المصرى ، وفى دكان فى بيت كان يوما ما اسطبلا لحمير أحد المماليك البحرية ، ومن هذا الاسطبل بدأنا أول عمل صحفى .

كانت المجلة اسمها الضباب ، وكان صاحبها كامل خليفة يرحمه الله عامل طباعة استطاع فى ايام سطوة البوليس السياسى استخراج رخصة صحفية باسمه ، ولم يكن للصحيفة موعد محدد للصدور ، وكانت معروضة دائما للايجار كأنها شقة مفروشة . وكان يتصيد زوار مصر من البلاد العربية لينشر لهم صورا على طول الصفحة ، و « نبذة » عن تاريخ بلادهم وفصولا عن كفاحهم . . وكان يسترزق من هذا العمل بما يكفيه . وكان هؤلاء الضيوف من التفاهة وقلة القيمة لدرجة أنهم كانوا يشعرون حقا بالسعادة لأن صحف مصر قد التفتت اليهم . .

واستأجرنا مجلة الضباب من كامل خليفة ، وأصدرنا منها عدة اعداد رافعين عليها شعار : « مجلة الشباب والطلبة والجيل الجديد » وأخذنا كارنيهات من المجلة بتوقيع كامل خليفة. كارنيهات تقول ان العبد لله محرر (كذا) فى الجريدة ، وقد وقع كامل خليفة باسمه تحت عنوان كبير « المدير العام » !!

ولقد كان كامل خليفة نموذجا لمئات والوف من الناس كان يزخر بهم العصر . كان شديد الجهل شديد الذكاء . . وكان كثير المشاكل يسكن مع عائلته الكبيرة فى بيت حكر بالقلعة ! . .

ورغم انه كان يكسب كل يوم خمسة جنيهات الا انه كان ينفق كل يوم أربعة جنيهات على المزاج . فقد كان مدمن حشيش ، وكان يدخن باستمرار ويستحلب الأفيون كل لحظة ويحتسى فناجيل القهوة بلا حساب وكان يبدو وكأنه يرغب فى ان يغيب عن الوعى الى ما شاء الله . .

وكان فهمه السياسى ينحصر فى الخلاف بين على ماهر والسراى . . وفى التعديل الوزارى القادم . . وكان هو دائما مستعدا لكل تعديل وزارى ، لا ليسير فى ركابه كما تظن !! ولكن لسبب تافه للغاية . . فقد كان كامل خليفة يحصل

على اعلانات حكومية للصحيفة بخمسين جنيها كل شهر . وكان هذا المبلغ هو مورده الثابت . ولذلك كان دائما شديد الحرص عند كل تعديل وزارى على أن يعرف من هو مدير المطبوعات الجديد . فاذا كان رجلا سبق له التعامل معه ، بدا شديد السعادة والرضا . واذا كان شخصا لا يعرفه ، عاش فى هم شديد وقلق بالغ ، حتى يقرر الرجل استمرار صرف مقطوعيته من الاعلانات الحكومية ، وعندئذ يعود سيرته الاولى ، الى دكان الصحافة يلف سجاير الحشيش ويستحلب قطع الأفيون ويحتسى فناجيل القهوة بلا حساب !

وعرفت عم كامل عن كثب . وكان اذا التقى بضيوف فى المجلة بدا أمامهم كأنه احد صناع السياسة المصرية فى تلك الفترة من الزمان . فاذا خلال لنفسه بدا على حقيقته . مجرد يائس . . شديد القلق شديد الفلس ، دائم البحث عن مورد جديد لاكل العيش .

ولقد أدت به هذه الرغبة المجنونة الى ارتياد الطريق الصعب . فسرعان ما اكتشفت ان صحيفة عم كامل هى مأوى لعشرات من النصابين والمحتالين . . ولكنهم والحق أقول أبرع من عرفت من هذا النوع من الناس . وانهم جميعا أصحاب مواهب وذوو ارادة ، ولو أحسن تربية هؤلاء الناس وتوجيههم لكان لبعضهم شأن عظيم .

ولقد التقيت فى هذه الصحيفة بالرجل الذى باع الترام . ونصاب آخر خفيف الدم شديد الذكاء اسمه عسال وهو فنان نصاب ، لانه يحس وهو ينصب بنفس النشوة التى كان يشعر بها تشيكوف أثناء كتابة قصة ، وبنفس السعادة التى كان يشعر بها رمسكى كورساكوف وهو يؤلف شهر زاد .

والحق انه كان يعزف وهو ينصب . ولم تكن هذه الفئة كلها تتجه فى نصبها على الفلاحين أو الفقراء ، ولكنها كانت تنصب على فئة الخواجات والحكام وأصحاب النفوذ . وكانت الفكرة بسيطة . تذاكر مذهبة لحفلة خيرية تحت الرعاية السامية الملكية ونصاب عامل يستعينون به ، أى أنه نصاب ليس له حصة فى عملية النصب ولكن له أجر يومى يتقاضاه سواء نجحت العملية أم فشلت .

وكان هذا النصاب العامل يرتدى زيا خاصا كسعاة البنوك . وكان يعتنى بمظهره وهندامه عناية كبرى لانها كل رأس ماله فى الحياة . وكان يستعمل موتوسيكلا فى مشاويره . وكان دور كامل خليفة فى العملية هو طبع التذاكر ، فاذا انطبعت تولى احدهم الاتصال بأصحاب الشركات فى التليفون « آلو . . محلات عمر افندى ، انا على ماهر باشا ، صباح الخير يا خواجا ، فيه حفلة فى الاوبرج تحت الرعاية الملكية ، أيوه هانبعت لك عشر تذاكر ، التذكرة بعشرة جنيه ، شكرا » . .

وكانت هذه العمليات تجرى فى حجرة خشبية ليس بها سوى مكتب وتليفون . وكثيرا ما كان النصاب الاجير يقع فى يد البوليس ، ولكن النصابين الكبار كانوا دائما فى أمان . وحتى اذا سقطوا فى يد العدالة بشهادة النصاب الغلبان كانوا سرعان ما يطلق سراحهم لعدم توافر الادلة !!

وأغرب شيء أن هؤلاء الناس كانوا مطاردين من البوليس الجنائى ، وكانوا فى الوقت نفسه على صلات طيبة بالبوليس السياسى . فهم يتحركون فى قطاع عريض من الحياة . ولهم صلات وطيدة بالمطابع وهى صلات تجعلهم يتعرفون على طابعى المنشورات السرية من الطلبة والعمال . ومعلوماتهم فى هذا المجال ذات فائدة عظمى !

وذات مساء قدر لى أن أهجر صحيفة الضباب الى غير عودة . لقد ألقوا القبض على كامل نفسه فى عملية نصب من هذا النوع . وجاءت زوجته تصرخ عند الدكان وتلطم . ولكن أخبار كامل لم تنقطع أبدا عنى .

وفى أعوام الثورة الجزائرية الاولى عثر على شخص هارب من ليبيا . وكأنما عثر على كنز لا يفنى . واستطاع كامل ومعه الليبى الهارب أن يسببا متاعب لاحد لها للثورة الجزائرية .

فقد ادعى الليبى الهارب واسمه مسعود أنه جزائرى محكوم عليه بالاعدام . واصدر كتابا عن كفاحه وجهاده فى الثورة . واستطاعوا ان يبيعوا من هذا الكتاب عشرة آلاف نسخة كل نسخة بخمسة جنيهات .

وسافر مسعود بكتابه الى الكويت والاردن والسعودية . وفى النهاية مات مسعود وحيدا فى مستشفى القصر العينى !

والتقيت بكامل خليفة بعد ذلك ولآخر مرة منذ عشرة أعوام عندما جاءنى يطلب منى ان ابحث له عن عمل فى دار صحفية كبرى . ولم يحضر بعد ذلك ، ولم ابحث له أنا عن عمل . ثم عرفت بعد ذلك انه مات . . يرحمه الله !

ولم يبق من هذه الصحبة الا عم عسال . ولا يزال على قيد الحياة . وهو رجل قادر على ان يصبح أى شيء فى أى لحظة . فهو تاجر وأحيانا طبيب ، وأحيانا صاحب شركة .

وذات مرة أصدر صحيفة اسبوعية كبرى اشتغل فيها عدد من الصحفيين اللامعين اليوم . ولقد رأيته ذات مرة فى حفل دعت اليه هيئة التحرير فى بداية تكوينها . وكان يرتدى زيا باكستانيا باعتباره من كبار المسلمين فى دكا وقد جاء ليهنىء بنفسه !!

وقصص ومغامرات عسال تصلح افلاما ولا افلام جيمس بوند . فقد افتتح عيادة فى احدى قرى الريف واجرى عمليات لعشرات انتهت كلها بالوفاة .

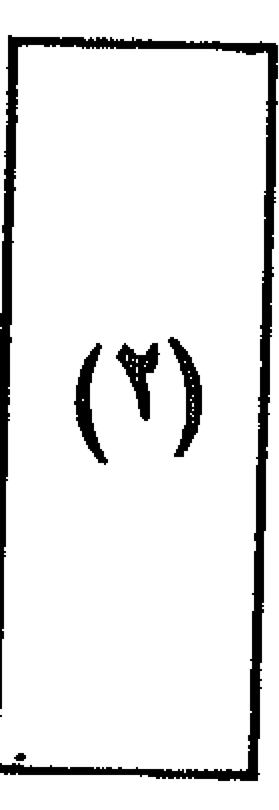
وأخذ أجر العملية وأخذ رشوة من أهل الميت نظير أن يمنحهم الجثة لدفنها بدون تشريح !

ولقد خرجت من تجربتى الاولى فى الصحافة بحسرة . وفقدت تلك الصورة الزاهية الالوان عن صاحبة الجلالة وبلاطها . وأدركت ان البلاط هو الواجهة . ولكن فى القفا بدرونات ومزابل ومطابخ ذات رائحة عفنة . .

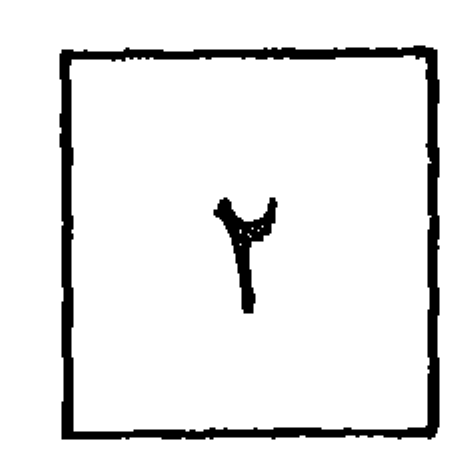
ولم يمر وقت طويل حتى صدرت صحيفة نداء الوطن . اصدرها ناظر مدرستى القديمة ، مدرسة المعهد العلمى الثانوية . وكان قد أصبح نائبا على مبادىء الهيئة السعدية . وكان رئيس التحرير يدعى مختار . . وكان شديد المهابة شـديد الاحترام . . اهم ما يميزه خمسة أقلام حبر انيقة يضعها فى جيوب جاكتته بشكل بارز .

ولقد رأى مختار اننى صغير السن الى درجة اننى لا أصلح للكتابة . وعندما اصطدمت به فصلنى صاحب الجريدة . وبعد أعوام قليلة من هذا الحادث . عرض رئيس تحرير مجلة مسامرات الجيب بعض مقالات مختار على العبد لله لأبدى الرأى النهائى فيها !




(٢)





وخرجت من نداء الوطن وعدت أسرح خلف طوغان من جديد . وكان المشوار هذه المرة الى مجلة الكشكول . وفى هذه المجلة التقيت برجل من طراز عظيم ، ولقد احترمته فى أول لقاء ولازلت أحترمه . كان اسمه محمد حمدى . وكان سمينا وطيبا وفى رأسه أحلام كثيرة . وكان دائم الحديث عن مشروعات ضخمة ودور صحف تقام ، ومرتبات بمئات الجنيهات ، ونسخ بالملايين والبلايين ، وكان ساحر الحديث يستطيع أن يقنع حتى الصخور وحتى الحمير! ولكن عند التجربة ، كان حمدى يرحمه الله يسقط دائما . ولذلك اكتفى خلال رحلة حياته باصدار الاعداد الاولى من الصحف الجديدة ، ثم الاستقالة لاصدار مشاريع جديدة!

ورغم استقالة محمد حمدى فقد بقيت انا فى الكشكول . فقد كان على رأس الجريدة رجل طيب يدعى سعيد اسماعيل ، وكان سعيد على علاقة بالاخوان المسلمين ، ولكنه كان صاحب مزاج! ولقد ارادوه درويشا من دراويش الاخوان فأصبح درويشا من دراويش الحياة . . ولقد بقيت فى الكشكول ثلاثة شهور نشرت فيها أزجالا ومقالات ثم أغلقت أبوابها . وشعرت بالحزن الرهيب فقد كان وقتا قصيرا كالحلم . . ولكن فقدت فيه أعظم منبر وقفت عليه تلك الايام!

وعدت من جديد اسعى وراء طوغان ، وفى هذه المرة كان السعى الى مجلة الوادى . وكان زكريا الحجاوى صديقنا القديم قد سبقنا الى مجلة الوادى . وفى اللحظة التى وقع فيها بصرى على زكريا فى المجلة ، ادركت وانا شديد الحسرة أن زكريا الحجاوى لا يصلح لهذه المهنة ، ولا يصلح لمنصب المدير!! فلقد تخلى زكريا الحجاوى عن رداء الفنان الذى يصلح له ودخل فى ثوب المدير . وراح يتكلم بحساب ويومىء بحساب ، ويكبس الطربوش بعناية وهو داخل الى مكتب رئيس التحرير!

وفى الوادى التقيت بكثيرين . خليل الرحيمى ، واحمد عباس صالح ، وعمر رشدى ، وعبدالفتاح غبن ، وآخرين ، وكانت الكتابة هى العملة السهلة فى مجلة الوادى ، ولكن الاجر كان أصعب من الاسترلينى والدولار !

ولم البث ان أصابنى يأس قاتل . هذه هى الصحافة ، وذلك هو بلاط صاحبة الجلالة !!! . . . خير منه الاسفلت والرصيف . . وتركت كل شىء فجأة وعدت من جديد الى حوارى الجيزة وشوارعها ، الى قهوة مرعى أحيانا وقهوة أمين أحيانا : وهأنذا أقف وحدى الآن فى الحياة وكل شىء يمضى من حولى . فلا تلميذ أنا أصبحت ، ولا موظف أنا اكون ، ولا صحفيا انا استطعت . ولا رغبة عندى فى التلمذة ولا رغبة فى الوظيفة ولا مشاريع جديدة فى بلاط صاحبة الجلالة !

وأصدقاء الطفولة الذين كنت قد تركتهم خلفى فى الجيزة تبددوا جميعا وراح كل منهم بأسلوبه يصارع الحياة ، بعضهم استطاع ان يتلاءم مع ظروفه ، ويعضهم استطاع ان يتلاءم عليها ! ولكن أنا وحدى الذى لم استطع ان اتلاءم معها ولم استطع أن أتلاءم عليها . فوقفت وحيدا كما خيال مآته مرشوق فى بطن الارض وسط حقل من الضياع والفشل والهوان ! . .

واعترتنى تلك الايام لحظات يأس عنيفة ، وفكرت أحيانا فى الانتحار ، وشرعت ذات مرة فى تنفيذ ما عزمت عليه . وذهبت الى شاطىء النهر ووقفت اتفرج على التيار . كنت أحمل فى يدى كراسة قديمة جلدتها صفراء وبالحبر الشينى كتبت على الجلدة « مسافر بلا وداع . مجموعة قصص مصرية تأليف الكاتب المشهور محمود السعدنى . حقوق الطبع محفوظة للمؤلف » .

وكنت قد كتبت خلال بداية فترة الصياعة مجموعة من القصص القصيرة وكانت أول قصة فيها قصة جندى سافر الى الحرب ولم يعد . وجنت أمه ووقفت تنتظر عودته كل مساء ، ولكن القطار كان دائما يدخل المحطة فى المساء دون ابنها ، ومع ذلك ظلت تذهب الى المحطة وتنتظر . وذات مساء حضر القطار وفيه ابنها ، ولكنها تعثرت وسقطت تحت عجلات القطار فى نفس اللحظة التى كان الابن الغائب يقفز من القطار الى رصيف المحطة . وماتت الام دون ان يراها ودون أن تراه .

قصة كنت معجبا بها غاية الاعجاب ، لان اصدقائى كانوا يستمعون اليها باعجاب وحماس ، ولعل السر فى ذلك هى انها كانت على طريقة « يوسف وهبه ! » فى تأليف الروايات . . وفكرت فى أن أخلع ملابسى واتركها عند الشاطىء ليعرف الناس ان شخصا ما قد غرق فى هذا المكان . وفكرت أيضا فى

ان اضع الكراسة فوق الملابس لكى يعثروا عليها فتنشرها الجرائد والمجلات . واذا كنت انا المؤلف لم أستطع الحياة ، فلا أقل من أن توهب الحياة لهذه القصص التى هى من صميم الحياة !! أو هكذا كنت اعتقد تلك الايام !

واذكر انى بكيت وانا واقف عند الشاطىء اتأمل الامواج والتيار . وقلت فى نفسى وأنا انظر الى الحياة تموج من حولى ، يا للعار ، هذه المدينة المترفة الجبارة التى يبعثر اهلها الوف الجنيهات كل ليلة على موائد القمار لا تستطيع ان توفر لى عشرة جنيهات كل شهر هى كل ما كنت اتمناه من الحياة ؟!

ولكن فى اللحظة الاخيرة خانتنى شجاعتى ، وكان الظلام قد حل على الكون ، وأصبح الشاطىء أكثر وحشة واكثر كآبة !! فاطبقت بشدة على الكراسة وعدت من جديد الى قهوة السروجى لألعب الكومى كما اعتدت كل مساء . .




(٣)



٣

وكانت قهوة السروجى فى مواجهة بيت طوغان ، وكانت شيئا فريدا بين مقاهى ذلك الزمان . كانت كل الكراسى من الخشب الزان والقش المجدول بعناية ، وفى الجوانب تتناثر بعض الدكك ولكنها دكك تصلح للمتاحف ودور الآثار . دكك من العهد المملوكى بالخشب الاويما والصدف والعاج . وعلى حوافيها آيات قرآنية وبعض الحكم والامثال .

وكان عم السروجى نفسه رجلا مهابا محترما قليل الكلام . طالت ايامه فأصبح فوق السبعين ولكن احدا لم يره أبدا بعيدا عن مكانه خلف الكيس والشيشة فى يده والخواتم تلمع بين اصابعه وهو جالس كعمدة من عمد الريف فى جلباب كشمير وحذاء برقبة وصديرى بلدى والشيشة دائما فى فمه وجمرات النار تتقد على دخانها العجمى بلا انقطاع . وكانت النصبة على يمينه ليتمكن من مراقبة الطلبات ، وخلف النصبة حوض ماء تصب فيه حنفيتان ، واحدة للماء الساخن والاخرى للماء البارد المثلج ، وكان أغلب المارين فى شارع عبدالمنعم يقتحمون القهوة بلا أحم ولا دستور ليشربوا الماء المثلج وكأنها سبيل أم عباس . .

وكان المعلم السروجى يتصرف مع هؤلاء الناس بطريقة واحدة لا تتغير . . اذا كان المتطفل رجلا نظر اليه نظرة جهنمية وقال لا مؤاخذة . . الحنفية عطلانة . واذا هجم على الحنفية قذفه بالماشة التى يصلح بها النار فى وجهه أو فى رأسه فيترك الولد المضروب الكوز ويجرى خارجا يصرخ ويترنح وكأنه كلب مسعور أصابته طلقة فى المليان .

وعلى مقهى السروجى تعرفت بعشرات من النماذج البشرية ليس لها مثيل فى الكون . عم سيد خلفاوى الذى كان يسرح فى حوارى الجيزة بقفص فراخ ليس فيه فراخ ولا كتاكيت ولكن بظروف مقفولة يبيعها للتلامذة وللفلاحين القادمين من الأرياف ، وما فى داخل الظروف حق صاحب البخت والنصيب ، رغم أن الظروف كلها كانت فارغة ولا تحتوى على شيء . ولكنه بعملية نصب فيها شيء من المهارة وشيء من غفلة الزبون كان يغرى الناس بالاقبال على الشراء !

وكان عم سيد فى نظر البعض محتالا ولكنه فى نظر نفسه كان تاجرا وصاحب مهنة تعتمد على المجهود الذهني والبدنى . وكان شديد الايمان بأنه لا يزال فى بداية الطريق الذى سلكه عمر أفندى وأنه لن يلبث أن يكون مثله عما قريب . .

وكان سيد يكسب كثيرا ، ولكن ارباحه كلها تذهب اول الليل الى خمارة جرانت حيث كان يشرب السبرتو بشراهة ، فاذا تبقى معه شيء من النقود جاء ليقامر بها مع رواد قهوة السروجى فى آخر الليل ! وكان غريمه دائما رجلا اعرج يشبه كثيرا الشخصيات التى تزخر بها قصص جوركى . كان اسمه محمود وجاء الجيزة من حيث لا يدرى احد . . وجاءها متسولا ثم استوطن بها والتحق بخدمة اسرة كانت تحتكر عربات الكارو ولم يلبث ان اصبح عم محمود معروفا فى الحى وفى الجيزة كلها وذاع صيته لانه كان يقرأ الفنجان ويفتح الكوتشينة .

ولم يمض وقت طويل حتى اشترى عم محمود قطعة أرض واصبح من الملاك ومن الزبائن المحترفين فى قهوة السروجى . وكان النصر دائما فى معارك الكوتشينة لعم محمود الهادىء ، والفشل دائما لغريمه المتهيج المخمور . ولذلك كان الصياح دائما يتصاعد فى الشارع آخر الليل ، وكان الصياح من الحدة ومن الشدة بحيث يجذب عسكرى الدورية واحيانا كان ينتهى الحال بهما فى مركز البوليس .

وعندما مات عم سيد ذات مساء قتيلا ومخمورا على الرصيف ، انقطع عم محمود عن لعب الكومى ، واكتفى بالجلوس بعيدا واسداء النصح الى المقامرين ! وذات مساء هبط على قهوة السروجى رجل له كنبوش وبدلة متجلدة وحذاء فى لون الطين ، وكنت قد عرفت الرجل فى مناسبات اخرى كثيرة سابقة . ولكن وصوله الى قهوة السروجى ، كان كملاك الرب هبط على العبد لله من السماء .

جاء الرجل أبوكنبوش الى مقهى السروجى ذات مساء وكانت الليلة ممطرة وموحلة وبردها قارس ، وكان المعلم السروجى يجلس فى مكانه المعتاد والشيشة فى فمه يتطلع الى الزبائن فى سكون كأنه اله يرعى عبيده الطيبين ، وعندما وقع بصره على الرجل أبوكنبوش انتفض واقفا وصافحه بحرارة ، وتخلى عن مكانه القديم وجلس معه وطلب واحد شاى ميزة مخصوص للبيه . . وكان انتقال المعلم السروجى من مكانه والجلوس مع زبون على مقعد قش عادى حادث غير عادى فى مقهى السروجى .

وسرعان ما تهامس الزبائن الموجودون تلك الساعة عمن يكون الزبون المحترم الذى شرف المقهى فى هذه الساعة المتأخرة من الليل : وقال أحدهم وهو رجل طويل متين البنيان اسمه عم زكى ، وكان تاجر خضار يسرح بعربة يد فى شارع عبدالمنعم ، وكان أجش الصوت كثير العراك شديد البأس اذا خاض معركة فى الشارع فتك بكل من يقف فى وجهه . .

وكان عم زكى يؤكد أن سبب قوته الخارقة هو شغفه الشديد باللبن الزبادى . . وكان يقسم بأغلظ الايمان أن جده مات بعد حياة طويلة امتدت الى مائة وعشرين عاما ، وأنه تزوج من بنت عذراء وأنجب منها ولدا قبل موته بعام واحد ، وكان هذا الولد الاخير هو والد عم زكى . . وكان عم زكى رغم بأسه وقوته المفرطة يخاف على نحو خاص من عساكر البوليس . . وكان يحترم أى رجل له علاقة بالحكومة .

ورغم أنه كان بخيلا بشكل ملحوظ الا أنه كان ينفق أموالا طائلة لكى يتعرف على مخبر عين حديثا فى المركز ، أو لكى يسهر ليلة واحدة مع الصول الذى يباشر مهمة الضابط النوبتشى . . لذلك همس عم زكى فى أنحاء المقهى ، فغادر المقهى أكثر من زبون ، كان بعضهم يحمل مخدرات معه ، والبعض الآخر كان لا يحرز أى شىء مخالف للقانون . . ولكنهم آثروا الانسحاب حتى لا يعرضوا أنفسهم لأى خطر متوقع . . غير أن الرجل أبوكنبوش لم يكن ضابط مباحث ولم يكن له علاقة بمركز البوليس . . فقد أشار المعلم السروجى نحوى ، وهو يتبادل الحديث مع الضيف . . ثم دعانى للجلوس معهما . .

وعندما قدمه الى . . اكتشفت أن اسمه على وان البيه صحفى كبير كما أكد المعلم السروجى ، وأضاف ان البيه يريد ان يقرأ شيئا من انتاجى تمهيدا لتعيينى فى منصب كبير فى المؤسسة التى يملكها . . وعندما أبرزت من جيوبى أوراقا بها أزجال . . وقصص ، ومقالات ، اختار البيه عدة أوراق وراح ينظر فى سطورها بعدم اهتمام ، ثم هز رأسه فى النهاية وقال عفارم عليك . . دى مقالة جامدة قوى !! وقال المعلم السروجى فى اهتمام بالغ ، صحيح ؟!

واستبدت بى الدهشة لان الشىء الذى قرأه البيه المهم لم يكن مقالا ولكنه كان قصة قصيرة من صميم الحياة ! ومع ذلك لم أتوقف عند هذه الملاحظة طويلا ، وظللت أكتب مقالات وقصصا وأعرضها على البيه وأنتظر صدور المجلة الجديدة . وكم كانت فرحتى شديدة عندما اكتشفت ان البيه هو نفسه الذى يسكن فى بيت طوغان وفى الدور الارضى وفى شقة منزوية ومظلمة وأنه يقيم حفلات ساهرة فى شقته يحضرها خميس بائع الكازوزة المشاغب !! ويحضرها أيضا بعض الشخصيات المريبة فى الجيزة .

ولقد رأيت البيه فى مرات كثيرة سابقة وعندما سألت عم خميس أكد لى أن البيه صحافى كبير وأنه مدير عام مجلة الساعقة « الصاعقة » وأنه غنى ينفق عن سعة وأنه صاحب نفوذ فى الحكومة بدليل ان عددا من ضباط البوليس يترددون على شقته !!

وعبثا حاولت أن أعرف اسم البيه كاملا ولكن الجميع كانوا يعرفون أن اسمه على ولا أحد يعرف اسمه الكامل . . وأن كل المعلومات التى لدى معارفه قد استقوها من على نفسه ، وأن أحدا منهم لم يزره فى مكتبه ، كما أن أحدا منهم لم يره مشغولا بعمله فى يوم من الأيام !!

وذات صباح شفيت من داء الانتظار ، فقد اقتحم البوليس شقة على واقتادوه معهم الى القسم بعد ان زفوه فى الشوارع وضربوه على قفاه ، وتركوا الاولاد يلطخون ملابسه بالطين ويرجمونه بالحجارة . . ولقد ضبطوا فى منزل على مسروقات لاحد لها ، وتبين انه نصاب عريق وأن له سجلا حافلا من السوابق ، وأنه كان ينتحل صفة محرر بمجلة الصاعقة التى كانت ذائعة الصيت تلك الايام . . ولقد كان خميس المشاغب هو أكثر الناس شماتة فى على ، رغم أنه كان صديقه الوفى !

ولم أفهم سر شماتة خميس الا بعد ذلك بأسابيع ، فقد علمت أن النصاب على كان يخفى عند خميس كميات ضخمة من المسروقات ، وان خميس قد استولى عليها بعد القبض على الصحفى الكبير على !! واكتشفت عندئذ السر الذى جعل البيه يخلط بين القصة والمقالة ، فقد كان الاستاذ أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولكنه كان يتمتع بذكاء خارق وصاحب حيلة واسعة ودهاء شديد .

ولقد أصابنى الملل بعد ذلك من طول ما جلست على مقهى السروجى وقررت أن أقوم بأى عمل يبعدنى عن جو المقهى الكئيب . . وكانت جمعية الاخوان المسلمين فى الجيزة تقيم ليالى سياسية فى مقرها القريب من المقهى . . وقررت ان أنضم الى الجماعة ، فأنا خطيب أجيد مهنة الزعيق والصراخ بالالفاظ ذات الرنين ، وانا ايضا يكمن فى أعماقى مسجد وسميع أحب تلاوة القرآن . .

وخطفت رجلى ومعى طوغان الى المقر وحررنا استمارتين للعضوية ولكن سببا هاما وقف عائقا امام انضمامنا للجمعية ، هو أن مسئول الفرع طلب خمسة قروش من كل فرد منا كاشتراك شهرى ، ولما لم يكن معنا صنف العملة بالمرة فقد اعتذرنا وانصرفنا !! والى غير رجعة !

وهكذا عدت من جديد الى مقهى السروجى . . ولكن الوقت لم يطل بى هذه المرة ، فسرعان ما انتقلت الى مجلة جديدة عندما قرأت أول أعدادها لم استطع ان اذوق طعم النوم ليلة بأكملها . كانت المجلة اسمها « كلمة ونص » وكانت ضاحكة وساخرة وجذابة . . وكان مأمون الشناوى وصلاح عبدالجيد هما رئيسى التحرير ، ولا تحمل المجلة توقيع أحد غيرهما فى الداخل وقررت الذهاب الى دار المجلة فأنا أكتب شيئا قريبا من هذا الكلام المنشور بها . . وفعلا طرقت باب

« كلمة ونص » ذات ظهر أحمر شديد الحرارة لافح القيظ ، وكان العرق يتصبب من جبيني وشعرى الناعم قد تحول الى كتلة من الطين بفضل العرق والتراب . . وكانت جيوبى محشوة بأوراق تافهة وليس معى صنف العملة .

وكان كل أملى أن يسمح لى بالجلوس فى دار المجلة حتى العصر كى أتمكن من العودة الى الجيزة فى الترّاوة ، لانني سأعود على القدمين !!

واستقبلنى مأمون الشناوى بعدم مبالاة وبدون ترحيب . . . وقال على الفور وبدون مقدمات وكأنه قد شبع وارتوى من هذا الصنف من الناشئين المترددين على دور الصحف والمجلات . . عاوز تكتب ؟ ولما أجبت بالايجاب تساءل فى تهكم . . وبتعرف تكتب ؟ ولما أجبته بنعم ، أشار على مكتب امامه وقال اقعد كده ورينى . . ورغم ارتباكى الشديد وخوفى من الفشل فى اول امتحان حقيقى أواجهه . . فقد كتبت عدة أوراق بسرعة . . وعندما ألقى عليها نظرة قال وهو يتفحصنى . . . انت اسمك ايه ؟ وهتفت على الفور : محمود السعدنى ، فسألنى وهو يشعل لنفسه سيجارة . . السعدنى والا السعدانى ؟ قلت السعدنى ، قال آه ، انت عارف السعدان يعنى ايه ؟ ولما أجبته بالنفى ، قال السعدان يعنى قرد . . والسعدانى يعنى القرداتى ها ها ها !!

وهممت بالجرى من امام مأمون الشناوى ، وفكرت أيضا فى أن ألعن جدوده وانصرف ، ولكنى لم استطع التصرف ، وظللت واقفا كتمثال لا أتكلم ولا أتحرك حتى هتف مأمون الشناوى : طيب ابقى فوت علينا تانى ! ولم افهم هل هو جاد فى أن أفوت عليه تانى ، أم انه مجرد كلام حتى أمضى من أمامه ؟!

وعندما صدر العدد الثانى من « كلمة ونص » وجدت كل حرف كتبته منشورا بالمجلة وكاد قلبى يتوقف من شدة الفرحة . . ورحت أقرأ ما كتبت أكثر من مرة . . وانطلقت بأقصى سرعة مستعملا جميع وسائل النقل المعروفة وقتئذ ، فتشعبطت على سلم الترماى ، وفى الاوتوبيس ، وفى المرحلة الاخيرة من الرحلة قفزت على عربة كارو ولم أتركها الا أمام باب المجلة !! . . .

ولشدة حزنى اكتشفت أن يوم الصدور هو يوم العطلة ، فعدت أدراجى الى مقهى السروجى ، واعتكفت وحيدا فى ركن بعيدا أعيد قراءة مقالاتى القصيرة وأنا أشعر بلذة ليس لها مثيل .

وشعرت تلك اللحظة ، أن الكلمات . . وأن الطباعة هى أخطر ما اخترع الانسان . . وان هذه المجلة الصغيرة التى تنام بين يدى . . هى أول الطريق الى عالم المجد والشهرة والأحلام !

وفى اليوم التالى كنت أقف أمام مأمون الشناوى يتفحصنى بعينين نصف نائمة ونصف مفتوحة ، وكان مأمون يرتدى قميصا من الحرير اليابانى وأمامه على

المكتب عدة أوراق وعلبة سجاير فاخرة ، ومنديل من نفس قماش القميص . . وقال وهو يضحك ، هو انت السعداوى ؟ وقلت كأنني تلميذ خايب فى مدرسة صارمة التقاليد : لا . أنا السعدنى . وقال مأمون ولا يهمك !! كله عند العرب صابون . . أقعد .

وقعدت أمامه وقال أكتب لنا شوية براويز . . ورحت على الفور اكتب كأننى ماكينة ضغط مأمون على زرها لتدور ! وكنت هذه المرة أكثر شجاعة وأكثر اطمئنانا . . وعندما انتهيت من كتابة الاوراق أصبحت محررا بالمجلة وبمرتب شهرى ستة جنيهات كل شهر ، فهكذا قال مأمون الشناوى وهو يشير نحو حجرة جانبية ستصير هى حجرتى لعدة شهور قادمة هى كل عمر المجلة .

كانت الحجرة واسعة ونظيفة وبها مكاتب أنيقة ، ولم يكن هناك مكتب مخصص لأحد بذاته ، ولكنها كانت مشاعا لمن يجلس . . والتقيت فى هذه الحجرة بزميلين ربطتنى بهما صداقة طويلة . . أحدهما هو على الوليلى فنان فلاح من قرى المنصورة . . طرد من وظيفته وجاء الى القاهرة يرتدى بالطو أصفر وبر جمل كان يبدو داخله كأنه مدرس الزامى فى احدى مدارس الريف . . وكان على فنانا على دراية واسعة بمشاكل الريف ، وأحوال الفلاحين . . وكان قبل حضوره الى القاهرة موظفا فى قسم البلهارسيا ومهمته الاشراف على تطهير مجارى المياه فى الريف . . ولكنه هرب ذات صباح من الوظيفة ومن المنصورة وحضر الى القاهرة ليحترف الصحافة .

وكان الآخر هو يوسف شكرى وقد حضر من السويس الى القاهرة . . ليعمل سكرتيرا للتحرير . . وكان طويلا ونحيفا وطيبا وكذوبا ، ولكن أكاذيبه كلها كانت بيضاء . . وفى نفس الحجرة كان يجلس رسام كاريكاتيرى اسمه مجدى كان شهيرا ولامعا تلك الايام . . وكان يعمل فى مجلة روز اليوسف قبل ظهور عبدالسميع !! ورغم أنه كان يحترف الفن ألا أنه لم يكن يؤمن بالفن كوظيفة لها غاية فى الحياة .

كان الفن فى رأيه مجرد أكل عيش أو وسيلة لزيادة الدخل ، لذلك كان يقف مع قضية ما ويقف ضدها ، وكان يرسم كلما واتته فرصة للرسم ، ويتقاضى أى مبلغ يعرض عليه ، ويدور طول النهار يلف على دور الصحف يرسم لها ويقبض منها . .

وكان يبدو كتاجر خردوات متجول عديم الأنفعال بارد الأعصاب الى درجة تغيظ وقد نصحنى فى أول لقاء بأن أبحث لنفسى عن مهنة فى الحكومة لأضمن لنفسى موردا ثابتا . . وكان يكرر هذه النصيحة كلما حدثت مشاكل بسبب الفلوس فى المجلة . . فقد اشتغلت خمسة شهور كاملة ولم أتقاض عنها الا ستة

جنيهات فقط ! ولقد قدر لهذه المجموعة ان تلتقى أكثر من مرة فى عمل واحد بعد ذلك ، غير ان مجدى الرسام لم يلبث ان هجر الصحافة واختفى بعد ذلك بسنوات وقنع بعمله الحكومى بمصلحة المساحة !

ولقد كانت تجربة . . « كلمة ونص » رغم قصر المدة كفيلة بأن تمنحنى الثقة وتدفعنى الى التمسك أكثر بهذه المهنة التى أحبها . . كما كانت فرصة لا تعرف على أصدقاء جدد ، وكان مأمون الشناوى هو أهمهم وأكثرهم تأثيرا فى نفسى . وفى بيت مأمون الشناوى تعرفت على كثيرين من نجوم المجتمع ، وعندما رأيت أحمد بدرخان أول مرة فى بيت مأمون كدت أرقص من شدة الفرح ، فقد كانت المرة الأولى التى أرى فيها رجلا من رجال السينما بعينى رأسى !

وكان بدرخان بسيطا وأنيقا وطيبا الى درجة حببتنى فيه . . وكان يحلم بأفلام كبرى ملونة تفرض نفسها على العالم ، ولكنه عندما ناقش موضوع الفيلم الذى يكتب مأمون أغانيه ، تأكدت أنه لن يستطيع تحقيق أحلامه ، فقد كانت الفكرة ساذجة الى حد بعيد ! وعشت اياما طويلة تعصرنى البطالة ويرهقنى الانتظار . . وكان مأمون الشناوى هو قارب النجاة الوحيد الذى أتعلق به للوصول مرة أخرى الى الصحافة . . ولكن مأمون نفسه كان يعانى هو الاخر من البطالة ومن الفلس . . ورغم ذلك كان كريما الى حد السفه ، مضيافا ولا الامين ابن الرشيد ، متلافا لا وزن عنده لما سوف يحدث غدا .

وشعرت أننى اثقلت على مأمون الشناوى فانسحبت فى هدوء الى الجيزة ولكن هذه المرة الى كازينو شهريار . . . وكان المكان هادئا وانيقا وعلى النيل ومقصد العشاق والمشاهير من رجال الصحافة والادب ، والناشئين والمدعين وانصاف الادباء وانصاف الفنانين . ولم يكن لهؤلاء الانصاف حديث الا ما أصاب الحياة الفنية من قحط ، وما حط على دنيا الادب من بلاء ، وكل فنان مشهور فى عرفهم هو دلدول استطاع الوصول بأساليب رخيصة ، وكل اديب معروف هو نذل وخائن للوطن !

وكان هؤلاء الفاشلون يعيشون داخل انفسهم ولديهم قدرة هائلة على احترام ذواتهم رغم الفشل . . ولعل هذه هى ميزتهم الوحيدة ، وهى التى حفظتهم كل هذه السنين وشجعتهم على البقاء على هامش الحياة الفنية طامعين يوما فى الدخول فيها ، ورغم ان كل الابواب كانت موصدة ، وكل المسالك مسدودة . . . بسبب ضعف مواهبهم الفنية وضحالة ثقافتهم وقلة خبرتهم بالحياة وبالناس .

ولقد اصابنى الذعر منهم عند معرفتى بهم أول مرة . . وأبديت نحوهم

احتراما شديدا ، كانوا يدفعون دائما ثمن المشروبات التى نطلبها ، وكانوا ايضا يرتدون أفخر الثياب فقد كانوا موظفين فى دواوين الحكومة ولهم رواتب ثابتة . .

ولكن هيافتهم كانت واضحة الى درجة اننى اكتشفتها بعد فترة . . وعندئذ رحت أمزح معهم فى البداية ، ثم رحت اسخر منهم . . ولم يجدوا ما يعيروننى به الا اننى عاطل ، ولقد حز هذا الوصف كثيرا فى نفسى ، ولكنى لم أكف أبدا عن السخرية بهم والتشنيع عليهم . . وان كان وصفهم لى بالصايع قد دفعنى الى الالتحاق بوظيفة حكومية . .

وهكذا وجدت نفسى ذات صباح موظفا حكوميا فى عمل موسمى بمصلحة المساحة . . وكان هذا أول واخر عمل رسمى أقوم به فى حياتى . . وكان العمل هو حصر المساحات المزروعة فى مصر كلها وتحديدها حسب نوع المحصول . . وكان المكتب الذى يضمنا عبارة عن حوش كبير تتناثر فيه المكاتب المكسورة المجروحة والقذرة . . وفى الوسط يقوم مكتب واحد كبير كانه منصة قضاء ، وهنا يجلس رئيس القلم وهو رجل عجوز شديد الاهتمام بشاربه الكث الذى يجعله اشبه بممثل كومبارس فى مسرحية هزلية . . وكان الى جوارى موظف قديم يرتدى بنطلون شورت ليس من باب الرياضة ولكن لعدم توفر القماش . وكان اسمه جرجس افندى وكان شديد النفاق للبيه المدير ، مع ان المدير كان فى الدرجة السابعة ، وكانت ميزته الوحيدة انه يدخن السجاير من علبة ، بينما الموظفون جميعا يدخنون السجاير الفرط .

ولما كنت أنا أصغر الموظفين سنا واكثرهم عدم مبالاة ! فقد اشعت فى المكان جوا مرحا . وكان جرجس أفندى هو هدفى فى البداية ، ثم امتد نشاطى فشمل الجميع حتى رئيس القلم على افندى . . وبعد ثلاثة شهور كاملة فصلت من الوظيفة ! والتهمة اننى أحلت المكان الى سيرك . وكانت التهمة حقا . . فمنذا الذى يوجد فى مكان يحوى كل هذه النماذج من الحيوانات ولا يتحول الى مهرج يتشقلب على ظهره ويمشى على السلك !

ولقد أبدت شلة الادباء الفاشلين شماته لا حد لها بسبب فصلى . . فها هو ذا الولد الصايع عاد صايعا كما كان ولا فائدة ترجى من حياته . . فلا هو نفع فى الصحافة ولا فلح فى الوظيفة وأبدوا نحوى اشمئزازا ونفورا . . وكلما دخلت الكازينو اشاحوا بوجوههم عنى ، فاذا حاولت الاقتراب منهم ابتعدوا وانتقلوا الى ركن آخر . .

وذات مغربية دخلت الكازينو منتفشا كديك رومى وجلست على مقربة منهم وصفقت بشدة للجرسون وطلبت فنجان قهوة سكر زيادة ولم اكن احب شرب

القهوة ولم اكن اطيق طعمها . . ولكنى تعمدت ان اطلبها لانها كانت ارخص مشروب فى الكازينو . . ولم يكن معى سوى نص فرنك فضه جديد وكنت احتفظ به فى جيب بنطلونى . . ورحت ارتشف القهوة على مهل وانا اتطلع اليهم فى كبرياء . .

وعندما دخل احد اصدقائى الشبان وصافحنى قلت له فى هدوء مسموع ، ابقى كلمنى بكرة عشان تشتغل معانا فى المجلة الجديدة . ولم يكن هناك مجلة جديدة ولا اشغال جديدة . . ولكن الهدف كان ان اغيظ الشلة الفاشلة وان يشعروا بالحسرة لاننى حصلت على عمل فى مجلة بينما هم يتطلعون الى العمل فى الصحافة دون جدوى .

وعندما جاء وقت الحساب سقط قلبى فى حذائى ، فقد رحت ابحث عن النص فرنك دون جدوى . . سقط من ثقب فى جيب البنطلون . . ورحت ابحث فى الارض بعصبية شديدة لفتت انظار الشلة نحوى فارتفعت ضحكاتهم تجلجل فى انحاء الكازينو . وانهالت تعليقاتهم الساخرة منى . . ولكن الجرسون الطيب الشهم حسين انحنى على الارض والتقط حفنة رمل وكأنه التقط النص فرنك ثم حيانى فى ادب ومضى من امامى كأن الحساب خالص !

تمثيلية قصيرة قام بها الجرسون لينقذنى من المحنه التى وقعت فيها . ولازلت أحمل لهذا الجرسون الطيب ودا عميقا ومنزلة خاصة فى نفسى . . وهو الان تاجر ناجح ومدير اربعة محلات كبرى فى حى الدقى . . ولكنى وبرغم مهارة الجرسون وطيبته المتناهية . وبرغم جو الخريف البارد فقد أحسست بالعرق يتصبب من جسمى كله ، وشعرتـ بان الارض تدور بى واننى على وشك السقوط مغمى على . . ومشيت كالسكران وغادرت الكازينو الى غير رجعة . .

ياله من احساس رهيب على النفس عندما يصطدم الفاشل بفشله . . هأنذا مجرد ولد صايع فعلا ، فلا شغلة ولا مشغلة ووقتى كله ابدده فى ان اغيظ شلة كل افرادها اكثر فشلا منى ، وهأنذا بعد سنوات من الكفاح المرهق الطويل لم أحقق شيئا ولم اصل الى اى شىء بعد ، وهتف هاتف فى نفسى . . الى أين ؟ نعم الى أين . الى أين . . سؤال راح يلح على نفسى وأنا أجر خطواتى على الطريق المظلم الطويل المحاذى للنيل فى تلك الليلة من ليالى الخريف الباردة . وبدأ السؤال وقتئذ بلا اجابة ، كما بدأ الطريق أمام عينى بلا نهاية ، صحيح الى أين ؟ أنا نفسى لم أكن أعرف ، ولم يكن هناك أحد يستطيع أن يجيب على سؤالى ، وارتميت على دكة من الرخام على شاطىء النيل ، وانخرطت فى بكاء عنيف هزنى هزا . .

ياله من احساس رهيب عندما يصبح الانسان الفرد وحيدا فى مدينة كالقاهرة . . مزدحمة وكبيرة ! وفى ليالى الشتاء المظلمة الكئيبة كنت اضطر الى الخروج من مقهى قاصدا مقهى آخر ، فاذا أغلقت المقاهى كلها كنت أقطع شوارع الجيزة بحثا عن مكان أحتمى فيه من البرد الشديد دون جدوى . فاذا طلع الصباح أسرعت الى منزلنا لألتهم افطارا خفيفا وانام قليلا قبل ان يعود أبى من الخارج ، لاستأنف الصياعة من جديد حتى يطلع نهار آخر . حتى المقاهى أغلقت أبوابها فى وجهى لان المشاريب أصبحت بالامر وحتى شلة زكريا الحجاوى هجرتها هى الاخرى لخلاف بينى وبين واحد جديد اسمه سعد . . أصر زكريا الحجاوى على أنه أعظم من أنجبت مصر من الأدباء وان انتاج الحكيم والعقاد وطه حسين لابد سيتوارى يوما ما خزيا أمام انتاج العبقرى سعد . . هذا اذا قدر لانتاج العبقرى ان يظهر يوما . .

وكان زكريا الحجاوى يصدر مجلة اسمها الميزان ، وقد نشر لسعد بحثا هاما فى أول أعدادها . . بينما رفض أن ينشر لنا حرفا فيها . . وعندما ناقشنا زكريا فى هذا الامر قال فى حماس غريب « سعد ده هو الاديب العربى الوحيد اللى هيعرف يرد على لينين » وكانت هذه أول مرة أسمع فيها اسم لينين . ولكنى عند قراءة البحث تبينت مدى فساد عقل سعد هذا ، ومدى فساد رأى زكريا !

ولما كان سعد ابن أسرة ثرية فى الريف ، وميسور الحال وينفق عن سعة ، ولما كان زكريا يعتمد فى تدخين السجائر على سعد هذا فقد انضم الى سعد ضدى وطردنى بغير رحمة من الشلة . وأثرت هذه الحادثة على نفسى تأثيرا كبيرا . . فقد كان عطوفا ومدرسا مثاليا ، فقد أعطانى مفاتيح كثيرة للمعرفة كان زكريا الحجاوى هو أهم انسان فى حياتى . . وكان حنونا وكان له الفضل فى أننى تعرفت على أعلام الفكر والفن والموسيقى : الجبرتى ويعقوب صنوع وروميسكى كورساكوف وابن خلدون والامام الشافعى . .

ولقد استفدت كثيرا خلال الفترة التى عرفته فيها رغم أنه كان لا يقدم لنا أكثر من أسماء هؤلاء الاعلام . . أما المعلومات فكان علينا ان نبحث عنها بعيدا عن زكريا ، لأن زكريا نفسه لم يكن من هواة القراءة . . ولم يكن لديه كتب ! ولذلك كان زكريا سلاحا ذا حدين ، فلكم استفاد هؤلاء الذين التقطوا الخيط من زكريا ثم تابعوه هم أنفسهم بعد ذلك ، ولكم ضاع هؤلاء الذين اكتفوا بسماع زكريا واطمأنوا الى ان هذا الكلام هو نهاية المطاف وغاية الثقافة ، فلقد كان زكريا يذكر امام تلاميذه أسماء كثيرة غريبة وكان ينسب الى هؤلاء الاعلام أفعالا لم يرتكبوها ويذكر على السنتهم كلمات لم يتفوهوا بها قط .

وكان واسع الخيال الى حد رهيب . حتى أنه حكى لى ذات مرة أن سيدة ثرية من العراق استأجرت طائرة خاصة حلقت بها فوق منزله فى الجيزة لعل قلبه يرق لها بعد أن هجرها دون جدوى .

وحكى لى مرة أخرى أن فنانة مشهورة جاءت اليه بعد منتصف الليل وهى ترتدى الملاية اللف والمنديل أبو أوية ، وسارت معه على الاقدام فوق كوبرى عباس بالجيزة . ولما استوضحته اسم الفنانة ذكر فى هدوء بارد . . اسم الفنانة ام كلثوم

ولكنى كنت سعيدا بصحبته رغم كل شيء . . وعندما فقدته ادركت مدى الفراغ فى نفسى . . ولقد غفرت له مواقفه منى فى أول لقاء لنا بعد ذلك فقد ادركت مدى بؤسه وضياعه .

والحق أن زكريا كان طاقة فنية لا حد لها . . وكان يقطر فنا حتى من بين اصابعه ومن تحت اسنانه . . . وبينما كانت الاصداف تلمع تحت أضواء الشهرة . . كان زكريا الذهب ينام مدفونا تحت تراب مستشفى الحوامدية . فقد كان زكريا هو كاتب المستشفى وأمين المخازن ، واستطاع فى فترة وجيزة ان يتحول من كاتب فى المستشفى الى زعيم للمدينة . . ولكن الروتين الحكومى العفن الذى يريد من الموظفين ان يتحولوا الى مكاتب وليس الى زعماء قدم زكريا للمحاكمة وطرده من المستشفى الى وظيفة حقيرة فى مجلس بلدى بالجيزة . . واضطر سنوات طويلة ان يعول عشرة أشخاص بخمسة جنيهات لا تزيد !

وكان موقفه السياسى مضطربا مثل حياته . . ففى صباه تولى زعامة الطلبة فى مدرسة الفنون والصنايع . . ولعب دورا هاما ضد النحاس باشا وحزب الوفد . . وعندما ترك المدرسة كان من رواد التنظيمات الماركسية فى مصر . . واستمر حتى أصبح يشغل منصبا قياديا فى أحد التنظيمات !

ثم اختلف مع اليساريين وخرج بما أسماه الاشتراكية الاسلامية ولكنه لم يستمر طويلا فى هذا التيار ، ولم يلبث ان هجر السياسة كلها قانعا بجهوده فى الادب والفن ، ولذلك عدت الى زكريا الحجاوى هذه المرة وانا اكثر حذرا واعمق فهما لتصرفاته ، غير انى لم البث ان هجرت الشلة مرة أخرى الى مجلة الاسبوع ، وكانت الاسبوع فى الأصل مجلة أصدرها جلال الدين الحمامصى ثم توقفت عن الصدور فجأة . وجاء رجل من الصعيد اسمه أمين وأصدرها رغم أنه لم يكن على علاقة بالصحافة .

وكان الائتلاف الدستورى السعدى يحكم البلاد بيد من حديد والرقابة مفروضة على الصحف وكانت أخبار اليوم هى المجلة الوحيدة المزدهرة ، وأيضا

مجلات دار الهلال ، وفيما عدا هذا فقد كانت كل المجلات تلقى المتاعب والاهوال .

واجتمعنا فى مجلة الأسبوع : أربعة شبان صغار وصاحب المجلة . ورجل آخر اسمه هارون كان من أقارب صاحب العمل وكان يتولى منصبا هاما ودائما فى المجلة . . هو حارس رئيس التحرير وملاحظ الطبع فى المطبعة ، وكان على جمال الدين يتولى منصب مدير التحرير ، وكان طوغان هو رسام المجلة الوحيد ، وكنت أنا كل اسرة التحرير وكل المحررين ! وكان يعف علينا كالطير عشرات آخرون . منهم أفندى صعيدى اسمه الاقصرى . ! بدد حياته كلها ومواهبه كلها فى الكتابة بالفصحى الصحيحة وبالنحوى السليم . وكان يحفظ الفية ابن مالك عن ظهر قلب . . ويعتقد أن العالم اينشتين أجهل من دابة لأنه لا يعرف الفاعل من المفعول .

ولم يستطع الاقصرى هذا ان يدرك ان الحياة أوسع من الفية ابن مالك ، وان الكتابة احساس اكثر منها حفظ للفاعل والمفعول ! ولذلك كان دائم الشجار فى المجلة لأننا لا ننشر مقالاته .

وعندما صدر العدد الاول كان يحمل أول تحقيق صحفى بتوقيعى ، وكان التحقيق عن رجال الحرس الوطنى ، وكان يقطر سخرية بخفراء الاقاليم ، وفى ذلك المساء حضر الاقصرى الى المجلة وسبنى سبا شديدا ، واتهمنى بأن شخصا آخر يكتب لى مقالاتى . وراهننى امام الجميع أن أعرب « بلادى وان جارت على عزيزة . . واهلى وان جاروا على كرام » لأبرهن للحاضرين انى اجيد الكتابة . . ولم أعرب شيئا بالطبع ولم يقتنع الاقصرى بأننى أنا الذى كتبت المقال . .

باع العدد الأول فى الاسبوع سبعة آلاف نسخة . وفى العدد الثانى باع الف نسخة فقط ، ثم أخذ البيع يتناقص حتى بلغ مائة نسخة .

وبينما كان صاحب المجلة فى دهشة لنقص التوزيع ، كنت أنا أيضا فى دهشة لاننا نبيع كل هذه الكمية . فلم يكن فى المجلة شىء يقرأ . ولم يكن لها هدف واضح . وكان لدينا « مصوراتى » يحمل كاميرا ضخمة لها شوال أسود ضخم يضع رأسه فيه كلما ارتكب عملية تصوير أحد . وكان يحمل معه جردلا لتحميض الصور وكان لا يصور الا فى الشمس . . وكان يقف فى ميدان التوفيقية بالقرب من دار المجلة . . وكنا نستعين به كلما دعت الحاجة الى جهوده .

وذات مرة سحبته من يده لنصور مجموعة من العمال العاطلين لاكتب عنهم موضوعا بعنوان الذين فاتهم القطار . . وبعد ان التقط صورهم راح يستخرج لهم نسخا بالاجر . وعندما نهرته امام الجميع حمل الجردل وضربنى به على رأسى . . ثم رفض العمل معنا بعد ذلك !

كان صاحب ورئيس تحرير المجلة قد بدأ يهمل شأن المجلة ونادرا ما كان يحضر الى مكتبه تاركا العمل لحارس المجلة هارون.وتحول هارون شيئا فشيئا من غفير خصوصى الى رئيس للتحرير وراح يتفش علينا فى كل لحظة ، والويل لنا اذا ضحكنا أو ارتفعت صيحاتنا . ثم راح يتدخل فى العمل أكثر . . واعترض على الرسوم والمقالات مع أنه لم يكن يقرأ ولا يكتب .

وذات مساء جن جنونه فحمل هراوة وانهال بها ضربا علينا وطاردنا حتى الطريق . وظل عم هارون يصرخ طول الليل وفى الصباح حضرت الاسعاف وحملته معها الى المستشفى الخانكة ، وأجبرت هذه الحادثة صاحب المجلة على الحضور . ولكنه لم يحضر وحده ، جاء معه رجل اسمه اسحاق الجوهرى ، وقدمه الينا بصفته مديرا عاما للمجلة .

وكان الجوهرى رجلا مهيبا سمينا عليه سمات أصحاب الاعمال وكان يحترف ادارة الصحف الميته . . فيكفيه اسم مجلة لينطلق بعد ذلك ينصب على مخاليق الله . . وكانت السفارات الاجنبية والشركات الكبرى هى مجالات نصبه . ولقد أقنعنا الجوهرى ان مجلة الاسبوع سيصير لها دار ولا دار أخبار اليوم . . وسيصبح لكل محرر أرشيف ودوسيه خاص ، وستصلنا مرتباتنا فى أظرف مغلقة ، وسيصبح مرتب كل محرر خمسين جنيها كاملة ، وعشت فى هذا الحلم اسابيع كثيرة .

ولم يعد رئيس التحرير يظهر بالمرة وعرفنا بعد ذلك أنه نال غرضه منها ، وأن الحكومة قررت له مصاريف سرية وكمية من الورق ، كان يستهلك بعضها فى المجلة ويبيع الكمية الاكبر فى السوق السوداء .

وجلسنا اسابيع نتدارس الامر ، على جمال وطوغان وانا ، ولكننا لم نصل الى حل ، وذات مساء حط علينا وافد جديد اسمه فهمى . كان سمينا كالعجل ويرتدى بالطو من الجلد وطاقية من طواقى الروس . وكانت معه قصة مترجمة عن تشيكوف اسمها « النهار » وطلب منا نشرها . . ولما أخبرناه ان النشر بدون أجر . . أبدى استعدادا طيبا للتعاون معنا على هذا الاساس . . كانت القصة لا بأس بها ، وعندما سألته عن اللغة التى ترجم عنها القصة ، قال فى هدوء . . الروسية . . وقال أنه قضى فى روسيا خمسة أعوام حيث كان والده يعمل مستشارا فى السفارة المصرية فى موسكو . وان له مؤلفات باللغة الروسية ذائعة الصيت هناك . . وبعد أسابيع اكتشفنا أنه طريد المدرسة السعيدية ، وأنه لا يجيد لغة على الاطلاق ، وانه نصاب راسخ القدم فى هذا الفن ، وأنه لم يخرج من القاهرة الا الى بنها . . وعندما واجهناه بالحقيقة اكتفى بالابتسام ، وصاحبنا بعد ذلك طويلا . واشتغل فى عدة صحف كبيرة . ثم سافر الى الخارج وأقام فترة طويلة

هناك . . ولكنه لم يكف أبدا عن النصب فى أى مكان يحل فيه.ثم قدر له ان ينتهى النهاية الحتمية والوحيدة التى كانت تنتظره فقد دخل السجن يقضى مدة العقوبة وهى الاشغال الشاقة المؤبدة ، وظل فى السجن حتى مات !

ثم جاءت النهاية بعد ذلك . . وفى ليلة ممطرة ومظلمة وشديدة البرودة . وكنا نجلس فى المطبعة على جمال وأنا ، كنا نطبع سبعة آلاف نسخة كل أسبوع ، نبيع منها مائة نسخة ثم نبيع المرجوع فور رجوعه ، وكنا نتناول أجورنا من ثمن المرجوع وهى لم تزد أبدا عن جنيهين فى كل مرة . وقررنا فى تلك الليلة ان نبيع المجلة فورا ، وقدرنا اننا سنكسب اكثر لان الاعداد طازة وساخنة وستزن اكثر . . وهو عمل على أية حال خير ألف مرة من طرحها فى السوق ثم أعادتها من جديد ، ثم بيعها بعد ذلك ، ثم هو ايضا حل لمشاكل كثيرة بالنسبة لنا . . فلم يكن معنا نقود . ولم يكن لدينا سجاير ، وكنا نشعر بالاحباط

وفعلا غادرت المطبعة قرب الفجر الى شارع محمد على . وعدت الى المطبعة ومعى تاجر ورق يجر عربة يد وميزان لزوم الوزن بالاقة . . ورحنا نحمل الاعداد ساخنة من المطبعة الى الميزان . . ولهفنا أكثر من ثلاثين جنيها دفعة واحدة . . اقتسمناها على الفور ، واحتفظ كل منا بنسخة من المجلة . وانصرفنا على غير موعد والى غير لقاء .

ولم يشعر صاحب المجلة بالامر الا بعد أسبوع . عندما ذهب الى دار المجلة ليكتشف ان المكاتب نفسها غير موجودة . فقد أصبح فهمى هو المتردد الوحيد على المجلة بعد غيابنا . . ولما يئس من حضور أحد . . باع المكاتب لتاجر فى وكالة البلح واختفى هو الآخر ايضا !

ولقد غاظنى جدا ما قام به فهمى وحده ، فلقد خرج من الصفقة بنصيب الأسد ، وبينما اقتسمت أنا وعلى مبلغ الثلاثين جنيها خرج هو بستين جنيها دفعة واحدة . . لذلك رحت اتردد على منزله لعلنى أجده فاعكمه من قفاه وأتناول نصيبى من الغنيمة ولكنى دخت دوخة الارملة وراءه دون ان اعثر له على اثر .

وذات مرة صممت على ان انتظره . وظللت عند الباب انتظره حتى انتصف الليل . وفجأة رأيته قادما من اول الزقاق فى البالطو الجلد اياه وجوانتى مطعم بالفرو ونفس الطاقية الفرو فوق رأسه . منظر امير من امراء بطرسبرج فى عصر غابر ولا يتفق أبدا مع منظر الزقاق الفقير المظلم الذى تنضح من حيطانه رائحة عفنة . . وعندما رآنى . . وكنت مصرا تلك الليلة على أن أتناول حقى أو أرتكب جريمة ! فلم يكن معى نقود ولم يكن هناك عمل آخر . ولكن عندما طلع الصباح علينا ونحن فى حجرته القذرة . . كنت قد نسيت كل شىء ، ولم اعد أشعر نحوه الا بالاسف والشفقة .

كانت الحجرة عارية تماما من أى اثاث . وعلى الحائط صورة ضخمة لفهمى نفسه فى ملابسه الانيقة وفى فمه بايب وحلقات الدخان تبدو فى الصورة وعلى رأسة قبعة وفى بوز مفتعل كأنه ممثل فى رواية . وكانت المرتبة القذرة ملقاة على الارض البلاط ولم يكن لديه غطاء الا البالطو . ولكنه كان يحتفظ فى ركن الحجرة باعداد مجلة الاسبوع التى نشر فيها قصصه . وأكثر من خطاب مرسل اليه من بعض رؤساء تحرير الصحف الكبرى ، وكانت كلها ردا على خطابات أرسلها اليهم بصفته قارئا معجبا بهم على نحو ما !

وعندما دعانى على العشاء معه سحب علبة فاصوليا ناشفة من ركن فى الحجرة . ووضع العلبة نفسها على النار ثم سحب عدة أرغفة من العيش الناشف وكمية من المخلل كان يحتفظ بها . وعلى رشفات الشاى الساخن الذى أعده على عجل راح يحكى لى متاعبه فى الحياة ، متاعب لا حصر لها مع أسرته ومع صاحب البيت والبقال ومع فتاة على علاقة بها . وسحب من تحت المرتبة صورة لبنت بضة وممتلئة وشعرها أسود وعلى شفتيها ترتسم ابتسامة ساذجة . . وغبطه بينى وبين نفسى على البنت وعلى الصورة التى معه . . فلم أكن حتى هذه اللحظة على علاقة بأى فتاة . . وكل علاقاتى كانت عابرة وبالصدفة . . ولم يكن لدى الوقت ولا المال لاهتم بشىء آخر غير البحث المستمر الدائب عن عمل . . أو مأوى أو فلوس !

وسألته عن سر متاعبه مع الفتاة فحكى لى بصراحة أنها طالبة فى الجامعة ، وأبوها موظف كبير فى الحكومة . . وقد تعرف عليها فى حفلة وقدم نفسه اليها بصفته خريج جامعات موسكو . . وصحفى وكاتب قصة ومن أسرة ثرية وقوية وتمتلك مئات الافدنة فى الصعيد .

ولقد تعرف عليها فى بداية الامر ليعبث بها وليهبر منها ما يستطيع من الفلوس . ولكنه لا يستطيع التقدم اليها ، مع أنها ترفض الزواج من غيره وتريده ، وهو يخاف لأن كل المعلومات التى قدمها عن نفسه كاذبة ، ولأنه أيضا لا يجد ثمن افطاره كل صباح . ولما سألته عن مصير المبلغ الذى هبره من بيع المكاتب ، سحب كشفا من تحت المرتبة وراح يقرأ . . خمسة جنيهات للبقال خمسة جنيهات للجزار ، خمسة جنيهات للترزى ، عشرة جنيهات لأمه المريضة فى المستشفى ، جنيهان لشقيقه الاصغر الذى يدرس فى الاورمان ، خمسة جنيهات للمطعم ، جنيه ثمن حذاء ، جنيه مش عارف ايه ، جنيه لمين . . ومن واقع الكشف المكتوب تبينت أنه لم يعد معه شىء !! وأقسم لى وصياح الديكة يتصاعد حولنا فى الزقاق انه لم يحصل منذ عامين على أى دخل من أى نوع على الاطلاق . وأنه قادم الآن من العباسية الى عابدين سيرا على القدمين !

وشهور كثيرة مرت بعد ذلك رهيبة وسوداء أسود من جلد الفيل . . ولكن وقع خلالها حادث كان له أثر كبير فى حياتى . . فقد اصطحبنى طوغان معه ذات مغربية الى نقابة الصحفيين . . ولم يكن طوغان عضوا فى النقابة ، وكان من أحلامه أن يصبح يوما ما عضوا فيها . وعندما دخلنا سألنا موظف الاستعلامات عن الاسم والمهنة والعضو الذى نبغى زيارته ، وذكر طوغان اسم العضو الذى يعرفه . . زهدى الرسام .

ودخلنا النقابة ولكن زهدى لم يكن هناك . واستقبلنا رجل آخر سمين وطيب وفنان كانت له شهرة كالطبل تلك الايام . ولم أصدق انا ان هذا الرجل البسيط الخجول الطيب هو نفسه الفنان الكبير الذى كانت شهرته تطبق الآفاق . كان الفنان هو رخا . . وتلك الليلة لا أنساها مدى الحياة . . فقد عاملنا رخا باحترام زائد . ولعب معنا طاولة وعزمنا على العشاء .

وكانت النقابة تزدحم بعشرات من الصحفيين اللامعين . وكانت بها حجرة للقمار سهرنا فيها نتفرج على اللاعبين حتى الفجر ، ثم خرجنا مع رخا الى ميدان باب الخلق ، واكلنا فطيرا على الرصيف ، ثم ركبنا معه تاكسى حتى ميدان الجيزة . واقسم ونحن نودعه ان نحضر الى النقابة كل ليلة وأكد لنا أنه سيكون فى انتظارنا هذا المساء !

ولكنى ترددت فى الذهاب الى النقابة بعد ذلك . وأخذت أحكى للناس فى كل مجلس عن أحداث تلك الليلة الخالدة ، وبمناسبة وبغير مناسبة كنت أحشر اسم رخا فى الحديث . أحيانا كان الحديث يكون عن حرب فلسطين المتوقعة بعد انسحاب الانجليز . . فأتدخل فى الحديث . . « مش ممكن هتحصل حرب ، دنا ليلة ما كنت سهران مع رخا ، تناقشت فى هذا الموضوع ، وعرفت كذا وكيت وكذا » !!

وليال كثيرة كنت أذهب حتى باب النقابة ثم أحجم عن الدخول . فقد كانت ملابسى غير لائقة ، وكنت أشعر بخجل شديد من عيون الناس وهى تعربد فى عيوب الجاكتة ومساوىء القميص . ولعل تلك الايام هى السر فى أننى سأظل بقية حياتى أشعر بضعف شديد امام الملابس الجديدة وسيظل بى شغف شديد بالاناقة وحرص أشد على أن أبدو دائما فى ثوب قشيب .

وهكذا وبعد شهور طويلة . . بالبدلة المكرمشة التى بليت من طول الاستعمال ، والحذاء المضروب المخبوط ، زحفت ذات صباح نحو أول مجلة محترمة قدر لى أن أعمل بها . وكانت المجلة فى شارع فاروق ولها دار كبرى وماكينات طباعة خاصة بها . وكان صاحبها يشتغل بالترجمة واستطاع بعد كفاح مرير ان يهز السوق الصحفى هزا بمجلة ذات طابع جديد هى مجلة مسامرات الجيب .

وقد ضربت المجلة عند صدورها مجلات دار الهلال ضربا شديدا ، ثم وقفت تناطح مجلات أخبار اليوم فى السوق . . وعندما تولى أبوالخير نجيب رئاسة تحريرها واتجه بها نحو المعارضة ومال بها نحو الوفد . . كانت المجلة قد وصلت الى أعلى رقم وصلت اليه مجلة من نوعها فى التوزيع . وكانت المجلة تعتمد فى توزيعها الى جانب الرأى ، على قصص من لون جديد يكتبها شاب ناشىء وضابط فى الجيش اسمه يوسف السباعى .

وكانت رسوم الحسين فوزى تلهب خيال القراء بطابعها المميز وأسلوبها الفريد . ولكن عندما وصلت اليها كانت الدار التى تصدر عدة مجلات قد أخذت تتدحرج . وهجرها أكبر محرريها لمماطلة صاحب الدار فى دفع المرتبات . ثم فقدت أغلب قرائها عندما هادنت المجلة الحكومة السعدية وفتحت أبوابها لكل من يريد أن يعمل فيها بلا أجر .

وفى هذه المجلة تعرفت بكل أبناء جيلى من الصحفيين . . بعضهم يتولون المسئولية فى صحف هذه الايام . . وبعضهم تدحرج ولا يزال يقف مكانه محلك سر ، وبعضهم ترك المهنة كلها وضاع فى الحياة ، ولكن سيظل أبرزهم على الاطلاق ثلاثة . عبدالمنعم الحمزاوى الذى جاء ذات يوم من الصعيد ليعيش مع خاله فى القاهرة ، فلما فشل فى الدراسة راح يسرح وراء خاله فى حوارى الجيزة يبيع الجاز ، ثم اشتغل فى الحكومة موظفا فى الدرجة التاسعة ، ثم تسلل الى الصحافة بموهبة فذة وخبرة هائلة وعلم قليل .

وبعد فترة قصيرة اتخذ لنفسه ركنا فى مقهى بشارع ابراهيم باشا واجتمعت حوله شلة من الادباء الشبان الصياع . واصبحت يوما ما عضوا فى هذه الشلة ولكن لفترة وجيزة . ذلك ان رجلا مثلى كان ينحدر من شلة زكريا الحجاوى سرعان ما اكتشف تفاهة وضياع اكثر الجالسين فى الحلقة . وكان أحدهم واسمه أحمد يثير ضحكى كلما هم بالكلام . كان قصيرا واحول ويلف حول رقبته خرقة مبللة فقد كان مصابا بالبرد على الدوام . . وكان اذا فشخ بقه بدا كأنه حمار على وشك النهيق ، وكانت احكامه الادبية لا تفترق كثيرا عن أحكام بائع موز يتصدى للامور العلمية !

وكان ثمة تلميذ آخر من تلاميذ هذه المدرسة يدعى صمويل ، وقد مل صمويل حياته ولم يطق الصبر على الفلس والجوع ، فتخلص من هذه الحياة ذات صباح ، بأن شنق نفسه بالكرافته الوحيدة التى كانت هى كل ممتلكاته ! ولقد أسفت على النهاية الحزينة التى انتهى اليها ، فقد كان أكثرهم علما وأكثرهم خبرة بالادب والفن والحياة !

والحق أقول أن عبدالمنعم الحمزاوى نفسه كان على شيء . . ولو أتيح له أن يقرأ ما ينبغى لمثله أن يقرأه . . لكان له شأن آخر . فقد كان يتمتع بمواهب خارقة ، وكانت تجربته فى الحياة أطول بكثير من سنوات حياته وأعرض بكثير من حياة الآخرين !

وكان الرجل الثانى الذى عرفته فى مجلة مسامرات الجيب ، هو سيد حمدلله وكان فى الأصل كاتب محامى استطاع أن يصل الى منصب رئيس التحرير . وكان صاحب اسلوب جميل ولكنه كان شديد الهيافة ، واهتماماته كلها كانت تنحصر فى الليل والسهر والانصهار داخل الحياة اللذيذة .

ولم يكن يهتم بالسياسة على أى نحو ، وعلاقته بالأدب تنحصر فيما تنشره المجلات من قصنص هايفة ، وما يذيعه الراديو من أحاديث للأدباء ، وكان الى جانب عمله كرئيس للتحرير مشغولا دائما بالحصول على اعلانات من أصدقائه الفنانين للمجلة .

وكان شديد الزهو لعلاقات الصداقة التى تربطه بكبار الممثلين . وكان يعتقد أن الحكمة والفن والفلسفة تكمن كلها فى رأس ممثلة حمقاء كانت تبادله الحب . ولذلك كانت صورها تحتل صفحات المجلة ، وكلماتها الساذجة ينشرها فى براويز كمادة لتثقيف القراء . وعندما أغلقت المجلة التى كان يتولى رئاسة تحريرها أبوابها ، لم يستطع الصمود طويلا ، ولم يلبث أن تدحرج حتى كنسه النسيان !

أما الرجل الثالث فكان عالما بحق ، ومثقفا على نحو رفيع ، وطيبا يمسح ـ رغم بؤسه وضياعه ـ على جراح الآخرين .. وكان قد هجر وظيفته الدائمة والمرتب المستقر الى الصحافة ولكنه فوجىء بعد شهور بأن المهنة التى اختارها ، هى مهنة صياعة وضياعة وعدم استقرار . . ولكن نفسه الفنانة وهى نفس أمارة بالسوء ، كانت تلح عليه أن يبقى حيث هو ، وان يمضى فى طريقه وسط الاشواك والصخور . ومن هذا الرجل تعلمت الكثير فى صباى . وأغلب الكتب التى قرأتها تلك الايام اقتبستها من عنده !!

وكان هو أول من زرع الثقة فى نفسى ، وأول من جعلنى أتشبث بأسنانى بمهنة الصحافة رغم طول ووعورة الطريق ! ولقد قدر لهذا الرجل ان يشق طريقه بعد ذلك بنجاح ، وأن يتغلب على كل العقبات والصعاب ، وأن يلمع ليصبح أحد نجوم الصحافة وكتابها الكبار . وكان الدور الذى لعبه فى حياتى هاما وجوهريا وخطيرا ، وكانت علاقتى به بداية مرحلة جديدة . . وما أكثر المراحل التى خضت فيها خلال رحلتى القصيرة العريضة فى الحياة الرجل الطيب اسمه محمد عودة الكاتب الشهير الذى يتألق دائما فى الأزمات

(٤)



٤

كان الرجل الطيب حين التقيت به أول مرة خارجا لتوه من محنة شديدة حطمت قلبه وافقدته الثقة فى كل شىء ، وبدا لى أنه يعانى قلقا شديدا وأنه يشعر بمرارة لاحد لها وحين وقع نظره على أول مرة لم يتجاهلنى ولم يشح بأنفه شأن المربين الكبار حين يلتقون بأمثالى من المترددين على أبواب الصحف ولكنه ابتسم لى فى ود والقى نظرة على المقال الذى كنت أكتبه وأطلق ضحكة صافية من قلبه وقهقه فى براءة وقال هو يهزنى بعنف « أنت لك أسلوب ساخر لو استطعت أن تستخدمه بمهارة سيصبح لك شأن » ولم أكن قد سمعت تقريظا من أحد حتى هذه اللحظة .

والكلمات الطيبة التى كنت قد سمعتها من قبل ، كانت كلمات مجاملة أكثر منها كلمات استحسان . . ولذلك نظرت اليه فى دهشة وبتفرس لاكتشف اذا كان صادقا فى القول أم مجرد هازل يسخر منى فى قالب مدح . ولكنه أعاد نفس كلماته وأضاف اليها كلمات أخرى مماثلة . وسحبنى من يدى الى قهوة ايزافتش . وانبهرت جدا بالمقهى وبالزبائن الجالسين فى خيلاء ، وبالجرسون الجريجى الذى كان يبدو أنيقا ووسيما مثل نجوم السينما المشهورين .

واكتشفت أن الجرسون صديق للرجل الطيب . فقد حضر وحيانا فى ود ثم وقف يناقش الرجل الطيب فى السياسة . . وجاءت شلة من الافندية وانضمت الينا . واكتشفت انهم جميعا طوال القامة . وأن رءوسهم جميعا صلعاء . وأنهم يهتمون على نحو خاص بشواربهم ، وهى شوارب ليست عادية . ولكنها كثة وسوداء ، ولها أطراف تتدلى الى أسفل ، ولما سألت الرجل الطيب عن سر هذه الظاهرة . قال ببساطة كأنه يفسر ظاهرة طبيعية : « دول بيقلدوا ستالين ! » .

ولقد دخل الجميع فى نقاش صاخب حاد حول الموقف السياسى . . وتطور النقاش الى سباب ، ثم تبادلوا الاتهامات الخطيرة ! وخيل الى أن المسألة ستتطور الى شجار . وأنهم لن يلبثوا أن ينهضوا جميعا ليتراشقوا بالكراسى والكلمات ، وأن دماء كثيرة ستسيل حتما وأن بعضهم سينقل لا محالة الى المستشفيات على عربة اسعاف !.

ولكن شيئا من هذا كله لم يحدث . . فسرعان ما هدأت الضجة والتف الجميع حول أطباق الفول يلتهمونها بشهية ، ثم طلب الجميع الشاى وراحوا ينظرون فى هدوء نحو الشارع متربصين بعيونهم لكل أنثى تعبر الطريق . . وكانت رءوسهم تستدير فى حركة رتيبة هادئة وتلتوى أعناقهم من أقصى اليسار الى أقصى اليمين أو بالعكس ثم تعود الرءوس الى وضعها الطبيعى عندما تبتعد الانثى عن الانظار . .

وكان أحدهم يعلق بكلمة دائما عقب مرور كل انثى . . وكأنه واجب يؤديه ، أو كأنه ناقد نسائى مطلوب سماع رأيه فى كل أنثى تعبر الطريق . . وكانت تعليقاته قصيرة وحاسمة : « دى رجليها وحشه » أو « دى كتافها نازلة » أو « صدرها كبير » . وعندما تكون الأنثى لا عيب فيها يكتفى بهز رأسه استحسانا ويعلق بكلمة واحدة « ظبط » !! ولم أشترك معهم فى المناقشة ولم أشترك معهم أيضا فى البصبصة ! وعندما نهضوا ليغادروا المقهى نهضنا معهم . وجاء الجرسون على عجل يطلب الحساب ، وتقدمت أنا فغادرت المقهى الى الشارع . . ولكن جذبنى الى داخل المقهى صوت الجرسون يشتم ويسب ويلعن سنسفيل جدودهم جميعا . . ووقفت دقائق أستمع الى حوار ساخن بين الجرسون والافندية جميعا ، ثم تركهم يمضون وهو يلعن ويسب أجداد الجميع ، واكتشفت أن الجرسون الجريحى له دين ثقيل فى أعناقهم ، وانهم يماطلون فى الدفع منذ شهور !!

ومنذ تلك اللحظة تعلمت ألا تخدعنى المظاهر ، وألا أنبهر بالقشور الزائفة . فقد كنت أمر يوميا على مقهى ايزافتيش وألقى نظرة على المقهى والزبائن المسترخين على مقاعدها ! وكنت أتوهم أن الجالسين فى المقهى هم البشوات والبهوات وأثرياء القوم . وكان منظر الزبائن ومنظر المقهى ومنظر الجرسونات الجريج يوحى بذلك . ولكن هذا الموقف كشف الغطاء عن الحقيقة المرة ، وعرى كل شىء أمامى .

ولكنى رغم ذلك أعجبت جدا بشجاعة هؤلاء الأفندية الذين دخلوا مع الجرسون الجريحى فى حوار صريح مكشوف وأمام جميع الزبائن دون أى شعور بالخجل . ولعل سبب اعجابى بهم هو جبنى الشديد فى مواجهة هذه المواقف ، وهو جبن دفعنى الى عدم الاستدانة من أحد ، وعدم المماطلة فى الدفع ، وأن أحجم عن ارتياد مثل هذه الاماكن الا اذا كان فى جيبى ما أدفعه ثمنا لطعامى وشرابى ! بل لقد دفعنى هذا الجبن أيضا الى التخلف عن شلة الاصدقاء أيام الطفولة اذا دخلوا عند حلوانى أو فكهانى ، وأتظاهر بأننى مشغول بشىء فى الخارج حتى لا أحرج نفسى ولا أتسبب فى احراج أحد .

وكان على عكسي تماما طوغان . فقد كان يقتحم المحل على رأس الشلة ، ويدور بين الاصناف ينتقي ويختار ! فقد كان شديد الضعف امام اغراء الحلوى والفول السوداني والبلح الأمهات . وكان يأكل كفايته ، ثم يعلن بعد ذلك للشلة أنه يعاني الافلاس . ولكن حتى طوغان كان يفعل ذلك أمام شلة من الاصدقاء ، وكان يجد دائما من بينهم من يدفع حسابه !

ولكن هؤلاء الافندية لم يدفعوا الحساب ولم يدفع لهم أحد ، بل وناقشوا الجرسون الجريجي وأمام جميع الزبائن وفي شموخ وكبرياء ، وكأنهم محامون يترافعون في أعظم القضايا . ولقد صادقتهم بعد ذلك وأصبحت واحدا من شلة المقهى لسنوات طويلة ، واكتشفت أنهم جميعا كانوا أعضاء في التنظيمات اليسارية عند بدء تكوين هذه التنظيمات في مصر ، ثم هجروا التنظيمات السياسية واكتفوا بالجلوس على المقهى والاشتغال بالسياسة كهواة . . وكانوا شديدى الضيق بكل شيء ، كافرين بكل انسان ، وجميع الناس خونة وعملاء للاستعمار ما عدا أفراد الشلة . وكانوا يشعرون بالرضا عن أنفسهم لأنهم قد وصلوا الى الحقيقة !! فكل الزعماء متعاونون مع القصر . وكل الاحزاب متعاونة مع الاستعمار ، وكل الصحف مأجورة ، وكل الناس ـ حتى الجرسون الجريجي ـ متعاونون مع البوليس ، وكل الافلام تافهه ، وكل الكتب حقيرة ، وكل الاغاني هايفة ، وكل الموظفين مرتشون ، وكل النساء مومسات ، وكل الرجال يستحقون القتل !!

وكانوا لا يرون في الحياة الا لونين ، الاسود القاحم والابيض الناصع . فأنت اما خائن واما شهيد . وانت اما ثائر واما بوليس . ولقد ظلت الشلة قعيدة المقهى ولسنوات طويلة ، حتى جاء يوم فاختفت كلها . بعضهم دخل السجن في قضية اختلاس ، والبعض الآخر هجر المقهى الى البارات ليغرق نفسه في الخمر !! ولكن صديقي الطيب لم يكن واحدا منهم . وكان على خلاف معهم . وعندما أبديت اعجابي بهم كمثقفين قال في امتعاض شديد . . ما يغركش الكلام المقعر اللى بيقولوه ، المثقف الحقيقي هو اللى يعيش حياة الناس ويعبر عنها بطريقة بسيطة ! . .

وأعجبني تعريفه للمثقف ولكن لم يعجبني تعريفه للشلة ، فقد وصف أفرادها بأنهم « حشرات مريضة » فقد وقع في نفس الخطأ الذى وقعت فيه الشلة ، كما أنهم لم يكونوا حشرات مريضة ، ولكنهم كانوا نماذج لألوف من أبناء الجيل فقدوا الثقة في كل شيء حتى في الخلاص من المصير المحتوم ، ثم أسلمهم اليأس الى الانطواء داخل أنفسهم والفرجة على ما يجرى دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الاشتراك في التغيير ، خصوصا ان التغيير كان يكلف كثيرا . . فقد كان قانون صدقي باشا بتحريم المبادىء الهدامة (!) قد صدر حديثا ، واصبح السجن مصير كل شاب يحاول التصدى لفساد القصر أو انحرافات الأحزاب

ولما كانوا غير مستعدين لدفع الثمن ، فقد انسحبوا نهائيا الى المقهى ، ولكنهم لم يرتضوا أن يلقوا السلاح نهائيا فاكتفوا بالكلام على المقهى كمحاولة للاشتراك فى التغيير دون أن ينالهم من وراء ذلك أى عقاب ! لذلك كان كلامهم حماسيا للغاية ومتطرفا أكثر من اللازم ، ولعل ذلك يرجع الى احساسهم بأن الكلام هو كل بضاعتهم ولذلك يجب أن يكون من أحسن وأجود الأصناف

ولكن برغم كل شيء فقد كانت هذه الشلة تمارس حريتها على أوسع نطاق ، ولم يكن يقيدهم أى قيد ، وكانوا مثقفين على نحو ما ، ولكنهم لم يشعروا أبدا بلذة اقتحام حياة الناس والالتحام مع الجماهير العريضة ، بالرغم من اعتقادهم الراسخ بأنهم وحدهم ممثلو الامة وترجمان الشعب ولسان حال الملايين . .

ولقد لعبت شلة ايزافيتش دورا فى الحياة السياسية والثقافية فى مصر ، رغم أنه كان دورا على الهامش . وذاعت أخبار الشلة واشتهر افرادها ، ولكن أبرزهم ، وكان مهيب المنظر ارستقراطى الحركات مفلسا على الدوام ، يحكى دائما وفى كل مناسبة عن دوره الطليعى فى قيادة الشعب ، وعن مقاومته الباسلة لرجال البوليس السياسى . وكان أكثر الجميع تطرفا واشدهم صلابة كما كان أكثرهم حركة !!

فقد كان من عادته دائما أن يغادر المقهى أحيانا الى مكاتب الصحف البائرة يكتب فيها مقالات ضد الاستعمار وضد الحكومة . وكان أحيانا يتقاضى مبالغ زهيدة لقاء هذا النشر لا تتجاوز الخمسة جنيهات وأحيانا تصل الى عدة شلنات . وكان متزوجا وصاحب مشاكل عائلية لا تنتهى ، وكان يرتدى فى الصيف بنطلون شورت وصندل أبيض وقميص حرير هفاف ، ويبدو فى زيه الصيفى كأنه سائح انجليزى عجوز جاء الى مصر ليقف فترة بين المتاحف والآثار !

ولقد قدر لى بعد ذلك أن أعيش معه فترة من الوقت داخل زنزانة واحدة فى السجن ، وقضيت الليالى الطويلة ساهرا معه حتى الفجر ، فقد كان أشد الجميع انهيارا وأكثرهم بكاء ، وكان يجلس طول الليل ساهرا لا يغمض له جفن ! وكان على استعداد لأن يدفع نصف حياته ثمنا لكأس واحد من الخمر ! واعتقدت أنه انهار هذه المرة فقط بعد أن ناضل كثيرا داخل الزنازين الباردة وخلف الأسوار الصماء .

ولكن الذين عاصروه فى الماضى ، أكدوا جميعا ان هذا هو طابعه ، وأنه منهار بالفطرة ، وأنه بكى فى نفس اللحظة التى صافحت فيها أقدامه أرضية السجن أول مرة ، وأنه شديد الانهيار عندما يكون فى الزنزانة ، شديد المقاومة والصلابة عندما يكون على مقهى ايزافتش !!

ولقد ودعت صديق سجنى ذات مساء عندما فتح السجان باب الزنزانة ودعاه الى الخروج لأمر عاجل ، وخرج ولم يعد ، وعرفنا بعد ذلك أنه أفرج عنه فى نفس الليلة ، وأنه عاد لاستئناف حياته ورواية حكاياته على مقهى ايزافيتش !

ولقد صحبت الرجل الطيب بعد ذلك سنوات طويلة ، وكان دائما يبدى اعجابه بما أكتب ، وكان أول من نصحنى بكتابة رواية طويلة ، ولقد استمعت الى النصيحة وكتبت رواية طويلة اسمها « حارة السمك » لم يقدر لها أن تتم ولم يقدر لها أن تنشر ، وضاعت ضمن ما ضاع لى من أوراق على مر السنين .

وقال لى ذات مساء ونحن جلوس على مقهى ايزافيتش ، أنت أول كاتب يخرج من الحارة المصرية وعليك أن تعبر عن هذه الحارة وأن تكون نائبها فى برلمان الأبدية ! وفى مساء آخر قال لى وعيناه تبرقان ووجهه كله يرتعش ، لا تقع فى مصيدة العبارات البراقة ، اكتب كما تتكلم وستصبح شيئا فريدا بين أدباء الجيل ، واقرأ كثيرا ولكن اجتهد ان تنسى كل ما تقرأ ، وحاول أن تتقن لغة أجنبية فهى الجسر الذى تعبر عليه الى رحاب التراث العالمى ، وأول سفارة دخلتها فى حياتى كانت فى صحبته ، وكانت سفارة الهند . وقد تناولت عشاء فاخرا وشربنا زجاجة ويسكى كاملة ودخنت علبة سجاير أمريكية وقضينا الليلة نتفرج على الرقص والغناء .

ظللت شهرا بعدها أحلم بذكرى تلك الليلة المجيدة ! وأعطتنى تلك الليلة شعورا بالثقة لاحد له ، وقضيت ساعات أرطن باللغة الانجليزية مع موظفى السفارة ، وقد اندهش صديقى الطيب لاننى أجيد اللغة الانجليزية نطقا ولا أجيدها كتابة ! وقال لى وهو يضحك من الأعماق . . انك مثل تراجمة نزلة السمان يجيدون الحديث بكل اللغات ولكنهم يجهلون شكل الحروف وطريقة الكتابة ، ولم يكن صديقى الطيب يعرف حتى هذه اللحظة اننى كنت أعمل ترجمانا لفترة طويلة من الزمان !

وأول بيت محترم سهرت فيه كان مع صديقى الطيب أيضا ، وفى بيت فى الدقى استرعتنى نظافته الشديدة وفخامة العفش وكثرة التحف المبعثرة فى أنحائه . وجلست مؤدبا كتلميذ خائب يجلس فى حضرة أستاذه ، وتلعثمت فلم أستطع أن أتكلم . وكانت صاحبة الشقة ألمانية فى الخامسة والاربعين من عمرها ، ولكنها ظلت رغم هذه السنين تحتفظ بشبابها ! وكانت لها صديقة مثلها فى ربيعها الخمسين ، وكانت أيضا صبية ومليحة وعاشقة للفن ، وسهرنا حتى الفجر نستمع الى موسيقى تشايكوفسكى ، وكلنا صامتون كأننا فى جنازة ، وكانت السيدة الالمانية ذات الخمسين ربيعا تتولى خدمتى طوال السهرة وتقدم لى الكأس بعد الآخر ، وأحيانا كانت تسألنى عن رأيى فى الموسيقى فأهز رأسى وأفشخ بقى عن ابتسامة بلهاء !!

وقبل نهاية السهرة بدقائق مسحت على شعرى بيدها ، وقالت أنت تشبه الأسبان . . هل أنت مصرى حقا ، وقلت فى سرى . . أنا مصرى ابن مصرى ابن مصرى وآدم بتاع اسرتنا كان مصرى ومن حارة مظلمة وقذرة فى بقعة من الارض المصرية يعلمها الله .

وعندما نهضنا لنغادر الشقة انحنت على شفتى وقبلتنى ! وشعرت بخجل لا مزيد عليه وددت لو تبتلعنى الارض فلا أعود أظهر لها . ونكست رأسى فى خزى كأننى ارتكبت جريمة . ونهرنى صديقى الطبيب ونحن نسير فى الشارع بعد منتصف الليل ، لماذا كنت مكبوسا فى السهرة الى هذا الحد ؟ وادعيت لصديقى ان الجو لم يعجبنى ، وكنت كاذبا الى حد بعيد ، فقد أعجبنى الجو والجلسة والشقة والست العجوزة ! !

ولكن كنت أشعر باضطراب شديد ، وكنت فاقدا للثقة فلم يكن يخطر ببالى أن أكون ندا لست خوجاية تعيش فى مثل هذا القصر العظيم .

ولقد صارحته بحقيقة الأمر بعد ذلك فطمأننى الى اننى بشبابى وبهيئتى المصرية وبذكائى وخفة دمى يمكن ان أكون محبوبا لدى قطاع عريض من النساء . ولم اصدق صاحبى الطبيب وقضيت ليلة بأكملها أمام المرآة أتفرس فى وجهى وهيئتى ، ولكنى لم أقتنع أبدا برأى صديقى الطبيب . ولكن يبدو ان المسائل كلها عادة . فبعد زيارة ثانية وثالثة ورابعة أصبحت أنا عمدة القعدة . بل تطاولت على الخوجاية العجوز ونهرتها عن الصراخ بهذا الشكل المزعج . وحزنت الست الخواجاية جدا وقضت السهرة كلها تسترضينى !

ولقد ظلت مجلة مسامرات الجيب تنحدر حتى وصلت الى الحضيض ، وبينما كان صديقى الطبيب يتقاضى أربعين جنيها شهريا كان لا يحصل الا على خمسة جنيهات وأحيانا على عشرة . وكان مرتبى ثمانية جنيهات ، ولكنى كنت أحصل على جنيهين وأحيانا لا أحصل على شىء . . وكان فؤاد أفندى هو صراف المجلة ، وكان رجلا بارد الاعصاب ميت النظرات ، وهى ميزة كل رجال الحسابات وأمناء المخازن وصرافى البنوك والخزائن . ولعلها صفات يكتسبونها خلال عملهم الرتيب القاتل الممل الذى يصلت على رقابهم سيف المسئولية الحاد القاطع ! وكنا نعرف أحوال الخزانة من نظرات فؤاد أفندى ، ولكن نظراته فى الشهور الاخيرة كانت تنم عن الافلاس والبوار والخيبة الثقيلة !

وكانت ديونى قد أخذت تتضاعف عند البقال الذى يحتل ركنا تحت دار المجلة . ويئست أخيرا من العثور على القرشين صاغ اللازمة للوصول الى

المجلة . فقد كان على أن اركب بقرش صاغ الى ميدان قصر النيل ثم أحتفظ بقرش صاغ آخر لأعود به مرة أخرى الى الجيزة !! وكان هذا المبلغ عبئا ثقيلا لم استطع أن أحتمله ! فقررت عدم الذهاب كل يوم الى دار المجلة والاكتفاء بثلاثة أيام فى الاسبوع ، ونفذت هذا القرار اسبوعا واحدا ثم عدلت عن قرارى وعدت الى دار المجلة . فقد اكتشفت أن الذهاب الى المجلة أكثر ربحا ، لان وجودى هناك يتيح لى التدخين بالمجان . . وأيضا شرب الشاى والقهوة على الحساب ، وتحولت مجلة مسامرات الجيب من مجلة الى قهوة ، وأصبحت مكانا للقاء والدردشة أكثر منها مكانا للعمل .

وكان صاحب المجلة قد راح يسرح فى كل مكان عارضا الدار للبيع وبأى ثمن ، وكانت حرب فلسطين قد نشبت ، وحكومة الاقلية راحت تنشب أظفارها بقسوة فى عنق الشعب ، وأصبحت الحياة غير محتملة ، وفجأة جاءنا محرر فى المجلة بخبر هز أعصابنا هزا ، وفتح أمامنا بابا من الأمل فى مستقبل أكثر استقرارا وسعادة للجميع .



(٥)



٥

كان الخبر الذى هز أعصابنا هزا ، والذى حمله الينا محرر فى المجلة أن دار روزاليوسف ودار الهلال فى حاجة الى محررين ، وأن اثنين من محررى مسامرات الجيب قد التحقا فعلا بالعمل فى روزاليوسف ، وأن البعض الآخر قد ذهب فعلا الى دار الهلال . ولقد استقبلت الخبر ببرود ظاهرى رغم أنه فى الحقيقة هزنى من الاعماق . ها هى مرحلة جديدة فى الصحافة توشك أن تبدأ فى حياتى ، وهى لاشك ستكون فاصلة ، فاما الى الصحافة واما الى الصياعة !

وقضيت ثلاثة أيام متتالية أقلب الامر على جميع الوجوه ، وأقارن بين روزاليوسف ودار الهلال . ولم يكن لى حتى هذه اللحظة أى علاقة بروزاليوسف الا كقارىء . وكان بينى وبين بعض محرريها علاقات صداقة غير وطيدة . وكنت أتردد عليها أحيانا مع طوغان الذى كان يعمل بها رساما لفترة من الزمان .

ولقد راعنى منظرها أول مرة رأيتها من الداخل ، منظر المكاتب المحطمة والجدران المشقوقة ، وعشرات من المحررين اللامعين يتخاطفون ساندويتش واحد ، أو يبحثون معا عن سيجارة . ولكن هذا المظهر لم يكن يخفى عن العين الفاحصة حقيقة الموضوع . فلقد كانت هذه المجموعة التى تعمل فى روزاليوسف أغلبهم ثوار وأصحاب قضية . . وحتى المحررون المحترفون فيها كانوا ينصهرون فى الجو العام للدار ، فيصبح من الصعب على الزائر أن يفرق بين الصحفى والثورى !

وكانت العلاقة بين رئيس التحرير والمحررين نموذجية ، كان واحدا منهم ، وكثيرا ما كان يترك مكتبه ويجلس فى الصالة يتفرج على لوحات الفنانين . وكانت تربطنى بروزاليوسف رابطة أخرى هى أن الصداقة توطدت بينى وبين أحد محرريها المسئولين وهو فى أخريات أيام حياته . كان اسمه عزالدين وكان شابا وسيما وفنانا ووحيدا ، وقد تعرفت عليه فى مستشفى القصر العينى وهو يعانى من مرض السل الرهيب . وقد طال به المرض قبل أن يفتك به ، أو فى الحقيقة قبل ان يفتك هو بنفسه . وذات مرة حذره الاطباء أمامى من السهر ومن التدخين ومن الانفعال ومن الكلام .

وابتسم عزالدين فى هدوء وقال هو يناولنى سيجارة ويشعل لنفسه سيجارة أخرى . .

انهم يحذروننى من الحياة . وظللت اتردد على عزالدين فى المستشفى حتى مات ، وقد ترك موته فى نفسى أثرا رهيبا . فلقد كنت قبل أن أراه اتوهم انى مريض بالسل ، وبعد أن عرفته تأكدت من اننى مريض ، وظللت بعد ذلك أعواما طويلة أعيش الحياة على أننى مسلول ، ولم يدفعنى هذا الشعور الى الحياة بحذر ، بل دفعنى الى الحياة بجنون ! فمادام المصير هو الموت ، فأى فائدة يجنيها الانسان من التردد والخوف والوقوف على مشارف الحياة يتفرج عليها .

ولكنى رغم ذلك اخترت دار الهلال وفضلتها على روزاليوسف والسبب ان روزاليوسف كانت تعامل محرريها بالقطعة ، ودار الهلال كانت تنهج نفس السبيل ، ولكن روزاليوسف كانت تدفع على ما يشر ، وكانت دار الهلال تدفع على ما يكتب ، وبينها كانت دار الهلال تدفع ثلاثة جنيهات على الموضوع ، كانت روزاليوسف تدفع خمسين قرشا ، وأحيانا كانت تدفع عشرة قروش على الخبر ، أما الخبر الذى ينشر بحروف بارزة فكانت تدفع مقابله ريالا كاملا !

ورغم أننى قارنت واخترت ، الا أننى لم أذهب الى دار الهلال الا بعد ذلك بستة شهور ، ذلك أن الطريق الى هناك لم يكن سهلا . وخلال الشهور الستة الاخيرة فى مسامرات الجيب عانيت الكثير .

كان الرجل الطيب دائم التجوال بين البانسيونات كأنه أحد الاعراب الرحل . ولم يكن الانتقال بدافع السياحة أو التغيير ، ولكن السبب الحقيقى كان ضيق ذات اليد ، وعدم استطاعة صاحبات البنسيونات الصبر ، حتى تنفرج الامور وتتعدل الاحوال !

وذات مساء ونحن جلوس نتأهب لترتيب الكتب فى بنسيون جديد كان الرجل الطيب قد انتقل اليه فجأة ، عرض على أن أتزوج ! ولم يكن يخطر ببالى شىء من هذا ولم أكن أستطيع حتى الارتباط الاجتماعى بشقة استأجرها أو ترزى يقبل التفصيل لى على الحساب . كنت حتى تلك اللحظة كأبناء الغجر ، أهلب رزقى بالعافية ، واتناول الطعام ليس لاننى جائع ولكن لاننى وجدته ، وأنام عندما يغمى على من شدة الارهاق ، وأذهب الى أى مكان مادامت هناك دعوة .

وكانت حياتى كلها مضطربة ، ولكن علاقاتى الجنسية كانت اكثر اضطرابا .

وكانت آخر مرة اتصلت فيها بامرأة منذ اسبوع من هذا العرض الذى جاء فجأة وبلا مناسبة من الرجل الطيب .

وكانت مغامرة شقية ليس لها نظير ، وحماقة لا يرتكب مثلها الا المجانين أو المجرمين العتاه .

فقد تعرفنا الى امرأة ليس لها شكل تجلس وحيدة فى كازينو شهريار ، وكنا عشرة شبان ورجلا عاقلا يعمل مدرسا فى احدى الجامعات . وكان شديد الخجل شديد الطيبة ، منعته ظروف أسرته المحافظة وعمله المحترم وعمره الذى شارف الاربعين من أن تكون له أية مغامرات من أى نوع .

ولقد وجد فى صحبتنا لونا من الحياة لم يألفه وان كان يتمناه . وعوضته شقاوتنا عن استقامته التى كانت مضرب الامثال . وكان شديد المحافظة على المظهر فى الخارج ، فاذا ضمه معنا منزل واحد بدا على طبيعته المرحة ، وسلك سلوكا يختلف تماما عن السلوك الذى كان يبديه أمام الناس .

وفى تلك الليلة نصحنا بألا نقترب من المرأة التى تجلس وحيدة وأكد أنها تنتظر رجلا ، وهددنا بأنه سيغادر الكازينو اذا نحن أقدمنا على عمل طائش من هذا النوع . ولكننا لم نستمع لنصيحته وقمت أنا وغزالى وبعد لحظة كنا نجلس مع السيدة التى تجلس وحيدة ، ولم تلبث ضحكاتنا نحن الثلاثة ان ارتفعت تعلن للجمع المتربص بنا أننا فى غاية الود والانسجام !

وسرعان ما غير الرجل الطيب رأيه فلم يغادر الكازينو ، ولم يحتج علينا ، بل أرسل الينا من يخبرنا أننا نستطيع أن نطلب ما نشاء من الطلبات وأنه سيدفع الحساب !

وبعد قليل نهضنا مع الست خارج الكازينو فى طريقنا الى المنزل . ولم يكن لدينا منزل كما لم يكن هناك منزل لدى أحد من الشلة التى تتعقبنا . ورحنا نفكر أنا وغزالى فى مكان نقصد اليه . ولم نهتد فى النهاية الا الى بيت طالب أزهرى اسمه الصدفى كان يسكن وحده فى الجيزة فى شقة فى بيت له مظهر البيوت الانيقة ، رغم أنه فى الداخل لم يكن يحتوى الا على سرير شديد القذارة ومشنة عيش كانت دائما فارغة ، وثلاثة كراسى كلها محطمة كأنها متخلفة من خناقة بين بعض الفتوات العتاة !

وكان الصدفى نفسه شديد الغرابة ، مظهره يدعو الى الاضحاك ، كان قصيرا ومشوها ويتكلم بالفصحى وبصوت عال كأنه يخطب على الدوام . كان سعديا متحمسا وهى ظاهرة شاذة تأملتها كثيرا ، ولكن لم أستطع تفسيرها على الاطلاق ، فلقد كان هناك وزراء سعديون ، ونواب سعديون ، وشيوخ سعديون ، ولكن أبدا لم يكن هناك شبان سعديون .

كان الشباب موزعا تلك الايام بين الوفد ومصر الفتاة والشيوعيين والاخوان . وكان الصدفى هو الشاب السعدى الوحيد الذى قابلته فى حياتى ، وكنت دائم العراك معه ، شديد السخرية به ، هازئا من معتقداته ، متهما اياه

بالرشوة اذ لا يعقل أن يكون الانسان سعديا بضميره ، خصوصا اذا كان شابا ، ولابد أن يكون لهذا الموقف الغريب ثمن مدفوع !

وأعتقد الآن أن موقف الصدفى كان مدفوع الاجر ، وأنه كان أجرا زهيدا لأنه كان دائم الشكوى من الافلاس ، وكان يبدو دائما شديد الارهاق والشحوب .

ولقد استقبلنا الصيرفى بفرح شديد ، وعندما وقع بصره على المرأة التى معنا لمعت عيناه ببريق غريب . واستقبلته المرأة بفتور وباحتقار شديد ، فقد كان يرتدى جلبابا مخططا وحافى القدمين ، وكانت فانلته تبرز من فتحة جلبابه وكان فيها من الثقوب أكثر مما فيها من القماش .

واعتقدت المرأة أنه خادم فى المنزل وعاملته طول السهرة على هذا الاساس .

ولم تلبث شلة الاصدقاء أن اقتحمت علينا المنزل . وكعادة الفقراء أردنا أن نزيف الواقع المر وأن نخدع أنفسنا ، وأن نضفى على الجو مسحة من الشاعرية والخيال ، واكتتبنا جميعا لنحصل على زجاجة رخيصة من الكونياك الردىء ، ومن جهاز الراديو العتيق الذى تعشش فيه الصراصير رحنا نستمع الى موسيقى حالمة ، وصعد غزالى على أكتاف أحدنا ولف حول لمبة النور قطعة من الورق الاحمر ، ورحنا نسهر فرحين فى هذا الجو الهزيل . جو كلما تذكرته الآن اقشعر بدنى من هول ما كنا فيه . جو تجتمع فيه امرأة صايعة قبيحة وعشرة شبان ورجل رزين وزجاجة خمر رخيصة وراديو كان لا يواصل الغناء الا بخبطة يد قوية تهز أجهزته العتيقة التى تود أن ترتاح من هذا الشقاء اللعين !

المهم أن السهرة اكتملت ، وعندما جاء الصباح كان علينا أنا وغزالى أن نواجه الموقف الصعب ، ولم يكن معنا سوى ستين قرشا هى كل ما مع الشلة من نقود . خمسون قرشا دفعها الرجل الرزين وعشرة قروش هى كل ثروة الآخرين !

كانت المرأة تقف امام المرآة تسوى شعرها وتغنى بصوت مسلوخ أغنية شائعة ، وكان الصدفى يقف فى الصالة محموما وعيناه مصوبتان نحونا كأنهما فوهتا بندقية مستعدة للاطلاق . . والسبب أن المرأة الصايعة رفضت بشدة أن يختلى بها الصدفى وكان هذا تصرفا طبيعيا من جانب المرأة . فهكذا الفقراء دائما يريدون فى أى مناسبة أن يؤكدوا لانفسهم أن هناك من هم أفقر منهم ، وهكذا الحقراء أيضا يريدون أن يثبتوا ولو لأنفسهم أن هناك من هم أحقر منهم .

وكانت تلك الليلة هى فرصة الست الصايعة ، ولقد أصرت على موقفها وظلت متمسكة برأيها لا تتزحزح ، ورغم التوسلات والشفاعات فأنها رفضت بشدة ، وبدا عليها فى لحظة أنها مسألة مبدئية ، وأنها على استعداد لتواجه الموت فى سبيل هذا المبدأ العظيم !

ولما ضاعت كل المحاولات عبثا ، قررنا تجاهل الامر تماما ، واتفقنا على ضرب الصدفى لو اعترض طريقنا أو حاول أن يقوم بحركة انتقام من أى نوع .
وكانت المرأة الصايعة قد انتهت من زينتها عندما أقبلت علينا تتقصع كأنها ممثلة سينما . . وبدت تلك اللحظة بشعة كغوريلا مزوقة . ووقفت أمامنا فجأة ومدت يدها تطلب النقود وهمس غزالى فى أذنها أن الحساب سيتم فى الخارج وليس أمام الصدفى الغاضب المتحفز المطعون فى كبريائه ، ولكن الست رفضت بشدة أن تتزحزح خطوة الا بعد أن تحصل على النقود .
ومد غزالى يده بالمبلغ الموجود ، ولكنها شهقت وتقصعت وألقت بالمبلغ على الارض وطلبت عشرة جنيهات لا تنقص مليما والا فالويل والثبور وعظائم الامور !
وضحكت أنا وغزالى ، فلم نكن فى هذه اللحظة قد رأينا عشرة جنيهات كاملة ، وكان اليوم آخر شهر ولو أننا فتشنا الجيزة كلها فلم نكن نعثر على عشرة جنيهات .
ولقد كنا متعبين للغاية بعد أحداث تلك الليلة الحافلة . . ولم نكن قادرين على النقاش كما أننا لم نكن مستعدين لمواجهة امرأة متنمرة وفى بيت رجل أكثر تنمرا !
ولذلك ـ وبدون اتفاق ـ فتحنا الباب فجأة بعد أن جمعنا النقود المبعثرة على الارض وانطلقنا هاربين الى الشارع . ولكننا لم نبتعد كثيرا حتى توقفنا فى عرض الطريق نستمع الى الصراخ الذى انبعث من داخل المنزل ، ولم يكن الذى سمعناه هو صراخ المرأة . ولكن صراخ الصدفى !
هذه اذن هى نهاية الصدفى فى هذا اليوم المشئوم ! ليلة معذبة بالنسبة له وصبح أغبر ! ولكن الصراخ لم يلبث أن تلاشى ثم هدأ كل شىء .
وتوقعنا ان تخرج المرأة ولكنها لم تفعل ، ولما طال غيابها جلسنا على قهوة الحريرى القريبة وطلبنا افطارا وشربنا الشاى واشترينا علبة سجائر كاملة ، وجلسنا ندخن فى هدوء . كأننا نستقبل يوما جديدا من أيام الحياة فى ثقة زائدة
وفى الظهر خرجت المرأة الصايعة ومعها الصدفى ، ووقف معها على محطة الترام حتى ركبت ، ولما انطلق بها الترام رفع يده يلوح لها كأنه صديق يودع صديقته العزيزة وهى تبدأ رحلة ميمونة الى باريس .
أغرب شىء أن الست الصايعة لم تنقطع عن الجلوس فى كازينو شهريار ، ولكنها كانت كلما رأتنى أنا وغزالى أشاحت عنا بوجهها . رغم أن الرجل الرزين

أستاذ الجامعة قد تنازل عن كبريائه وتجاهل مركزه الاجتماعى وقضى معها ليلة بأكملها فى الكازينو يعتذر لها . ثم اختفت الست من حياتنا ومن الكازينو بعد ذلك .. ثم علمنا أنها تزوجت !

وممن ؟ . . .

من أستاذ الجامعة الرزين نفسه ! . . . ودنيا عجيبة وواقع . . . ولكن أغرب من الخيال !

لذلك كان عرض الرجل الطيب بالزواج موضع دهشتى ! فهو أعلم الناس بظروفى كما أنه يعلم تماما أنه ليس فى حياتى امرأة ! وعندما سألته عن سبب هذا العرض قال على الفور ، أنت محتاج الى امرأة الى جوارك ، موهبتك ينقصها التنظيم ، لو أنك حصلت على كفايتك من النوم وكفايتك من الطعام لا ستطعت أن تنتج شيئا أعظم ، انك مادة خام طيبة وفى حاجة الى من يبنيك !

وعندما سألته : ولكن أين هى الزوجة التى ترضى بهذه الصفقة الخاسرة ؟

أجابنى فى هدوء وقد رفع وجهه عن الكتاب الذى يقرؤه : صفية !

وكانت صفية امرأة رغم أنها لم تتزوج قط ، وكانت من أسرة ثرية ، وتتمتع بروح متشردة . وكانت تتردد على دور الصحف مقنعة نفسها أنها مثقفة وأنها عالمة ، وأن عليها واجبا ثقيلا هو تعليم الشعب ورفع مستواه . وكانت متبجحة لا تدرك كم هى غبية وحمقاء ومزيفة ! وكان الشعب فى نظرها هو مجموعة المثقفين الذين تجلس معهم وهم شلة الافندية الذين تقضى اوقاتا سعيدة فى صحبتهم .

ولما أبديت له رأيى فى صفية ، قال فى حسم ، تتزوج لا لتصلح أحوال الكون ، ولكن لتصلح من شأنك وأنت فى حاجة اليها لمدة عامين أو ثلاثة ، ثم تصرف بعد ذلك كما تهوى !

ورحت أفكر فى الامر .. وبعد أسبوع وافقت على العرض ولم يبق الا التنفيذ .. وتم الامر فى هدوء .. سحبها الرجل الطيب الى كازينو شهريار ذات يوم لكى تتعرف عن قرب الى الولد الشقى الذى سيكون زوجا لها فى المستقبل ودعوتها أنا على الغداء ، فتة ولحمة راس وطرشى بلدى . وجلست تتفرس فى الطعام كأنها خوجاية من بلجيكا تشاهد قطعة أنتيكا مصرية لأول مرة ! ثم صحبتها فى جولة داخل الجيزة وهى مدهوشة لما ترى ولما تسمع . وانطلقت على سجيتى أنكت وأضحك وأصافح كل من ألقاه من أبناء البلد الطيبين ، ويعلم الله كيف استدنت لأواجه نفقات هذه الدعوة ، فقد أنفقت يومها ما يقرب من جنيه !

وفى المساء انصرفت الست صفية ، ثم علمت فى اليوم التالى أنها رفضت ، والسبب . . . أننى بلدى .

ولقد حدثت هذه المسرحية بين الست صفية وثلاثة شبان آخرين غيرى ، أحدهم الآن نجم من نجوم السياسة فى مصر ، والآخرون من رجال الاعمال الناجحين للغاية ، وقد رفضتهم الست جميعا .

وأنا أدرك السبب الآن ، فلقد كانت صفية تتمنى من أعماقها أن تتزوج الرجل الطيب ! والى هذا الحد كان الرجل الطيب يعرفها ولذلك آثر ان يبتعد عنها ، ولما يئس من العثور لها على زوج مناسب ، تزوج الرجل الطيب فجأة وغادر مصر الى الهند وقضى هناك سنوات طويلة . ولا تزال الست صفية وهى الآن فى خريف العمر - تنتظر الزوج المناسب ! ولكنها لم تعد نفس السيدة التى كنت أعرفها من قبل ، ذبلت وجفت وانزوت ، وأصبحت كقطعة قماش قديمة ممزقة وباهته اللون !

ولقد غادر الرجل الطيب مصر فجأة ذات يوم من عام ١٩٤٨ وكانت حرب فلسطين على الابواب ، ولقد حضرنا اجتماعا ساخنا فى فندق شبرد حضره « زعماء العروبة » وقتئذ ، وفى نهاية الاجتماع أخرج احدهم مسدسه وأطلق منه عيارا فى الهواء ، وقال كلمة صارت مثلا :

تكلم السيف فأسكت أيها القلم !

وكتبت يومئذ كلمة قصيرة عن الاجتماع ، وعلقت فى نهايتها على الكلمة المأثورة التى أطلقها الزعيم اياه !

تكلم السيف فاسكت أيها القلم .

وقلت : وسكت القلم ، وتكلم السيف .. سيف الاسلام عبدالله !

مجرد نكتة حزقتنى ولكنها كانت الحقيقة المرة . وشعرت بضياع شديد وفراغ لا حد له بعد سفر الرجل الطيب .

هأنذا وحدى مرة أخرى بلا أى سلاح . والرجل الطيب غادر مصر الى الهند ، ويبدو أنه سيغادرها نهائيا . ولكن أنا محكوم على بالبقاء فى الحضيض الى الابد .

فلا أنا أستطيع أن أجد مكانا لقدمى فى الزحام ، ولا أنا أستطيع أن أبحث عن هذا المكان بعيدا عن مصر . وفكرة الهجرة نفسها لم تكن تروق لى ، فأنا أشعر بارتباط حقيقى وبحنين جارف الى الارض ، ولا يوجد مكان فى الحياة يستطيع أن يعوضنى عن حوارى الجيزة وميدان الساعة وشريط الترام وشاطىء النهر .

وطاف بخاطرى أن أعود مرة أخرى الى الوظيفة ، ولكن سرعان ما تخليت عن هذه الفكرة نهائيا ، فأنا لا أطيق الحركة فى نطاق روتين لا يتغير ، كما أننى لا أتقيد بمواعيد ، ولا أحسن عملا أجبر عليه . وأنا فى حقيقة أمرى صايع أكتب

أحيانا ، ولو تركت لى حرية الاختيار لاخترت أن أكون مجذوبا أطوف حول ضريح السيدة أصرخ فى الليل كالذئاب بكلام غير مفهوم .

وألذ لحظات حياتى هى تلك التى أقضيها وأنا على سفر . وفى أى لحظة استمع فيها الى صفير قطار يسابق الريح أحس برغبة شديدة فى البكاء ، وكلما رأيت طيارة تحلق فى الجو انتابتنى حالة غريبة ، فأتوقف عن السير وأظل رافعا رأسى الى أعلى اتتبعها حتى تختفى عن ناظرى .

وأعظم أغنية حركت مشاعرى وأنا طفل وألهمتنى لحظات عظيمة من الكآبة والحزن كانت أغنية شائعة منذ أكثر من ثلاثين عاما فى مصر .. وكانت كلماتها تقول : « ياطير يا مروح على بلدك ليه بتنوح » .

الوظيفة اذن لا تصلح لى وأنا لا أصلح لها .

وهكذا عدت من جديد الى الجيزة ، والى شارع عباس .. والى رجل كانت تربطنى به صلة صداقة عميقة ، ويشدنى اليه اعجابى به على نحو ما .. ولكنى عدت اليه وقد تغيرت سحنتى وتغيرت هيئتى ، عدت اليه وقد غيرت منى الايام ، واكلت منى الاحداث ، وشيبتنى الايام السود التى عاصرتها .

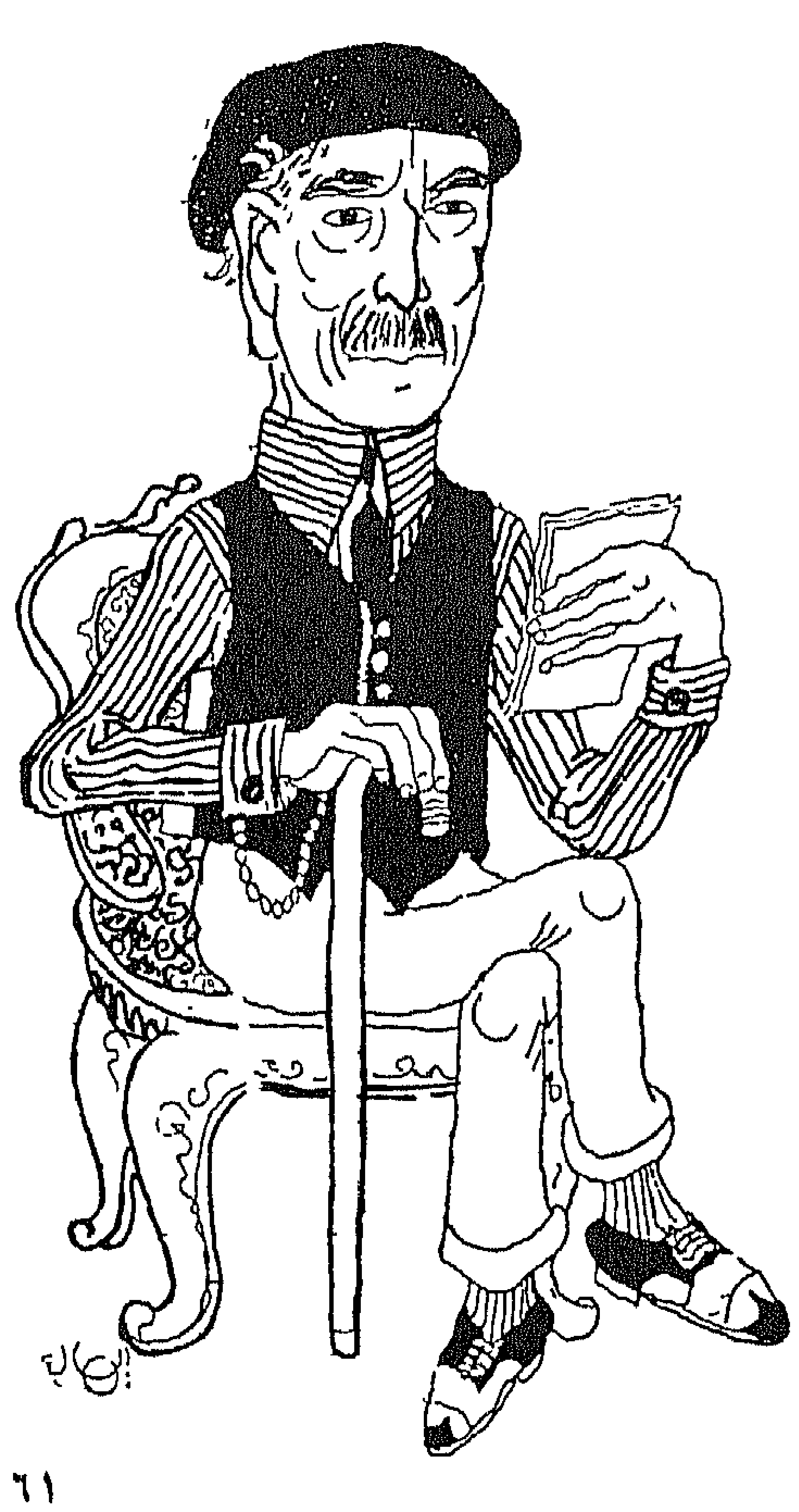
وهكذا عدت الى الجلوس على باب دكان عبده المكوجى ... عدت الى عالمى العجيب الرائع ، عالم حسنين الطباخ وصابر السفرجى ، والمعلم قطب .

ولكنى ولأول مرة فى حياتى بدأت أخشى المستقبل ... وأتحسس طريقى وسط الظلام الذى لا تبدو من ظلامه بارقة أمل ضئيلة !

وذات صباح وصلنى خطاب خلصنى من قلقى وهمى . وكان الخطاب من جهة رسمية ، ويحمل ثلاثة سطور لا غير ، وكان يدعونى الى التجنيد الاجبارى فى صفوف الجيش .



(٦)



٦

كان استدعائى للجيش حلا لجميع المشاكل ، وكنت فخورا على نحو ما ، ولانني ضمن أول دفعة تدخل الجيش بعد الغاء نظام البدل . . وهكذا غادرت الجيزة ذات صباح بعد أن استعرت بالطو قديم من أحد أصدقائى ، وسافرت الى قريتنا وقضيت فى القرية عدة أيام استراحت فيها نفسى من القلق والعذاب . . هاهى ترعة سبك التى أحبها وكأنها كائن حى !

ففى قاع هذه الترعة كثيرا ما قضيت أيام طفولتى ساعات طويلة أبلبط فى الطين . ومن هذه الترعة أصابتنى مأساة حياتى ، البلهارسيا . والتى لم أفلح فى التخلص منها الا بعد عذاب .

وهنا الرياح المنوفى الذى أشم على شاطئه رائحة غريبة ليس لها مثيل فى أى مكان ، وهنا منازل الجدود والاعمام وقد رحل معظمهم عن هذه الحياة . وهنا الفلاحون الطيبون الخبثاء البلهاء أفقر واتعس مخلوقات الله على هذه الأرض .

وفى هذه الايام راقت فى عينى بنت فلاحة تمنيت من أجلها أن أدخل الجيش واتزوجها على أن تبقى فى القرية وازورها أحيانا . وكانت مليحة وبضة وفيها ملامح ممثلة أمريكية شهيرة كنت أعشق أفلامها وكان جمالها طازجا وعفيا ، وكانت جريئة تهوى المزاح والغناء ، وكانت حين تغنى يسيل من صوتها المبحوح نبرات حزينة كأنها البكاء . ولكنى رحلت ذات صباح من القرية دون كلمة وداع من البنت الفلاحة ، ولم أرحل وحدى ولكن مع قافلة حزينة من عشرة شبان فلاحين ، صادق ويوسف وجاد الحق وآخرين .

وكان بعضهم أصدقائى ، والبعض الآخر أراه لأول مرة ، وخرجت أنا على رأس الموكب أركب حمارا وفلاح قريبى يجرى من خلفى ، وخرج جدى الشيخ خليل يودعنا حتى شاطىء الرياح ، ثم منحنى جنيها وتمنى لى السلامة . . وعاد ! وخطفت نظرة على جدى وهو يحث الخطى نحو القرية ، وادركت عندئذ أننى أنتقل الى حياة جديدة مختلفة ، وانني لأول مرة أواجه المرحلة الجديدة بلا أصدقاء !

كانت الشمس على وشك ان تتوسط السماء حين وصلنا الى مركز بوليس الباجور ، وفى دقائق انتهت اجراءات تسليمنا وصافحنا الخفراء ومضوا . وواجه شاويش المركز مشكلة وجودنا فى المركز حتى الصباح . وراح يسأل كل مسئول عن المركز عن حل مناسب للمشكلة . كانت المشكلة تتلخص فى أننا عهدة لديه ، وكان السؤال : هل يلقى بنا فى الحجز ؟ ولكننا لسنا وش ذلك كما أفتى أحد الصولات الطيبين . اذن هل يتركنا نتجول فى فناء المركز ؟ ولكن من يدرى . . فقد يهرب أحدنا ، خصوصا أن بعضنا كان يبكى بحرقة وكأنه ذاهب الى الاعدام .

وفى المساء ذهب الشاويش وأحضر كاتب المركز ، وهو رجل مسئول خطير المسئولية ، وكان شابا صغيرا حديث العهد بالوظيفة ، عندما وقع بصره علينا ، صاح على الفور : « ارموهم فى الحجز » وعلى الفور انطلقت الصيحات والنبى يابيه احنا غلابة ، نبوس رجلك يابيه ربنا يخليك . . وانقلب المركز الى مناحة ، ولكن البيه لم يتزحزح خطوة . . وأصر على موقفه وكان لابد من تنفيذ الامر .

وانهالت الكرابيج فجأة تمزق الهواء وتمزق الجلود ، وسرعان ما هدأت الضجة ، وانفتح باب السجن الكبير ليدخل عشرة رجال سيصبحون بعد أيام عساكر فى جيش مصر . وقبل أن نخطو داخل الزنزانة القذرة المعتمة نادانى الافندى الكاتب وقال وهو يهزنى برفق : انت مش محمود ، ولما أجبت بالايجاب صافحنى بحرارة . . وتبينت وأنا أتفرس فى وجهه أنه فخرى صديقى القديم وزميلى فى مدرسة المعهد العلمى . وقضيت الليل كله فى حجرة فخرى نشرب الشاى وندخن السجاير ، ونستعيد ذكريات الشقاوة فى شارع سلامة أيام التلمذة ولأجل خاطرى أفرج عن الآخرين وسمح لهم بالنوم فى فناء المركز على ضمانتى .

وفى الصباح أوصى الشاويش الذى صحبنا الى القاهرة أن يعاملنى معاملة كريمة . وسرنا من جديد الى محطة السكة الحديد ، الفلاحون مقيدون بالحبال ، وأنا أسير بجوار الشاويش نتبادل الحديث والسجاير والفلوس أيضا . فقد حدث أن وقفنا ننتظر القطار فى محطة بنها ، وكان علينا أن ننتظر لمدة ساعة واستأذنت من الشاويش لمدة دقائق أزور خلالها خالتى التى تسكن فى بنها ، وعندما عدت لم أجد أحدا فى المحطة ، واكتشفت أننى تأخرت كثيرا وأننى تحت الحاح خالتى تناولت طعام الفطور وشربت الشاى ثم خرجت أتجول فى شوارع بنها قبل ان اذهب الى المحطة . وركبت القطار الآخر وفى نيتى أن أفعل شيئا . . اذا وجدت القافلة فى انتظارى فى محطة مصر كان بها . . واذا لم أعثر فالفرار اذن هو الشىء الوحيد الذى يجب أن افعله . فلقد عانيت كثيرا خلال الساعات الاخيرة ،

وشعرت بمرارة من منظرى وأنا أزحف الى جوار الشاويش ومن كلمات النفاق التى تناولناها خلال الرحلة ، وهى كلمات زائفة ، وباردة ، كما أننى لم أكن تعودت قبل ذلك أن أنهض بأمر وأسير بأمر . . وأتوقفت بأمر ، واذا كان هذا هو الحال والأمر وأنا فى يد البوليس ، فكيف يكون الحال عندما يصبح فى يد الجيش ؟ . .

دخل القطار محطة مصر . . ورحت أتلفت على الرصيف ، ولكنى لم أعثر على أحد هناك ، وعندئذ قررت أن أهرب . . ولكن الى أين . . الى الجيزة ؟ انهم سيبحثون عنى حتما فى الجيزة وسيقبضون على . . اذن أهرب الى مكان آخر . ولكن أين هو هذا المكان ؟ ورحت أستعرض فى ذاكرتى كل الاماكن التى أستطيع أن أهرب اليها ، ولكن قبل أن أستقر على مكان لمحت ضجة من بعيد ، وصراخ يتصاعد فى فناء المحطة . . وشدنى فضولى الى هناك . . وهو فضول سيسبب لى متاعب لا حصر لها فى المستقبل . واخترقت الحلقة المضروبة حول الرجل الذى يصيح وعندما أصبحت أمام الحلقة ، اكتشفت أننى أصبحت وجها لوجه أمام الشاويش . . وانه هو نفسه الذى يبكى . . ومد يدا عملاقة جبارة وقبض على عنقى ، وعبثا حاولت ان أخلص نفسى منه دون جدوى ، ولم يترك عنقى يفلت من بين أصابعه الا فى معسكرات الجيش .

كان المعسكر الذى ضمنا يقع على مشارف الصحراء فى أطراف العباسية وكان اسمه معسكر العزل .

ومن أول دقيقة تم تفنيطنا . . وعزلونى بعيدا عن زملاء الرحلة ، ووضعونى فى خيمة مع سبعة أفندية متعلمين . هم حصيلة هذا اليوم من المتجندين أصحاب المؤهلات . . كان الافندية السبعة كلهم من الريف ، وأبناء عم جميعا ، ومستورين وكانت أسرهم قد انتقلت الى المدينة خلفهم ساعين بالوسائط والشفاعات لدى أصحاب النفوذ ليخرجوا « الاولاد » من هذه المحنة .

وكان المعسكر يسلم رواده ماركات بخمسة قروش ليشترى من البوفية طعامه وشرابه ولكن سكان خيمتى كانوا يتبرعون بالماركات لشاويش المعسكر ، الشاويش خلاف . . وهو رجل له صوت مكنة طحين خربانة ، وقلب من بلاط . وعقل أغلب الظن أنه من مصاصة قصب ، وكان شديد الزهو بهيئته ، شديد الاصرار على تنفيذ الاوامر كما هى دون أدنى تقصير .

ورغم أنه فلاح فقد كان يحتقر الفلاحين من أعماقه ، وكان يطلق على زملائنا فى المعسكر من أبناء الزيف وصف الطلاينة ، وكان يعتقد أن الطلاينة هم أسوأ ناس على ظهر الارض . وكان يتردد علينا دائما اثناء تناول وجبات الطعام ، وكان يتلكأ عندما ندعوه الى الاكل معنا ثم يقبل بعد الحاح ، ولكنه بعد أيام ،

أصبح يهجم على الطعام دون دعوة ، بل أصبح يوصى بأصناف معينة ، وأكثر من هذا كان يوجه نقدا لبعض أصناف الطعام ، ولم تكن خيمتنا تستهلك من الطعام ألا الذه وأشهاه ، فطير مشلتت ، فراخ محمره ، وعسل نحل ، قشطة فلاحى ، جبنه قديمة ، بيض مسلوق ، رز معمر ! وكان خلاف يعشق الرز المعمر الى درجة الجنون ، وذات مساء أكد لنا ونحن جلوس امام باب الخيمة ان الذى يأكل الرز المعمر فى كل وجبة يعمر الى سن المائة ، ويبقى فى صحة جيدة الى آخر يوم من أيام العمر . وأن معنى معمر مأخوذة من العمر الطويل ، وفى ذلك المساء نهض خلاف فجأة فى منتصف الليل وأطلق صفارة طويلة وسرعان ما استيقظ جميع الوافدين للتجنيد ، ولما سألته عن السبب قال فى هدوء ، عشان يلموا ورق ! ولما لم يكن هناك ورقة واحدة فى أنحاء المعسكر ، فقد هز خلاف رأسه وقال : يلموا أى حاجة دول طلاينة !

وخلال سبعة أيام فى المعسكر رأيت أشياء عجيبة ، المجندون ـ ما عدا الأفندية ـ تحولوا الى مجموعات ، أبناء المنوفية وحدهم ، وأبناء الشرقية وحدهم ، والصعايدة وحدهم . ولكن أنشط وأعظم مجموعة كانت تضم ابناء الاسكندرية . ولقد جاء ابناء الاسكندرية الى المعسكر ليس كما يجيء الناس . جاءوا فرادى ومع كل منهم عسكرى ، وفى يد كل منهم جوز كلبشات وأمر من البوليس بمراقبة النفر ، فاذا دخل الجيش كان بها ، واذا أعفى من التجنيد فلابد من تسليمه للبوليس ، واكتشفت أنهم جميعا من بحرى والانفوشى ، وأنهم جدعان لهم شهرة فى اسكندرية وأنهم جميعا مراقبين بعد سجن طويل من أجل جرائم لا تمس الشرف وكانوا يسهرون الليل بطوله مضفين على جو المعسكر ساعات من البهجة والمرح وكانوا جميعا يحفظون الحان سيد درويش ، ويتعصبون لكل ما هو سكندرى .

وكانت الاسكندرية فى رأيهم هى مركز الكون ومحور العالم ، كما أن أهلها هم أذكى ناس على ظهر الارض ! وكانوا يحتقرون الشاويش خلاف بشدة ، ويتعمدون عدم تنفيذ أوامره ، وكانوا يسمونه القفة ردا على تسميته لهم بالطلاينة . ولكن رغم هذا التحدى فقد سارت الامور عدة أيام فى هدوء قبل أن ينفجر الموقف داخل المعسكر . . ورغم رذالة الشاويش خلاف الا أنه كان محتملا ، فقد كان خفيف الدم ، وكانت تطلعاته محدودة ، ومطالبه سهلة ولكن الصول شفيق كان أكبر مصيبة حطت علينا نحن الافندية . .

كان يسهر معنا طول الليل مصرا على أن يقرأ علينا كشاكيل ضخمة من انتاجه الادبى . . وكان مصرا على أنه لو صادف بعض الحظ الحسن فى الحياة

لاصبح مثل طه حسين والعقاد ، وكان يحلم بأن يترك الخدمة يوما ما ليصبح كاتبا كبيرا ذائع الصيت . وعندما قرأ أول سطر فى الكشكول الضخم الذى سحبه علينا ، تبينت كم هو مدع وكاذب مهبول « بينما كنت أسير فى منازل الزرع الأخضر ، بين النسيم العليل والهواء البليل والطيور تغرد على أفنانها ، والحيوان يتبخطر فى ارجائها » . . وسكت فجأة ليسألنا سؤالا مفاجئا ، عارفين يتبخطر يعنى أيه ؟ وأجاب بنفسه على الفور ، يعنى يتمخطر شايفين الفن ! ولم يكن فى كلامه فن ولا حتى صنعة . ومع ذلك ظل يقرأ علينا كل يوم كشكولا ضخما ونحن نستمع اليه فى أدب وفى خوف ، وكنا أحيانا نردد أمامه عبارات الاعجاب وكان هو ساذجا ومغرورا الى حد أنه صدق كل حرف قلناه !

وذات صباح نشبت المعركة فى المعسكر ، طلب الشاويش خلاف من أبناء الاسكندرية ان يجمعوا الورق ، ولما لم يكن هناك أى ورق ، فقد رفضوا تنفيذ الامر ، ومد الشاويش يده ولهف احدهم قلما ولكن قبل ان تصل يده الى المكان الذى اعتادت أن تصل اليه . كان الشاويش خلاف قد أصبح جثة ممدة على الارض والدماء تنزف من كل جزء فيه . وطاح عيال اسكندرية فى المعسكر كله ، وضربوا الشاويشية والصول والمجندين ، وزعق النفير كبسة وتدفقت قوات كبيرة حاصرت المعسكر ، وسرعان ما هدأت المعركة وتم عزل أبناء الاسكندرية فى معسكر آخر قريب .

وذهبنا للكشف الطبي فى النضارة . ووقفنا جميعا عرايا فى حوش واسع تنبعث منه روائح كريهة أشبه بالروائح التى تنبعث من بيت الأسد فى حديقة الحيوان . وعندما عدنا الى المعسكر كنا قد أصبحنا جنودا فى الجيش . أما الآخرون فقد اطلقوا سراحهم بعد الكشف ، ولم يعد معى من أبناء بلدنا الا واحد فقط . والباقون جميعا شرك . وكان السبب واحدا : ضعف الرؤية الى درجة العمى . .

ولقد أتيح لى أن أعيش عشرين يوما فى المعسكر ثم استطاع أحد أفراد اسرتى وهو مستوظف وكان على علاقة بأحد الاحزاب استطاع أن يتنزعنى من المعسكر ومن الجيش كله لا عود من جديد الى الجيزة تحت الطلب ! وكانت تحت الطلب تعنى أننى أكون مستعدا دائما لدخول الجيش عند أى لحظة خطر يتعرض لها الوطن ! وهى نكتة بالطبع لاننى خرجت من الجيش والوطن يتعرض فعلا للخطر ، ولم أكن أنا وحدى الذى خرجت ، خرج معى كل الافندية ، وتركنا الطلاينة خلفنا للشاويش خلاف وللصول الذى يحلم بالشهرة عن طريق الادب .

وخرجت من المعسكر الى دكان عبده بكر ، وبعد شهر واحد اصبحت محررا فى دار الهلال . ولكن خلال هذا الشهر وقع حادث غريب . فقد هبط على ذات

مساء شاب كان يعمل معنا لفترة فى مسامرات الجيب . وكان اسمه خلف وكان وسيما وصحيح البدن وله هيئة وشكل أبناء الذوات الهنود . وكان يعمل محاميا ولكنه صادف كثيرا من المتاعب فلجأ الى الصحافة وكان قريبا الى قلب الرجل الطيب . ولقد نصحه الرجل الطيب بأن يتجه الى الترجمة ، وكان رأى الرجل الطيب ان المترجم الذى ينقل أدب الشعوب الى لغتنا ينبغى أن يكون أديبا وفنانا ومحبا للشعب .

ولقد وافق خلف على هذا الرأى فعلا وانهمك فى ترجمة كتاب لدستوفسكى ، ولكنه سرعان ما هجر دستوفسكى الى سمرست موم ، ثم هجر الجميع الى كاتب فرنسي وترجم له فصولا من كتاب فلسفة الحب ! ثم ما لبث أن اختفى نهائيا من المجلة ولم أره بعد ذلك الا عندما هبط علينا فى دكان عبده بكر .

ولقد ارتعت بشدة عندما رأيته ، كان يبدو عليلا ومنهكا للغاية ، وكان منظره يدعو الى الأسى ، وعيناه متقرحتان ، وفى وجهه بثور ، وحذاؤه مخبوط ومضروب فى أكثر من موضع . . وبنطلونه ممزق وجاكتته باهته اللون وقميصه ممزق كأنه خارج لتوه من خناقة حامية ، وعندما استفسرت منه عن حاله لم يتكلم . . آثر الصمت البليغ وسرح فى ملكوت الله . . وبدا لى وأنا أتفرس فيه كأنه مجذوب يعيش حول ضريح سيدنا الحسين . .

وفى آخر الليل طلب منا أن نسمح له بالنوم فى دكان عبده حتى الصباح . . ورفض عبده فى أول الأمر ، ظنا منه أن خلف لابد أن يكون لصا عريقا اعتاد الاجرام . وهارب من البوليس ويبحث عن مكان يلجأ اليه . . وفى النهاية وافق بشرط أن يغادر الدكان فى الصباح الباكر قبل أن يكتشف وجوده أحد . . ومع ذلك فقد نام خلف فى دكان عبده أسبوعا كاملا ، وكان أكثر المتحمسين له عبده نفسه ، وكان شديد الكرم معه ، يشترى له الطعام ويعد له الشاى ويمده بين الحين والآخر بالسجائر . .

ولكن عبده الذكى كان يرمى الى شيء آخر ، فقد كان عبده هاويا للمسرح وكانت له فرقة مسرحية خاصة به ، وأراد أن يستغل خلف فى تأليف الروايات . . . ولكن خلف المسحوق تماما لم يستطع أن يكذب طويلا على عبده ، ولم يلبث أن غادر الدكان ذات صباح ولم يعد ، ولقد عرفت من الرجل الطيب بعد ذلك أن خلف فقد عقله ، وأنه نزيل مستشفى المجاذيب ، ثم عرفت بعد ذلك أنه مات فى الطريق ، صدمته عربة فى مصر الجديدة ولفظ أنفاسه على الفور .

ولقد قدر لى أنا أيضا أن أغادر دكان عبده المكوجى الى غير رجعة . وبعد رحلة قصيرة الى دار الهلال ومقابلة لم تستمر طويلا مع رئيس التحرير ، وحديث قصير بالتليفون من اسماعيل الحبروك ، أصبحت محررا فى دار الهلال . . ولقد بدت دار الهلال أمام عينى شامخة وجليلة ، والدار نفسها كانت نظيفة والرخام يلمع بشدة والسكون يشمل كل شىء على غير عادة دور الصحف وكأننا فى مستشفى من مستشفيات العاصمة الانيقة .

ولقد تحدث معى رئيس التحرير حديثا خاطفا ولكنه بلور ولخص فيه كل فلسفة دار الهلال وكل أهدافها . نحن هنا نهتم بتسلية الناس ، وعلينا أن نقدم للقارىء كل ما ينشده انه يبحث دائما عن كل شىء طريف ! ولم أفهم وقتئذ ما هى الطرافة ، وحسبت أنه يقصد الظرف وان الشىء الطريف هو الشىء الظريف . . وعندما استفسرت عما يقصده رئيس التحرير ، أجابنى أحد المحررين بحماس ، يعنى لازم تجيب شىء جديد ، القارىء يحب الجديد ، وضرب لى أمثلة حية من انتاجه هو شخصيا .

وسحب عددا من مجلة الاثنين . . وراح يتصفحها ببطء ثم توقف عند صفحة معينة وقال . . بص ، دا موضوع طريف ، أنا عاملة ! وكان الموضوع فى دولاب ممثلة شهيرة ، وعدة صور عن ملابس الشتاء القادم ثم الممثلة نفسها وهى تعرى فخذيها ، ثم الممثلة ايضا وقد برز صدرها للهواء النقى !

ورأيت توقيع المحرر « بقلم طلال مرزوق » واندهشت لانه لم يكن فى الصفحة أى شىء بقلم هذا الاستاذ والموضوع المنشور كله بعدسة المصور ، ولكن المجد كله للاستاذ مرزوق .

وتنهد الاستاذ بعد أن انتهى من شرحه العملى ، ورفع سماعة التليفون فى رشاقة وطلب الست الممثلة ، وراح يدردش معها دردشة طويلة عن الموضوع ، وما بذله فى سبيل نشره وانتهى الكلام بموعد مع الممثلة فى المساء وعندما نهض واقفا نظر نحوى فى زهو ممتزج ببلاهة ، وقال قبل أن يغادر الحجرة ، اذا كنت عاوز أى حاجة أنا تحت أمرك . . ثم قذف أمامى بكارت . . وعلى الكارت كان اسمه بارزا بحروف صفراء فى لون الذهب ، الاستاذ مرزوق ، صحافى ! ووضعت الكارت فى جيبى وتمنيت أن يكون لى مثله فى قادم الأيام !

كان فوج المحررين الجدد الذين اقتحموا دار الهلال أخيرا يتكدس أفراده جميعا فى حجرة واحدة . وكان منظر الحجرة الخشن البائس يوحى للزائرين أن هذه الحجرة قد انفصلت نهائيا عن دار الهلال ، كما ان كل الاصوات النشاز التى كانت تتصاعد فى جو الدار الهادئة هدوء المقابر كان مصدرها هذه الحجرة التى اصبحت مقرا لهذا الفوج البائس من المحررين الجدد .

وكانت النظرة الأولى الى هؤلاء المحررين تؤكد أنهم حديثو الصلة بالدار . فقد كان المحررون القدامى جميعا يرتدون قمصان حرير وبدلا أنيقة وأربطة عنق غاية فى الحلاوة والجمال . وكان أحدهم واسمه نصرت عبدالحليم يرتدى نظارات ملونة ويضع السيجارة دائما بين شفتيه ويتكلم من طراطيف أنفه ويفلسف كل شيء وكأنه الفيلسوف جان جاك روسو نهض من قبره فجأة ليهدى البشرية الى طريق السلام .

وكان الاستاذ نصرت قد كتب عدة قصص قصيرة فى مجلة الاثنين الواسعة الانتشار فأصبح نجما من نجوم المجتمع المصرى ولكن لعدة شهور . ثم ما لبث أن اختفى اسمه من المجلة ثم اختفى هو نفسه من المجتمع ، وقنع بركن فى كازينو أوبرا كل مساء يدخن فيه الشيشة ويجتمع ببعض الاصدقاء الذين كانوا يؤمنون بعبقرية الاستاذ . ورغم انطفاء اسمه وذبول أحلامه فى الشهرة والانتشار الا ان وظيفته فى دار الهلال كانت تتيح له سيطرة كاملة على المحررين ، فقد كان يقوم بدور المراجع ، وكان يستطيع أن يمنحك مائة جنيه كل شهر ، أو يمنحك نصف جنيه فقط لا غير لو أراد . . ولذلك كان يقضى الساعات الطويلة فى الحجرة البائسة مع قطيع المحررين الجدد يحكى لهم أمجاده العريضة فى الصحافة ، ويصحح لهم معلوماتهم الخاطئة عن الحياة . وكان يصحبه خلال هذه الساعات صمت عميق من جانب المحررين . . ويضمن أيضا نفاقا لا حد له من جانب البعض الطامع فى مزيد من عطف الاستاذ ومزيد من فلوس الدار . .

ولكنى اكتشفت من أول لقاء أن الاستاذ فاضى تماما من كل ثقافة . وخاوى تماما من كل موهبة . . وأنه قبل مجيئه الى هنا كان باشتمورجى هرب من عيادة طبيب والتحق بدار الهلال كموظف فى الادارة . ولكنه استطاع بفضل نبوغه فى النفاق ان ينقل من الارشيف الى التحرير ، واستطاع أن ينشر عددا من القصص . . ثم ارتكب غلطته الكبرى عندما نسى أنه يحتل هذا المكان ليس بفضل عبقريته الفذة ولكن بفضل سلوكه كتابع أمين لأصحاب النفوذ فى الدار . . فلما شمخ بأنفه عليهم ، عزلوه ببساطة وجردوه من كل شيء . . وأغلقوا عليه باب حجرة ضيقة ليراجع فيها أعمال المحررين ، غير أنه كان شديد الثورة ضد النظم القائمة فى الدار ، هذه النظم نفسها التى رفعته من كاتب فى الارشيف الى كاتب قصة . وكان يزعم أن حقد أصحاب الدار عليه ليس الا لكبريائه الوطنى وثقافته العريضة !

وكان يحلم دائما باصدار مجلة تقضى على مجلة الاثنين ثم تقضى على دار الهلال نفسها . وكان يؤكد دائما أن لديه مائة قصة جاهزة لنشرها فى المجلة المزعومة !

ومضى شهر كامل وأنا أعمل فى دار الهلال دون أن أعرف المبلغ الذى سأتقاضاه أخر الشهر . كان على أن أقدم ما أستطيع من الموضوعات وكانت هذه الموضوعات تخضع لتقييم وتقدير مدير التحرير . وكانت العلاقة بينى وبين مدير التحرير لا تسمح بالخوض فى هذا الموضوع ، فقد كان رجلا قصيرا مشوها وحاد المزاج ، وكان يسهر فى نقابة الصحفيين يلعب القمار حتى الصباح ولكنه والحق أقول كان على دراية بهذا النوع من العمل فى دار الهلال فقد كان يعرف الخط العام للمجلة والسياسة التى ينبغى أن تسير عليها . وكانت كل اهتماماته محصورة فى الطريف والظريف من الامور ، وكان كل أصدقائه من المقامرين ، وكل صديقاته من بين بنات الكومبارس المترددات على أستديوهات السينما . وكان أحيانا ينشر لبعضهن صورا بالمايوه عند اقتراب فصل الصيف باعتبارهن من بنات الاسر التى اعتادت الاصطياف وكانت له بطانة من المحررين يسهرون معه أحيانا ويتكلمون باسمه أحيانا .

وكان هؤلاء المحررون ينفقون عن سعة ، ويدخنون نفس الصنف الذى يدخنه مدير التحرير ويرتدون نفس الالوان التى يرتديها . . بل كانوا أحيانا يقصون علينا نفس الحكايات التى يقصها عليهم ، وعلى أنها حدثت لهم شخصيا وليس لمدير التحرير !

وجاء آخر الشهر ، ووقفت امام عم حبيب صراف الدار كبائع غلبان معكوم نحرى ، وسألنى عن اسمى عدة مرات ، ثم ألقى نظرة على كشف أمامه ، ثم أدخل يده فى درج . . ثم أخرج رزمة أوراق مالية وراح يعد فيها ، وأدركت أن الرجل أخطأ ، فهو يعد أوراقا مالية من فئة العشرة جنيهات ، وأنا شخصيا لم أكن أطمع فى أكثر من ستة جنيهات أو ثمانية . هذا اذا كنت سعيد الحظ ! ولكن عم حبيب واصل العد ثم راح يفرد الاوراق أمامى . أوراق بلغت خمسين جنيها ثم ورقة من فئة الخمسة جنيهات ، ثم ورقتين من فئة الجنيه ثم أوراقا صغيرة من فئة العشرة قروش . وكاد يغمى على . . فانا لم أحلم أبدا منذ ان احترفت الصحافة بأن أمتلك مبلغا بهذا القدر . وأنا كنت أعتقد حتى هذه اللحظة أن الوزير يتقاضى خمسين جنيها فى الشهر وأن الملك يتقاضى أكثر من مائة جنيه . . وهأنذا فى لحظة أقفز الى درجة الوزير . وها هو عم حبيب يمنحنى خمسين جنيها وأكثر مرة واحدة . . وأمسكت بالنقود فى خوف . . وترددت فى التوقيع فقد كنت متأكدا ان النقود ليست لى . . لعلها لرجل آخر اختلط اسمى باسمه فى ذهن عم حبيب .

وقررت أن أصارح عم حبيب بالامر لكى أثبت له أننى رجل شهم وأمين . . ولا أقبل المال الحرام مهما كان قدره ومهما كان مصدره ! ولكن عم حبيب شخط

شخطة عنترية أفزعتنى ، ودعانى الى التوقيع لأفسح المجال لغيرى من المنتظرين ، ووقعت فعلا ، ولهفت المبلغ وخرجت من دار الهلال أجرى ، كأننى قاتل تطارده عشرة كلاب متوحشة . .

وسبعة أيام كاملة وأنا صايع فى الشوارع دون هدف . . أرتاد البارات والمقاهى وأستعمل التاكسيات . . وأدخن السجاير الامريكانى التى يدخنها طاقم المحررين الملتف حول رئيس التحرير . . واشتريت لنفسى حذاء جديدا . . فقد كان حذائى القديم قد بلى من كثرة الاستعمال ، وكانت المياه المتخلفة من الامطار تتسرب الى قدمى من خلال الثقوب الكثيرة التى طرأت عليه . . وكان لونه أجرب لم تعد تنفع فيه الاصباغ ولا الورنيش ولقد أرتديت الحذاء الجديد داخل المحل ، ثم قذفت بالحذاء القديم فى الميدان الكبير وانصرفت هاربا ، وأحسست براحة لاحد لها، وكأننى امرأة زانية تخلصت من جنينها الذى رزقت به فى الحرام .

وعدت من جديد الى دار الهلال . . عدت اليها وقد تغيرت كثيرا ، واكتشفت خلال الاسبوع الذى مضى أننى أصبحت أكثر رقة واكثر طيبة وأقل غلظة وأقل حدة عن ذى قبل . . وجلست فى سكون فى ركن الحجرة اكتب وقد اعترانى فجأة احساس بأن ما أكتبه مهم . كنت اكتب موضوعا عن فنان الشعب . الرجل أبوأرغول الذى يحتل كل أسبوع ركنا فى سوق الثلاثاء يغنى مواويل أدهم الشرقاوى ومسعود ووجيده . ولقد وافق عليه رئيس التحرير بصعوبة . ووصفه بأنه شحاته ، وقال أن الفنان هو من يعمل فى المسرح أو فى السينما ، أو البنت التى ترقص فى الصالات . . ونطق الكلمة بانجليزية ARTIST وقال ان الكلمة ينبغى عدم ابتذالها . . واستبدل العنوان بعنوان آخر . . مطرب الشعب !

وفجأة هبط علينا محرر من طاقم المحررين إياهم ، وجلس أمامى . وتفرسنى بشدة ، وسألنى وهو يهز رأسه ويغمز لى بعينيه :

• هيه مبسوط ؟

ـ الحمد لله . .

• رحمى بك عمل لك مبلغ محترم .

ـ أه فعلا . .

• شكرته والا لا ؟

ـ لا والله . .

• شوف العبط . . مش تروح تشكره . .

ـ بكره بقى ان شاء الله . .

• أقولك . . تعرف اسكابينو ؟

ولم أكن اعرف اسكابينو ، ولم اكن قد سمعت به من قبل ، وخيل الى أنه محل جاتوه مثل جروبى . . أو كاتزانس ، وربما هو قهوة مثل بوديجا والشمس . . ولما بدا جهلى الشديد ، اضاف الرجل الخبير :

سكابينو بتاع الجرافتات . .

وهززت رأسى وقلت كاذبا :

ـ آه . .

طيب فوت عليه بعد الضهر ، عنده تشكيلة جديدة رائعة . هات نص دستة لرحمى بك وروح بكره اشكره .

ونهض الرجل الخبير على الفور ولم يترك لى أى فرصة للرفض أو للرد . . وجلست أفكر فى هذا العرض المريب ، نص دستة كرافتات لرحمى بك وأنا نفسى ارتدى بدل الكرافتة شيئا يشبه الحبل . ولو عثرت على دستة كرافتات فمن المؤكد أننى ساستعمل بعضها وابيع البعض الاخر . كما اننى حتى هذه اللحظة لم اكن قد تلقيت أى هدية فى حياتى ، ولم أكن قدمت أى هدية لاحد على الاطلاق . . ثم هل هذه هدية ؟ ام رشوة ؟ وهل النقود التى قبضتها هى أجر ما كتبت . . ام فى أموالنا حق معلوم لمدير التحرير المسئول ؟ وهل هذا النظام معمول به هنا فقط أم فى كل دور الصحف الاخرى ؟ وهل هذه هى الصحافة ؟ وهذا هو الطريق الوحيد المؤدى اليها ؟ ام ماذا ؟

وقررت فى النهاية امرا . . لن اذهب الى سكابينو . . ولن اهدى شيئا لرحمى بك . . ومضت الحياة عادية فى دار الهلال حتى جاء أول الشهر . . وعندما وقفت امام حبيب صراف الدار اكتشفت أن المبلغ هبط من سبعة وخمسين جنيها الى سبعة عشر جنيها ، وهبط فى الشهر التالى الى ستة جنيهات ، ثم الى لاشىء فى الشهر الرابع . وأصبحت محررا بلا أجر فى دار الهلال . . واقتراحاتى كلها مرفوضة وموضوعاتى كلها مردودة وحركاتى كلها سخيفة ودمى بايخ وصوتى مزعج بشكل رهيب !

ورحت اقترض من المحررين الرائجين ، ثم رحت اتناول منهم اجرا لقاء ما اكتبه لهم ، وذاع صيتى فى الدار ، فأصبحت « كاتب عمومى » أكتب موضوعات المحررين لقاء اجر معلوم اتقاضاه آخر الشهر ثم احتكر جهودى محرران احدهما يعمل الان مندوبا للاعلانات واخر ضاع فى الحياة وعاد الى قريته بعد ان داخ دوخة الارملة فى مصر !

كان الرجل الاول شديد الذكاء شديد الطموح ولكن امكانياته لم تكن تسعفه لتحقيق أغراضه . . وكانت كل حصيلته فى الثقافة قبل ان يصبح محررا فى دار الهلال هى عشر روايات جيب لارسين لوبين ، وروايات السينما المصرية ، وكان واسع الاطلاع عليها ، وعلى صلة وثيقة بجميع مؤلفى الاغانى فى مصر وكان يطلق عليهم وصف الشعراء . . وكان صديقا لاحدهم وهو مؤلف وتاجر فراخ ، وكان يكتب عنه كل شهر موضوعا فى المجلة ، ويلتقط له صورا وهو يؤلف الى جانب أقفاص الفراخ وكان يكتب فى الفرق بين صوت الديك وصوت الشاعر .

وكان الشاعر الفرارجى كريما فقد كان يهدى المحرر اياه خمسة أجواز فراخ كل اسبوع ، وكان المحرر كريما هو الاخر ، فكان يستولى على الهدية اسبوعا ، ويرسل بها الى بيت مدير التحرير اسبوعا آخر . . وعندما اطمأن الى كفاءتى واتقانى فى العمل ، ترك لى مهمة كتابة المواضيع وتسليمها باسمه وتفرغ هو لعمله الاخر فقد أصبح مديرا لدعاية شركة أفلام !

أما الرجل الاخر فكان من الارياف . . وكان مدرسا الزاميا قبل ان يعمل بالصحافة . واغرب شىء انه استقال من وظيفته ليتفرغ لعمله الآخر كسكرتير لوكيل عام احد الاحزاب السياسية الكبرى ، ومن خلال عمله فى الحزب تسلل الى دور الصحف المختلفة ، ومنها الى دار الهلال . . ورغم ان الحزب الذى كان يعمل داخله كان حزبا عقائديا ، الا أن اهتمامات الاستاذ حلمى كانت كلها نسائية ، وكان وثيق الصلات بكل الجمعيات النسائية فى مصر ، وكان قادرا على الحديث مع السيدات بالساعات دون أن يكل .

وكانت اهتماماته تافهة تدور كلها حول الطبيخ واصناف الطعام والحلوى اللازمة لبناء الجسم . وكان يؤكد فى كل مناسبة أن الارز هو الطعام الكامل . . وأن الحلويات تساعد على تكاثر الدم ، وان شرب الماء على الطعام يسبب كوارث عظمى ، وان الرجل الكامل هو الذى يأكل ثم يشرب بعد الانتهاء من الاكل بساعتين . .

ورغم أن الاستاذ حلمى كان أعزب الا أنه كان قد دخل تجربة الزواج مرتين ! مرة فى بداية الحرب العالمية الثانية وكان يسكن فى حارة فى عابدين وعلى رأس الحارة كانت احدى الفتيات تبيع الجاز بدون كوبون وبسعر مرتفع ، وكان حلمى يحصل لها على الكوبونات بنفوذه فى دوائر وزارة التموين ، وكانت تربح من وراء هذا العمل مبالغ طائلة ، كان حلمى يحصل على بعضها مقابل خدماته .

ولقد تطورت الصلة بينهما الى حب ثم الى زواج ، ولكن حلمى سرعان ما سئم حياته فهجرها . . ولكن البنت الغلبانة التى جربت الزواج من رجل يتمتع فى الحياة بنفوذ لم تقبل ان تفرط فيه بسهولة وقاتلت فى سبيله بأسنانها .

وباظفارها . . وادى بها الامر الى انتظاره كل صباح امام دار الهلال ، والصراخ داخل الدار ! ورغم الفضيحة فقد أصر حلمى على موقفه ، ولم تجد البنت بدا من رفع الامر الى القضاء . . وفعلا . . حصلت على حكم ضد علوى بالنفقة أو السجن . .

ولما لم يكن مع حلمى ما يدفعه ، فقد القوا به ذات صباح فى السجن ثم قبل العودة اليها فافرجوا عنه ، ولبث معها شهرا ثم هجرها مرة أخرى ولكن بدون مشاكل ولا قضاء !

ثم تزوج مرة اخرى من بنت كومبارس جاءت الى دار الهلال لتظهر فى موضوع عن ملابس الخريف . وبعد الموضوع خرجت البنت مع علوى الى مأذون السيدة زينب . . وعادا فى المساء الى بيت حلمى زوجين سعيدين للغاية . ولكن يبدو أن الامور تكشفت لهما بعد ذلك فانفصلا دون ضجة . فقد ظنت البنت انها حصلت على الشهرة والمجد بزواجها من حلمى ، وظن هو انه حصل على الاستقرار المادى بزواجه منها . ثم اكتشف بعد شهر انها مفلسة ، واكتشفت هى أنه هايف وتم الطلاق فى هدوء وعاد يسعى من جديد على رزقه فى دار الهلال .

ولقد كان حلمى نموذجا غريبا من البشر لم اصادف مثله فى حياتى . . بل لعله أغرب نموذج التقيت به فى الحياة ، ورغم أن والده كان من رجال الدين ، ورغم انه كان من بيت طيب ، الا انه لم يكن يشعر بخجل تجاه أى شىء . . وكان يقبل القيام بأى عمل لرؤسائه حتى ولو تحول الى قواد دون اى غضاضة ! ورغم انه كان يصنع اى شىء وكل شىء الا انه لم يكن طماعا أو طموحا . . فلم يكن يهدف الى شىء الا ان يعيش فى هدوء .

وكانت كل امنيته فى الحياة ان يعيش فى شقة بمفرده . . وان يصبح دخله ثلاثين جنيها كل شهر . وكان يتمتع بقوة ثور ولا يشكو من مرض على الاطلاق ، وكان يبدو لاهيا وسعيدا ومبسوطا رغم المشاكل العديدة التى تلاحقه فى كل مكان . . ولقد تسبب فى انقسام مروع داخل الحزب وتسبب فى طرد وكيل الحزب وعدد من أعضائه الكبار ، ولكنه لم يشعر بالذنب أبدا . وكان يلقى اللوم على عقلية زعماء الحزب التى لا تريد ولا تقبل أى جديد ، ولم يكن هذا الجديد سوى شقة استأجرها حلمى فى ميدان شهير وكان وكيل الحزب يتردد عليها ، وكان حلمى يتولى اعداد كل شىء من النساء الى الخمور الى الحشيش .

ومع النساء والحشيش كان وكيل الحزب يجمع انصاره داخل الحزب لمناقشة الامور السياسية ، ولا تخاذ موقف موحد يهدف فى النهاية الى خلع رئيس الحزب

وبعض اعوانه ، وذات مرة تسلل واحد من انصار رئيس الحزب الى الشقة وصادق حلمى واغدق عليه بالفلوس والهدايا وانبسط علوى شديد الانبساط ، وانشكع غاية الانشكاع وأطلعه على كل أسراره ، بل جعله عمدة ، فى الحشيش . . هو الذى يرص ، وفى الخمر هو الذى يصب ، وفى الليالى الطرية هو الذى يتولى كل شىء وهو الذى يفهم كل شىء . .

ودحرج حلمى اكثر حتى ترك له مفاتيح الشقة ، وكأنه ترك مفاتيح الكرار للقط.واهتبل القط الاسود ـ مع الاعتذار للاذاعة ـ هذه الفرصة وهبر من مكتب حلمى فى البيت كل الاوراق المطلوبة وكل الوثائق التى تدين الوكيل والانصار والاخ حلمى ، ولكن بقيت وثيقة واحدة ، وهى وثيقة هامة وحاسمة وفاصلة عند الحساب . ولكى يحصل رئيس الحزب وانصاره على هذه الوثيقة فلابد من تعاون حلمى معهم ، وكانت مشكلة ولا مشكلة كوريا ، ولكن القط الاسود لم يكن من النوع الذى تقف أمامه عقبة أو يمنعه عن الوصول الى اغراضه احد ما ، خصوصا اذا كان هذا الاحد رجلا طيبا ومنهارا ومستعدا لاى شىء وكل شىء مثل الاستاذ حلمى .

وفعلا تم الامر على خير ما يشتهى القط الاسود ، دفع للاستاذ حلمى ببعض النقود وغمره ببعض الهدايا ويسر له كثيرا من الامور ، ثم اتفق معه على أن يسجل قعدة من هذه القعدات للسيد الوكيل وبطانته . وليه ؟ للذكرى والتاريخ . ولكى تنفع عندما تمر أيام الحظ الحلوة ويصبح التسجيل هو الشىء الحى الباقى لايام الحظ الفانية !! وصدق علوى بالطبع !! وانبسط جدا لهذا الاقتراح الرائع الذى يحفظ الذكريات والقعدات والسهرات الطرية !!

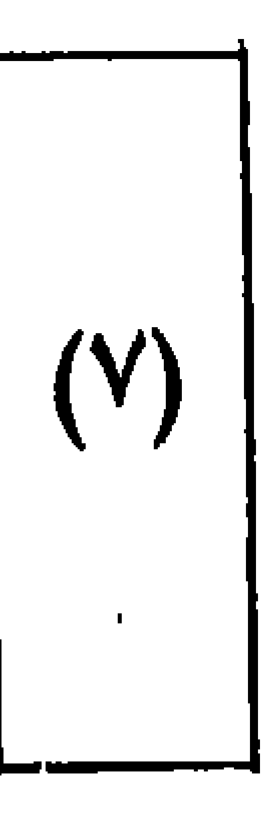
ولكى يتم الامر على خير وجه ، قام حلمى بالتسجيل لكى يكون الامر كله مفاجأة للوكيل الطيب الساذج الذى أسلم روحه ونفسه للاخ حلمى !

وذات مساء حافل رهيب ، كان بيت حلمى يشغى بالناس ، سياسيون من عينة الوكيل ، وفتيات فى عمر الورود ، وشبان كالغزلان وخمر وحشيش ، وكل مالذ وطاب مما تعصر المعاصر ومما تنبت الارض ، جلست الشلة والتسجيل دائر ، حلمى مبسوط لأنه يعد مفاجأة عظيمة وحلوة ، والبيه الوكيل أيضا مبسوط لأنه يسهر سهرة من سهرات العمر ! وتطرق الحديث خلال السهرة الى السياسة ومن السياسة الى المؤامرة ! وخلال الحديث ضحكات وهمسات وقرصات مفيش بأس . .

وانتهت السهرة ، وانتهى الرجل الطيب . . وعلى صوت التسجيل الدائر فى مقر الحزب ، استطاع رئيس الحزب اليقظ المدرب الوصول الى خلع الوكيل

والانصار والاخ حلمى . وكانت التهمة الموجهة اليهم جميعا هى خروجهم عن الخلق اللائق ، وارتكابهم ما يخجل وما يشين دون وازع من دين أو ضمير . .
وتكرر اسم حلمى فى بيان الحزب أكثر من مرة . . ومع ذلك كان شديد الاصرار على أن الامور يوما ستستقيم ، وأنه يوما ما سيعود على رأس الحزب من جديد !




(٧)



٧

ثلاثة شهور وأنا فى دار الهلال أكتب للمحررين وأقبض منهم ولا أحد يدرى فى الدار . وكان رحمى بك مدير التحرير يلتقى بى أحيانا فتبدو عليه الدهشة لأنى لازلت مقيما فى الدار مع انى لا اتقاضى شيئا . ولو كان رحمى بك يقوم بعمله على خير وجه ، لاكتشف أن كل أعمال الاستاذ حلمى الجديدة بخطى وكذلك أعمال الاستاذ الآخر صديق المؤلف تاجر الفراخ ! ولكن رحمى بك لم يكن يؤدى عمله على الوجه الاكمل ، وكان يترك عمله فى الدار لبعض المساعدين ، متفرغا فى النهاية لقبول الهدايا من المحررين ولعب القمار فى الليل والسهر فى الشالية الذى كان يملكه محرر فى شارع الهرم على ربوة عالية تطل على قرية نزلة السمان .

وفى هذا الشاليه البعيد عن العمران وعن المدينة ، كان رحمى بك يسهر أحيانا وسط شلة من بنات الكومبارس فى المسرح والسينما ، وكان حلمى يحضر أحيانا هذه السهرات ، وكان يحكى دائما فى الصباح لكل من يلقاه عن أدق تفاصيل السهرة ، وكان يبدو عليه الغيظ الشديد لأنه لا يملك شاليه من هذا الطراز ، وكان يحلم دائما بأنه سيصبح له شاليه يوما ما ، وعندئذ يستطيع تحقيق أحلامه فى عالم الصحافة ، ويضمن الاستقرار الذى ينشده منذ زمن بعيد .

وذات صباح ذهبت الى دار الهلال على غير العادة وكانت الحجرة خالية ولا أحد هناك . وكنت أشعر بقلق بالغ لا أدرى سببه ورحت أتمشى فى الحجرة جيئة وذهابا كأننى نمر هائج فى قفص فى حديقة الحيوان . وفجأة دخل الحجرة رجل مهيب يرتدى بنطلونا وقيمصا من حرير ويرتدى فوق كم القميص كما آخر من قماش رخيص أسود اللون ، ثم نظر نحوى وأجال بصره فى أرجاء الحجرة ، ولما لم أكن أعرف من هو هذا الرجل الغريب ، فقد جلست على المكتب الذى كان بالقرب منى لحظة دخوله الحجرة . ولكن الرجل أبدى دهشة بالغة ارتسمت على قسمات وجهه لجلوسى فوق المكتب ، وكأننى ارتكبت عارا لم يرتكبه أحد من قبل ، واقترب منى فى خطوات بطيئة وأشار نحو المكتب وسألنى فى غرور ولا غرور حكمدار يسأل بائع لبن غشاش .

ـ ايه. ده ؟
ولما كان اصبعه اتجه نحو المكتب فقد أجبته على الفور :
ـ دا مكتب . .
وبنفس الطريقة أشار نحو الكرسى وقال :
ـ وايه ده ؟
ولما كان اصبعه قد اتجه نحو الكرسى فقد أجبته على الفور :
ـ دا كرسى
وقال الاستاذ المهيب وكأنه اكتشف سر الحياة فجأة :
ـ والناس بتقعد ع الكرسى والا ع المكتب ؟
وقلت أنا ببلاهة وبعدم مبالاة .
ـ ساعات تقعد ع المكتب ، وساعات تقعد ع الكرسى .

وهز الاستاذ رأسه ، ثم سألنى عن اسمى قبل أن ينصرف ، وبعد لحظة حضر فراش نشيط وأبلغنى أننى مطلوب حالا لمقابلة الاستاذ الجريدينى. ولم أكن أعرف ما هو الجريدينى هذا ، كما لم أكن أعرف أى شىء عن مهنته بالضبط . وعندما ذهبت لأكلم الجريدينى ، اكتشفت أنه يجلس فى حجرة من زجاج كأنه سلعة معروضة للبيع فى محلات عمر أفندى ، كانت الحجرة الزجاجية مستديرة وتتوسط قاعة كبيرة لكى يتمكن الاستاذ الجريدينى هذا من القاء نظرة شاملة على كل ما حوله ، ولم يكن حوله شىء يستحق النظر ، فقد كان كل من حوله عددا من الموظفين الغلابا العجائز ، هم كل موظفى الارشيف والادارة فى الدار ، واقتحمت الباب وقد نويت شرا ، فأنا الآن شديد الزهق شديد الغلب ، ودار الهلال أصبحت جهنم الحمراء بالنسبة لى ، فلا أنا محرر فيها ، ولا أنا أستطيع الاستغناء عنها ، ولا أنا أبحث لنفسى عن عمل آخر . ووقفت أمام الجريدينى وقد اتخذت موقف المتحدى ، وسألنى الاستاذ وقد راح يتمرجح على مقعده الهزاز الدائرى .
ـ أنت بتشتغل ايه هنا يا استاذ ؟
ـ محرر .

وقلب بين أصابعه عدة أوراق اكتشفت من القاء نظرة عليها انها الدوسية الخاص بى ، وقال وأصابعه تعبث فى الاوراق :
ـ لكن دا أنت بقالك كام شهر مالكش انتاج .
ـ أصلى زهقان .

ورفع الجريدينى رأسه وألقى على العبد لله نظرة فاحصة وقال هو شديد الدهشة :

ـ زهقان ؟ زهقان من ايه ؟
ـ ماليش نفس أشتغل .
ـ حضرتك مؤهلاتك ايه ؟
ـ مهندس !!
ـ مهندس . . أتفضل . .

وأشار الجريديني الى المقعد الوحيد في الحجرة ، وعلى الفور جلست ووضعت ساقا على ساق ، واندهشت جدا لتصرف هذا الابله المعتوه الذى أقعدنى بشدة لمجرد كذبة حمقاء بأننى مهندس . مع أننى أعمل فى دار المفروض أنها تنتج الثقافة والفن والادب !

وتبسط الجريديني معى فى الحديث وسألنى فى ود بالغ :
ـ وحضرتك خريج جامعة فؤاد ؟
ـ لا أنا خريج جامعات ألمانيا .
ـ ما شاء الله . . . ويتعرف ألمانى ؟
ـ طبعا . .
ـ وتخصصك ايه يا أستاذ ؟.
ـ مبانى . .
ـ عال قوى ، طيب دنا هاحتاجك قريب ، أصل عندنا مشروع عشان دار الهلال ، ايه رأيك يا أستاذ تبقى تتعاون معانا .
ـ اذا كان هناك فرصة .
ـ طيب أنا أسف على اللى حصل منى . أنا ماكنتش اعرف سعادتك .

وضغط الجريديني على الزر وطلب للعبد لله واحد قهوة مظبوط وانتشرت فى الدار حكاية لقائى بالجريديني ، وهرع أكثر المحررين ليتفرجوا على العبد لله وهو جالس مع الجريديني ساقا على ساق وكاعب السيجارة فى فمه ولا رئيس تحرير الاهرام . .

وسرعان ما انتشرت اشاعة فى أنحاء الدار أننى مرشح لوظيفة هامة فى الدار وأننى على وشك أن أكون سكرتيرا للتحرير فى احدى المجلات ! وهكذا أدركت بعد نتهاء المقابلة أن الجريديني هو أهم رجل فى الدار بعد أصحابها بل هو أهم من اصحابها ، وانه شقيق المستشار القانونى للدار ، وانه ثرى أمثل ، وانه مدير عام الدار ، وانه يتدخل فى كل شىء ، فى الادارة والاعلان والتحرير أيضا !

ولو أردت أن أمضى فى هذا الشوط الى النهاية لكان لى ما أردت ولكنى كنت زهقان من دار الهلال الى الحد الذى لم يكن فى استطاعتى أن أمضى داخلها وقتا آخر . وكان شىء جديد آخر قد حدث داخل الدار ، فقد عين حديثا مديرا

للتحرير طالب فى الجامعة الامريكية . وكان شابا طيبا وساذجا عديم الخبرة . من أول لقاء بيني وبينه أدركت أنه تعلم كل شيء عن الصحافة فى أمريكا، ولكنه لم يكن يعرف حرفا واحدا عن الصحافة فى مصر .

ولقد اوصانا جميعا فى أول اجتماع بالاتجاه الى الترجمة . ولم يكن يدرى أن كل المحررين لا يعرفون حرفا واحدا من الانجليزية ، وان كل معلوماتهم عن الانجليزى ، انه عسكرى احتلال موجود فى مصر ! كما انى تضايقت اكثر من تصرفات ولد نصاب اسمه الجرجاوى ، كان وجهه مثل وجه الخنزير الحديث الولادة ، وكان من النوع الذى تكتشف محاسنه عند أول نظرة ثم تقضى العمر كله تحصى عيوبه دون جدوى .

كان يمتاز بمواهب عتاة المجرمين ، فلا ينفعل ولا يغتاظ ولا يحتج أبدا . وكان خبيرا فى التغرير بالفتيات وكان يسلبهن نقودهن وحليهن ثم يفر منهن فى النهاية . ولكنه كان موهوبا وكان صاحب اسلوب مشرق وذكى ولو أنه استغل موهبته الفذة فى موضعها الصحيح ، ولو أنه تمسك بعض الشيء بالقيم والشرف والامانة والصدق لكان اليوم علما من اعلام الحياة الصحفية والادبية فى مصر . ولكنه لمع فترة ، ثم اختفى قبل الاوان ، ولقد قضى الناس عليه ، ولكنه قضى على نفسه اولا ، واحترف الكذب فى النهاية ولم يسلم رجل شريف واحد فى مصر من لسانه ، ولكنه كان صديقا لكل المرتشين والمنحرفين واصحاب السلوك والسمعة الشائنة . وعندما التقيت به أول مرة ادعى أنه ينشئ دارا للنشر ، وانه اشترى كتبا من العقاد والحكيم وطه حسين . وانه ينوى اصدار كتاب لى فى السلسلة الادبية الكبرى أو هكذا سيطلق عليها ! وفى النهاية طلب منى عشرة قروش فكه لان كل النقود التى معه اوراق من فئة العشرة جنيهات !

وفى دار الهلال أيضا التقيت بمحرر آخر مدعى وجاهل وحقير غاية الحقارة ، وكان اسمه سميح الكاتب ولكنى اكتشفت أنه ليس اسمه . وانه اضطر لكى يطلق على نفسه صفة الكاتب ان يغير شهادة ميلاده ، وكان يكتب قصصا خرافية على شاكلة قصص طرزان ، وكان مغرورا الى الحد الذى تصور نفسه فيه اعظم كاتب انجبته مصر ، وكان جاهلا الى الحد الذى لم يستطع فيه ان يكتشف عظمة نجيب محفوظ ، مفضلا عليه هلفوت مثله اسمه امين حب الرمان !

ولقد ظل امين هذا متصورا لفترة طويلة من الزمان انه انبغ ما أنجبت مصر من الكتاب حتى قرأت خبرا ذات مرة عن انتحاره ، ثم فوجئت به بلحمه ودمه يقتحم على مكتبى فى احدى دور الصحف ، وعرفت انه لم ينتحر . ولكنه هدد فقط بالانتحار لضيق ذات اليد ، ثم طلب منى أن أجمع له من المحررين زملائى عشرة جنيهات اعانة ، وهددنى بانه سينتحر اذا لم يحصل على هذه النقود !

شيء آخر جعلني افر من دار الهلال ، فقد ارادوا تطعيم الدار بدم جديد من الشباب يتولى المسئولية فى مجلة جديدة . واختاروا فعلا أحد الشبان الذين دخلوا الدار مع فوج المحررين البائسين الذى كنت أنا احد افراده ، وكان المحرر الذى وقع الاختيار عليه ليكون أول مدير تحرير للمجلة الجديدة يدعى سمير كان أكثرنا وسامة وأكثرنا أناقة وأشدنا جهلا . . وأغرب شيء ان هذا الدم الجديد لم يكن جديدا على الاطلاق ، ولكنه كان أكثر فسادا من الدم القديم . . فلقد حول المجلة الى بورصة للسمسرة وجعل صفحاتها معروضة للبيع والايجار . . وقام فترة توليه مسئولية التحرير التى امتدت زمنا طويلا فى منزل أحد المطربين المشهورين بالبلاهة والغباء .

وكان يوم اختيار سمير . هو آخر أيامى فى دار الهلال . فلقد اكتشفت انى لكى أشق طريقى فى الدار فلابد أن أكون من طراز سمير ولما كنت عكسه تماما ، فقد كان المستقبل شاقا أمامى ، وان على أن أهجر الدار قبل فوات الأوان ، ولقد هجرتها فعلا . . ولكن إلى أين ؟ كان البحث عن مكان آخر هو مشكلة حياتى ! كان فى السوق عدة جرائد ومجلات صغيرة مثل الحوادث والخبر والصباح والغريب والشباب ، ولكنها جميعا كانت مفلسة وكانت لا تدفع نقودا لاحد . وكانت هناك الجرائد اليومية الكبرى ، ودخولها أصعب من دخول الجنة ، ثمة مجلة أخرى كانت فى السوق وكانت تتأرجح بين الانتشار وقلة التوزيع وكانت وفدية يشرف عليها أحد نواب الوفد وهو فى الوقت نفسه شقيق أكبر مسئول فى الحزب ! وكانت المجلة تستكتب عددا من كبار الكتاب مثل طه حسين والدكتور مندور وسلامة موسى وعزيز أحمد فهمى . وكان يعمل فيها مجموعة من الشباب الناضجين وعدد من الصحفيين القدامى وكانت تصدر مجلة أسبوعية أدبية يتولى رئاسة تحريرها الدكتور ابراهيم ناجى ويعاونه عدد من الأدباء الشبان سيحتلون فيها بعد صدارة الحياة الأدبية والفنية بعد ذلك . ولقد اخترت هذه المجلة بعد تفكير شديد ولعدة أسباب . أولا لانها المجلة الوحيدة التى يمكن العمل فيها والتى يمكن فى الوقت نفسه الحصول منها على بعض الجنيهات كل شهر . وثانيا لان رئيس التحرير كان صديقى ، وكان رجلا طيبا وخدوما واستطاع ان يحتفظ بنقائه وسط غابة الصحافة الشريرة . . كان قاسم جودة هو رئيس التحرير ، وكان قاسم فى بداية حياته صحفيا لامعا وشابا وفديا متحمسا ، ثم انشق على الوفد مع مكرم عبيد واشترك فى وضع الكتاب الاسود ، وهو موقف خاطىء دفع مستقبله ثمنا له . فلقد كان حزب الوفد حزبا شعبيا وجماهيريا ومناضلا ضد الاستعمار وضد الطغاة من أسرة محمد على ، وكان أيضا حزبا فاسدا ومنخورا من الداخل ، ولكن كان ورغم ذلك من أعظم الاحزاب الموجودة ، وأشدها صلابة وأكثرها التصاقا بالجماهير وتعبيرا عنها .

وكان الكتاب الأسود صورة صادقة لفساد الوفد ولكنه كان لمصلحة من هم أكثر فسادا ، وكان يخدم فى النهاية مصالح الاستعمار والقصر ! ولقد كان مكرم عبيد رجلا صادقا ولكنه كان رجلا منفعلا ، ولقد استطاع القصر وبطانته التأثير عليه فى لحظة انفعال فخرج على الوفد محاولا طعنه بشدة ، ولعله أفاق بعد ذلك بسنوات ليجد نفسه وحيدا وقد خسر أكبر سند له فى حزب الوفد ، واكتشف انه وقع فريسة فى يد الملك وأحزاب الاقلية ، ولعله أراد أن يكفر عن خطيئته بالعودة الى حزب الوفد ، ولكن الوفد كان لا يرحم من يخرج عليه ، ولا يقبل بين صفوفه مرة أخرى من يطعنه فى ظهره . وكان الوفد هو الشعب كله ، ولكن بلا تنظيم ولا جهاز يحرك قلبه.ولقد ظل سنوات طويلة ينبض بالحرارة ولكن دون حركة ، ورغم ضعفه ، وشيخوخته فقد ظل هو الممثل الطبيعى والحقيقى للشعب المصرى الى أن قامت الثورة ، وكل الذين خرجوا عليه ذهبوا الى النسيان وكنسهم التاريخ فى ترابه.ولعل قاسم جودة قد أفاق لنفسه هو الآخر ، فعاد إلى حزب الوفد ولكن من الباب الخلفى وكانت مجلة النداء هى الباب الخلفى الذى دخل منه قاسم !

وعندما ذهبت اليه فى قهوة الانجلو أطلب عملا استقبلنى بحفاوة وصافحنى وطلب لى زجاجة بيرة وجلس يسألنى عن أحوالى ، وحكيت له ما أعانيه فى دار الهلال ، وما جرى فيها من مآس ورسم على شفتيه علامة ازدراء كبرى وقال وقد اكتسى وجهه بحمرة فاقعة :

تعرف . . الدار دى مش بتاعة صحافة . . دى كان لازم تكون محل خردوات زى محل عمر أفندى .

ثم طيب خاطرى ووعدنى بالبحث عن عمل لى فى مجلة النداء فى أقرب فرصة . وطلب منى ان أمر عليه مرة أخرى فى القريب وهكذا اضطررت الى البقاء فى دار الهلال فترة أخرى فى انتظار ان يحقق قاسم جودة وعده ، وفى خلال تلك الأيام التى قضيتها فى دار الهلال انتظر ، تمردت على المحررين الذين اكتب لهم وطلبت رفع السعر الى الضعف ، فوافق الاستاذ صديق المؤلف الفرارجى ، ورفض الاستاذ حلمى لضيق ذات اليد ، ولكنه لكى يغرينى على التعامل معه دعانى الى الغداء عنده فى المنزل . وكان يسكن فى حى طولون ، وفى حارة ضيقة تقع على دحديرة خلف المسجد ، وكان البيت قديما تفوح منه روائح عطنة ، وتتزاحم البيوت فى الحارة وتتشابك ويتداخل بعضها فى بعض ، حتى أنى كنت اسمع الجيران يتكلمون فى البيت الرابع ، وعندما أصبحنا داخل الشقة انشغل حلمى باعداد طعام الغداء ، وبعد أن انتهينا من الطعام نهض ليعد لنا الشاى ،

ثم فتح الباب وراح ينادى بصوت مزعج ، وسرعان ما لبى نداءه صوت نسائى فيه بحة ولسعة نفذت الى عظامى . ولم تلبث صاحبة الصوت أن اقتحمت علينا الشقة فى جرأة ، وقد ارتدت قميص نوم رخيصا وأرسلت شعرها الاسود الناعم خلف عنقها وعلى كتفيها ، وكانت جميلة رغم فقرها وجسمها يكاد يبرز من القميص الرخيص الذى ترتديه ، وصدرها بارز بشكل مثير ، حتى خيل الى أنه يبرز بعوامل صناعية ، وعندما صافحتها فى أدب غضضت بصرى خجلا ، ولكن حلمى مد يده وعبث فى صدرها أمامى وقال وهو يضحك :

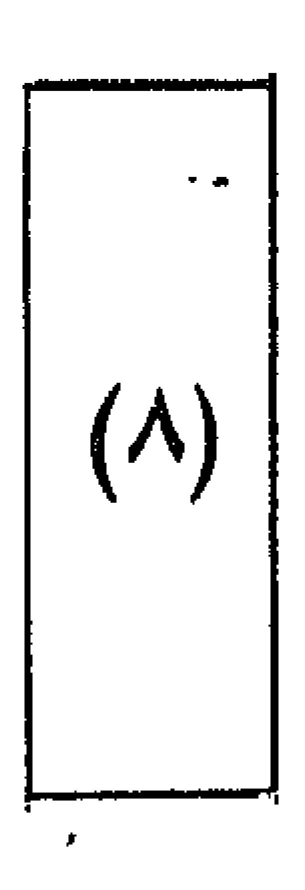
ـ بذمتك مش سعاد تنفع فى السينما ؟
ولما امنت على كلامه ، سالتنى فى لهفة :
ـ صحيح والنبى . .

ثم جلست تحكى لحلمى ما حدث لها بالامس وكان حلمى قد أرسلها بتوصية خاصة الى مخرج صديقه لتعمل كومبارس فى فيلم من الافلام . ولقد اشتغلت طول الليل مقابل جنيه ، وستذهب مرة اخرى مساء الغد ، وستعمل معهم لمدة أسبوع وستلهف عشرة جنيهات كاملة . وقالت لحلمى بعد أن انتهت من قصتها وهى تضربه بيدها على رأسه :

ـ اكتب عنى بقى
وأشار حلمى نحوى وقال :
ـ ده اللى هيكتب عنك ، صحيح هوه صغير كده لكن ده رئيسى فى الشغل .
ونظرت البنت نحوى نظرة فاحصة أربكتنى ، وقالت وهى تتقصع :
ـ رئيسك . . مش معقول ، انت عاوز تهرب منى . . وقال حلمى وهو يقسم بكل المقدسات .
ـ زى ما بقولك كده . احكى له على قصة حياتك وهو هيكتبها ، وهيطلع صورتك فى المجلة .

ونهض حلمى وارتدى ملابسه ، ثم استأذن فى الانصراف وخرج دون وداع ، واكتشفت أننى أصبحت وحيدا مع البنت المستوية فى شقة حلمى ، وأحسست بأننى ارتعشت كلى . . وضربت معى لخمة فلم أعرف كيف أتصرف معها ، وفجأة ، نهضت ، ومددت يدى أصافحها وأستأذن ، ولكن البنت المجربة شهقت وتقصعت ، وضربت صدرها بيدها وقالت :

ـ ايه يادلعدى ، قرفت مننا والا ايه ؟ عامل بيه ؟ دانت اللى يدور عليك يلاقى الست أمك كانت غسالة .



(٨)

٨

كانت البنت مجربة وشجاعة وتتمتع بشخصية قوية أجبرتنى فى النهاية على الجلوس فى ركن الحجرة كاليتيم البائس اعتذر لها بكلمات لا معنى لها . ولم اكن فى الحقيقة اقصد اهانتها ولكنى كنت انجو بنفسى من مواجهة موقف لم أواجهه من قبل .

وجلست البنت بعد أن هدأت ثورتها تحكى لى قصة حياتها وجلست أنا أمامها اتصنع الاهتمام الزائد كمن سيكتب هذه القصة يوما ما واكتشفت وهى تحكى أنها لا تحكى شيئا من الواقع ، ولكنها تفبرك قصة صحفية سينمائية تصلح للشاشة وفى نفس المستوى الذى شاهدته البنت فى أفلام تلك الايام . وقالت أنها أحبت شابا طيارا يسكن فى حارتها ! مع انى أستطيع ان أقسم بأغلظ الايمان أن أحدا من سكان حارتهم لم ير الطيارة فى حياته وان ركوبها بالنسبة لأى واحد منهم حلم لا يتحقق الا بلقاء الجن أو العثور على خاتم سليمان !

المهم ان البنت وقعت فى غرام الولد الطيار والولد الطيار وقع فى غرام البنت وأنهما كانا يقضيان أغلب الوقت فى حديقة الاورمان ، واحيانا فى حديقة الاندلس ، ثم وعدها بالزواج ثم سلبها أعز ما تملك ، ثم يا فرحة ما تمت خطفها الغراب وطار ، وطار الواد الطيار ولم يعد ، سقطت به الطائرة واحترقت ، واحترق أملها الكبير مع الحطام !

ومن لحظتها أقسمت ألا تتزوج . وألا تحب ، فقد مات الذى كانت تحبه ، وهى لذلك تقتحم ميدان العمل ، ولذلك أيضا اختارت السينما لكى تتمكن يوما من انتاج قصة حياتها على الشاشة ! واقترحت فى نهاية القصة أن أكتبها تحت عنوان « حب من غير أمل » ! . .

وقلت لها أنها قصة عظيمة ، وأنها ستحقق نجاحا لاحد له ، وأرباحا طائلة ليس لها نظير ! وقضيت لحظات سعيدة طيبة مع البنت ثم جلست أنتظر حلمى وحيدا فى الشقة ، ولما يئست من حضوره انصرفت تاركا له ورقة بأننى سألقاه فى صباح الغد .

ولقد استولت على الدهشة عندما التقيت بحلمى فى اليوم التالى ولكنه لم يفاتحنى فى شىء مما حدث بالامس ! ولكنه قدم لى موضوعا لأعيد صياغته من جديد ثم استأذن فى الانصراف لانه على موعد هام فى حزب النهضة . . وكان حزب النهضة حزبا نسائيا تديره امرأة قبيحة شمطاء . . وكانت تتخذ من شقة فى شارع دوبريه مقرا للحزب ، وكانت هذه الشقة ملتقى بنات الذوات ورجال السلك السياسى والمشتغلين بالصحافة والأدب والفن ، وكنت قد ترددت على هذا الحزب عدة مرات مع الرجل الطيب ، وتعرفت هناك على بنت اسمها تهانى كان أبوها تاجرا كبيرا فى وكالة البلح . . وكانت يتيمة وحزينة وشاردة على الدوام . . ولقد دعوتها ذات مرة على الغداء وجلست معها على شاطىء النهر ، وخيل لى أنها متيمة وأنها واقعة فى حب العبد لله . فضممتها الى صدرى وطبعت على فمها قبلة . ولكن البنت التى ظننتها متيمة وواقعة فى حبى ، بكت فجأة وعبثا حاولت أن أسكتها دون جدوى ، وعندما قمت معها لتوصيلها الى المنزل غادرت التاكسى دون أن تنظر فى وجهى . ولم أرها بعد ذلك أبدا ، ولم تعد تتردد على حزب نهضة مصر بعد ذلك .

وفى هذا الحزب تعرفت على بنت قبيحة عجفاء مشوهة كانت طالبة فى احدى الكليات . وقد ظلت طالبة لمدة عشرة أعوام ، وقد وقع فى حبها اثنان من أصدقائى وكان أحدهما خياليا الى حد بعيد ، وكان الآخر عكسه تماما . ولذلك فاز الرجل الآخر بالبنت المشوهة ، وأثرت هذه الحادثة على قلب الرجل الحالم ، ولعلها لا تزال تؤثر فيه حتى الآن .

ولقد عرفت البنت العجفاء أكثر شبان مصر وأكثر رجالها . وألقت بنفسها فى أحضان أجيال متعاقبة . ولذلك ستجد فى دفتر قلبها توقيعات بعض الشيوخ وبعض الرجال وبعض الشبان وبعض الصبيان أيضا . ولقد كنت أعجب كيف استطاعت بنت شكلها مثل شكلى وجسمها فى حجم جسم ولد صايع يتسكع فى ميدان الجيزة ، كيف استطاعت مثل هذه البنت أن تحصل على كل هؤلاء المعجبين !؟

ولقد ناضلت طويلا داخل هذا الحزب حتى وقعت ذات مرة فى امرأة مناضلة من مناضلات الحزب ، كانت فى الاربعين من عمرها ولكنها كانت تبدو أصغر سنا ، وكانت جميلة حقا وخفيفة الدم الى درجة تجعل من يراها مرة لا يستطيع أن ينساها أبدا .

وكانت متزوجة أكثر من مرة ولكن عندما عرفتها كانت وحيدة ، وكانت قد هجرت زوجها الاخير منذ شهر واحد . وحكمة الله أن جميع أزواجها كانوا من العجائز الاثرياء ، ولقد خرجت من كل صفقة زواج بربح مادى كبير ،

فأصبحت هى الاخرى من كبار الاثرياء . وكان لها نفوذ كبير فى دوائر الحزب ، فقد كانت تمده بالمساعدات المادية . . وكانت تقيم الولائم لعضواته ، وهى ولائم كانت تجمع بين الكرم والترف . وكانت هذه الحفلات السياسية الهامة فرصة للتعارف بين الجنسين !

وذات حفلة كنت أتوسط حلقة وكانت السيدة صاحبة البيت تجلس فى ركن قريب ، عندما أصدرت فتوى خلاصتها أن المرأة تفقد سحرها بعد سن الخامسة والعشرين ، وكان رأيا فجا من شاب صغير عديم التجربة والخبرة ، ولكن المرأة الثرية المجربة أخذت المسألة مأخذ الجد فاقتربت منى وزجرتنى بنظرة حادة ثم تجاهلتنى بقية السهرة وقررت أنا أن أختفى من دار الحزب ، ومن حفلات السيدة الثرية . ولكنها التقت بى مصادفة بعد شهر ، وسألتنى عن سر غيابى وأعطتنى رقم تليفونها وعندما اتصلت بها دعتنى الى منزلها ، وسألتها فى سذاجة .

ـ هوه فيه حفلة النهاردة ؟

وأجابت هى بالايجاب ووعدتها بتلبية الدعوة . وحلقت شعرى الذى كان يغطى قفاى كالخنافس . ولمعت الحذاء مرتين وحرصت على أن أقترض ربطة عنق ملائمة . وتوجهت الى الحفلة وفى نيتى أن اقع على صيد ثمين يعوضنى جفاف الايام التى مضت منى !

ولم أكتشف أنه لا حفلة هناك ولا يحزنون حتى بعد أن دخلت المنزل ، وجلست وحيدا فى حجرة الصالون أنتظر قدوم الست المضيفة ، وعندما حضرت غندورة كالعهد بها ، رائعة الجمال كأنها تمثال فى متحف . . سألتها عن سر تأخر الضيوف فقالت فى بساطة :

ـ مفيش ضيوف غيرك الليلة . .

وشعرت عندئذ أننى على أبواب مغامرة لذيذة ، وأننى مقبل على القيام بدور لم يسبق لى القيام به من قبل !

وجلست أمامى تصب خمرا فى كأس وهى فى ثوب شفاف يكشف عن مفاتنها وراحت تتحدث حديثا فياضا فى السياسة والادب والعلم وسرعان ما طردت الخاطر السيىء الذى راودنى وشرعت فى الحديث بطلاقة ورحت أرغى كأننى بالع راديو فى أشياء شتى . ولكنها فجأة ضحكت وجذبتنى من شعرى نحوها وانحنت فقبلتنى وقالت وهى تضحك .

ـ دمك خفيف يا مضروب .

وانتهزت الفرصة كأى ساذج وجذبتها نحوى أنا الآخر ، ورحنا نتبادل القبلات والعناق ! ولما كنت وقتئذ فى العشرين وهى فى الاربعين فقد كنت أصدق منها فى التعبير عما يجيش بصدرى ، وكانت هى أقدر منى على قيادة نفسها بحكمة وحنكة ومعلمة ليس لها نظير . وعندما هممت بها ردتنى فى لطف . . ثم

ردتنى فى عنف . وانكسفت كما بنت بكر فاجأها شاب عابث فى الطريق . . واعتذرت لها عن سوء سلوكى وقلة أدبى وفساد ظنى . وقبلت الاعتذار على الفور ثم فتحت حديثا آخر جادا غاية الجد ، ودخلت أنا الآخر فى موجة الجد التى شملتها ولكنها بعد قليل ضحكت ضحكة أشعلتنى ثم مدت يدها وقرصتنى ومددت يدى أنا الاخر وبادلتها القرص ، ثم احتضنتها بشدة وقبلتها كالمجنون ، ثم هممت بها ، ولكنها مرة أخرى ردتنى فى لطف ثم ردتنى فى عنف ، ثم أنبتنى بشدة على مسلكى المتوحش . . واعتذرت لها مرة أخرى وجلست مكسوفا كتلميذ راسب عدة أعوام فى مادة واحدة ! وقبلت السيدة الكريمة اعتذارى ثم راحت تصب لى كأسا آخر ، ومع الكأس راحت تتحدث فى السياسة .

وتكرر المشهد بعد ذلك اكثر من مرة ، تبدأ هى بالمناغشة ثم أبادلها ثم أندفع أكثر ثم أقفز محاولا الوصول الى آخر الشوط . . ثم تنهرنى بشدة وتنهانى بعنف ثم أجلس مكسوفا وأعتذر . . وحتى الفجر كنت قد اعتذرت عشرين مرة ، وأدركت أننى لعبة الست الكريمة تلك الليلة ، وأنها ترد على رأيى بأسلوب عملى لكى أتعلم الادب فى الحديث فى المستقبل .

كان الفجر على الابواب عندما غادرت الفيلا سكران حزينا شديد الهم ، مكسوفا اكاد أطلب من الارض أن تنشق لتبتلعنى وتخفينى بعيدا عن الانظار ! ولقد ظللت أعواما طويلة بعد ذلك أغض من بصرى كلما واجهتها فى أى مكان ، ثم تحاشيت لقاءها بعد ذلك ، ولم ينقذنى منها الا اختفاؤها هى نفسها من الحياة العامة .

ولكن الدرس الذى علمتنى أياه كان رهيبا وقاسيا على نفسى ، ولقد أثر فى نفسى الى حد أننى جبنت عدة سنوات عن أن أخطو الخطوة الاولى مع أى امرأة . وفقدت الثقة بنفسى الى حد انى كنت أخشى مغازلة أى امرأة ولو كانت خدامة خشية ان ترفضنى ، ولم تضعف المرأة الخبيثة ثقتى بنفسى بالنسبة لها فقط بل اننى كنت اخشى النظر فى عينى اى سيدة فى حزب النهضة فقد كنت اعتقد انها روت قصتى لكل من تعرفهم !

وعدت الى دار الهلال مهموما قلقا أريد أن أهرب من الدار ومن القاهرة كلها ، وخطر لى أن أغادر مصر كلها على ظهر مركب وفعلا رحت أسأل كل من ألقاه عن أسلوب العمل فى المراكب ! وهل أصلح أنا للعمل فى المراكب وخصوصا وأننى معتل الصحة ؟ وهل يوجد على ظهر المراكب عمل خفيف لائق ؟ ثم تخليت عن هذه الفكرة عندما استطعت أن أمسح من ذاكرتى أحداث تلك الليلة الغريبة .

ولكن حلمى لم يقطع صلته بحزب النهضة كما أنه كان على علاقات وثيقة ومتينة بكافة الاحزاب النسائية فى مصر وكانت هذه الاحزاب هى المنجم الخصب الذى يحصل منه حلمى على المواد الخام لسهرات الشاليه الذى يقع فوق الربوة عند الهرم . . وكانت بعض سيدات السياسة المصرية يشعرن حقا بالسعادة لأنهن سيقضين السهرة مع بعض رؤساء التحرير والمحررين المسئولين فى صحف دار الهلال !

ولقد طلبت من حلمى أن يصحبنى معه مرة فى احدى هذه السهرات ، ولكنه فتح فمه ونظر نحوى بدهشة وكأننى مجنون . . وقال وهو يمسكنى من كتفى ويهزنى بشدة . .

ـ أنت عاوز تخرب بيتى ، دا رحمى بك لو شافك هيرفدنى ، دي قعدات خاصة ومقفولة . دا رحمى بك لو عرف انى بقولك يرفدنى . . يا خبر أسود ، دا أنت باين عليك مجنون .

ولم يدرك حلمى انى لم اكن أعرف حقيقة ما يدور فى الشالية منه وحده . لقد كنت أعرف الحقيقة كاملة من أكثر من مصدر ، كان حلمى حقا هو أهم مصدر ، ولكن كانت هناك مصادر أخرى غيره ! وكانت أخبار هذه السهرات منتشرة فى المدينة فى الوقت الذى كان رحمى بك يظن فيه أنها جلسات مقفولة وخاصة .

وفى هذه السهرات كان رحمى بك يلعب القمار مع شلة المحررين أصدقائه . . وكان هؤلاء يتعمدون الخسارة ليكسب ، وكانت هذه الخسارة بمثابة رشوة لرحمى بك لكى يرضى ، ولذلك وصلت مرتبات بعض هؤلاء المحررين الى مائتى جنيه فى الشهر ، وهو مبلغ يفوق ستمائة جنيه من عملة هذه الايام .
ولقد بلغت بى السذاجة حدا جعلنى أحاول الثورة ضد نظام العمل فى دار الهلال وفعلا فاتحت عددا من المحررين المضطهدين بضرورة رفع أصواتنا بالشكوى من نظام العمل فى الدار وطالبت بأن يكون هدفنا الغاء نظام القطعة ووضع مرتبات ثابتة حتى لا يكون هناك مجال لاى تلاعب ، وللقضاء على نفوذ رؤساء التحرير ومديرى التحرير ولقطع الطريق على الرشوة والمحسوبية .

واتخذت من مقهى فى الجيزة مكانا للقاء واعداد الثورة المنتظرة ، وهجم على المقهى عدد من المحررين لم أكن انتظر منهم استجابة لهذا العمل الذى ننوى القيام به بالمرة ، وظننت انى قطعت شوطا بعيدا فى سبيل تحقيق الاحلام ، وفى هذه الجلسات التى كنت أعقدها كل مساء فى القهوة قلت كل ما اعرفه مما يدور فى الشالية ، والكرافتات التى طلبها منى صديق رئيس التحرير والموضوعات التى أكتبها باسم ميخائيل وحلمى . وبدلا من أن تكون هذه الاسرار والاخبار وقودا

للثورة المنتظرة اكتشفت أن أسرارى كلها واخبارى كلها تصل الى رحمى بك أولا بأول .. وأنه يعلم خطواتنا كل ليلة بدقة اكثر من الدقة التى يعلمها بعض المشتركين فى الثورة ..

أغرب شىء ان السذاجة بلغت بنا حدا لم نكتشف معه أن بعض هؤلاء الذين أخذوا يترددون على المقهى ويحضرون جلساتنا ويشتركون فى المناقشات معنا ، كانوا من بطانة رحمى بك .. وكانوا من سماسرته .. وانهم من جلسائه كل ليلة فى الشالية ، ومن المشتركين معه فى الحوار السياسى الذى يدور كل ليلة مع بعض سيدات السياسة المصرية ! ولكن هكذا شاءت الاقدار لنا .. أو ان شئتم الدقة هكذا شاءت غفلتنا وسذاجتنا وعدم خبرتنا بالحياة وبالناس !

وذات صباح ، فوجئت بالبواب يمنعنى من دخول الدار . واكتشفت ان على الباب ورقة معلقة من الادارة تعلن فيها أنه ممنوع دخول غير المحررين المدونين فى الكشوف الرسمية . ودخلت فى حوار مع البواب ثم فى عراك .. أصررت على الدخول لأجمع اشيائى التى فى الدار ، رغم أنه لم يكن لى شىء فى الداخل على الاطلاق .. ولقد سمحوا لى بالدخول مع أحد الموظفين لأجمع حاجياتى المزعومة . ولما لم يكن لى أى شىء هناك ، فقد اتهمت الدار بالسرقة ، واشعت جوا من الصخب والضجيج فى أنحاء الدار .. وانتهى صخبى بالخروج مطرودا فى صحبة الموظف حتى الباب .

وتذكرت بعد أيام وانا جالس على المقهى فى الجيزة وعد قاسم جودة .. فقمت اسعى الى مجلة النداء .. واستقبلنى قاسم بحفاوة .. وقال وهو يهز ذراعى فى حماس :

- انت فين ياراجل ، دنا بادور عليك ، خلاص يا عم مبروك المدير وافق أنك تشتغل بمرتب عشرة جنيه فى الشهر .

وكان هذا هو أعظم خبر سمعته فى حياتى .. هأنذا بعد تعب شديد أصبح لى مرتب ثابت ووظيفة معينة .. وهأنذا الآن استطيع أن أكتب فى هدوء وأن أنشر على مهل ، وأن أبذل أقصى جهدى لكى أرد لقاسم جوده جميله الذى يطوق عنقى ، وان اثبت للجميع أن موقف قاسم منى لم يكن مجاملة وانما لاننى استحق هذا واكثر منه بكثير !

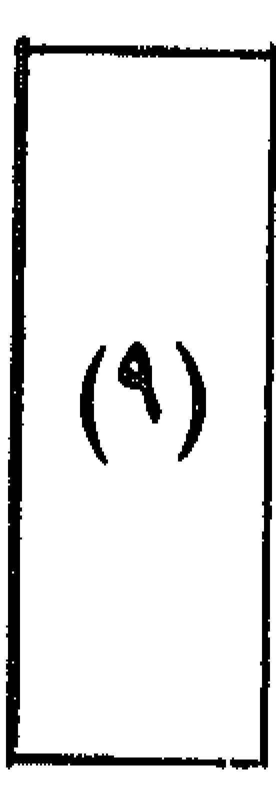
وجاءنى رجل عجوز من محررى المجلة القدامى ونصحنى بأن اتجه الى الحصول على الاخبار لانها الصحافة الحقيقية ، وقال دعك من كتابة الموضوعات انها لا تضمن العيش حتى لأكبر الادباء .. وضرب أمثلة عديدة بابراهيم عبدالقادر المازنى والشيخ عبدالعزيز البشرى والدكتور زكى مبارك . وقال الرجل العجوز وهو ينصحنى .. الكاتب كالفراش كلاهما يمكن الاستغناء عنه فى أى

لحظة . ثم نهض واتجه الى مكتب آخر امامى وجلس وبسمل وحمد الله ، ثم اخرج أوراقا بيضاء من مظروف كان يحمله تحت ابطه . . ثم انهمك فى الكتابة ولكن بصعوبة بدت من خلال توقفه الطويل احيانا . . وكان يلعق شفتيه خلال هذه الفترات ويضغط على جبهته بيده ، ويخبط على المكتب خبطا شديدا . . وبعد ساعات نهضت من مكانى واقتربت منه ، والقيت نظرة على الورق الذى أمامه . . كانت صفحة واحدة مكتوبة وتحت عنوان كبير . . وأسلوب مثل اسلوب تلاميذ المدارس . . وعندما اكتشف وجودى فوق رأسه ، نظر نحوى ثم نظر نحو الورقة التى أمامه وقال وهو يهز رأسه :

ـ أهى دى الكتابة ، دى الصحافة اللى تأكل عيش . .

وهززت رأسى موافقا وانصرفت .




(٩)

٩

كانت مجلة النداء أشبه بسوق الثلاثاء ، كل شيء فيها معروض للقراء . . كل شيء وكل لون وكل صنف ، وكانت مرآة صادقة لحزب الوفد ، وكان حزب الوفد قد بلغ حدا من القوة جعل كل الشعب فيه ، وكان أيضا قد بلغ حدا من الضعف جعل كل المتناقضات داخله . .

وعلى صفحات النداء مثلا كان ينشر سلامة موسى مقالاته عن العلم ، وكان مصطفى محمد فهمي ينشر مقالاته فى عالم الخرافة والهيلولة التى على قفا الشفق . وكان مصطفى محمد فهمي نموذجا حيا على فساد العصر . كان عندما التقيت به حطام انسان مدمن على كل أنواع الحشيش والافيون . وكان يأكل الحشيش علنا وكان يدعى أن بلسانه مرضا خبيثا لا يشفيه إلا المخدرات . وكان قبيح الوجه الى درجة لا تطاق ، شعر رأسه تساقط منذ زمن بعيد ، وفمه المفتوح دائما يشبه قبرا مهجورا نبشته الذئاب .

وقد تتضح أبعاد المأساة أمام القارىء اذا علم ان مصطفى محمد فهمي كان منذ عشرين عاما سابقة على ذلك العام الذى التقينا فيه ، كان ألمع وأجمل شاب فى مصر . وكان كاتبا فريدا من نوعه . وكان صاحب أسلوب لاذع للغاية ، ساخر غاية السخرية وكان عدوا للوفد . شن حملة هوجاء ضد الوفد ورئيسه ، جعلت بعض الألاضيش يدبرون له كمينا دخل بسببه السجن . . وكانت التهمة الموجهة له : احراز المخدرات . وخرج مصطفى من السجن شخصا آخر . تحول الكاتب اللامع الساخر العظيم إلى شخص هلامى وعلى باب الله . منظره منظر شحات ، وعقله عقل مجذوب ، وتصرفاته تصرف مدمن أهلكته المخدرات ! وراح يتدحرج شيئا فشيئا حتى وصل الى القاع .

وعندما وصل الى مجلة النداء كان قد سقط من القاع الى شيء يشبه الفضاء ، وراح يدور مع الريح مغمى عليه حتى غادر الدنيا ذات صباح فى حجرة عارية من الاثاث فى زقاق مظلم بارد كئيب . ولحظة صعود روحه الى خالقها لم يكن معه فى الحجرة سوى قطة مريضة كانت تربطه بها صلة صداقة عميقة امتدت عدة سنوات .

وكان سلامة عيسى نموذجا اخر لفساد العصر ولكن على نحو آخر . كان واسع الثقافة ، وصاحب موقف اجتماعى ، وكان شديد الثورة على كل القيم البالية والمقدسات القديمة ، ولكنه كان يكتب فى النداء أى كلام ، ويقبل أى معاملة نظير حفنة جنيهات لا تزيد على عشرة ، وكان هو فى غنى عنها تماما اذ كان ميسور الحال قليل النفقات ، لا يدخن ولا يسهر ولا يشرب الخمر .

ولقد تعجبت من مسلكه هذا وتعجبت أكثر لهذا الرجل المثقف الى هذا الحد ، الذى كان فى أعماق أعماقه متعصبا الى هذا الحد .

ولعل هذا نفسه هو الذى دفعه فى نهاية حياته الى العمل فى دار صحيفة كبرى كان يناصبها العداء ويهاجم أفكارها بشدة ، ولعله نفس الموقف الذى دعاه فى النهاية الى أن يكتب كلاما كان يرفضه ويحاربه من قبل .

والى جانب هؤلاء الاعلام كان يعمل عشرات الأرزقية هم فى الاصل محاسيب بعض الشيوخ والنواب المحترفين ، وكان يعمل أيضا عشرات من الصحفيين المحترفين يكتبون ما يطلب اليهم بالاجر ولم يكن لهؤلاء أدنى اهتمام بشىء ، وكان كل همهم تحقيق مصالح شخصية على حساب المجلة .

وكان فيها أيضا شباب يتفجرون بالحماس والنشاط . وفى أدمغتهم تدور أفكار جديدة ، ولديهم طموح من نوع خاص .

كانت جريدة النداء اذن عالما خاصا مستقلا ، ولم يكن لها نظير بين دور الصحف الاخرى ، وكانت شيئا وسطا بين دار الهلال ومسامرات الجيب . فهنا محررون محترفون يعملون بالاجر ، وهنا أيضا صياع وعلى باب الكريم ، وهنا أساتذة وأصحاب رأى علموا الاجيال المتعاقبة ، وهنا كل شىء وأى شىء يحتفظ بالشكل أما الجوهر فلا شىء يهم .

الجريدة تظهر كل أسبوع كالمعتاد ، والمحررون يعملون كل يوم كالمعتاد ، ومع ذلك فليس للمجلة قارىء واحد مواظب ، وانما تقع فى أيدى القراء مصادفة وتمضى بهم ولا تؤثر فيهم .

ورغم أننى نشرت فيها عشرات المقالات خلال شهر واحد ، الا أننى لم اسمع من احد على الاطلاق كلمة استحسان واحدة ، أو كلمة استهجان واحدة . أغرب شىء أن المحررين انفسهم لم يكونوا من قراء المجلة ، وكان يوم الصدور بالنسبة لهم يوم عيد لا لشىء الا لانه يوم الاجازة !

وكان أمام باب المجلة بقال نشيط كل بضاعته جبنة وطرشى وعيش بلدى ، وكانت مرتبات المحررين تذهب كلها الى هذا البقال ، فقد كان أغلب المحررين عزابا ولم يكن لهم بيوت وكان كل طعامهم من عند البقال ، ولما كانت الجبنة والطرشى تقطع القلب وتحتاج إلى شاى تقيل ليقتل سمسها فقد توسع البقال

فأصبح بقالا وقهوجيا ، ولما كان الشاى بعد الجبنة يحتاج الى تدخين سجاير ، فقد توسع البقال فأصبح تاجر سجاير أيضا . .

من خلال الجبنة والشاى والسجاير استطاع البقال ان يستولى على مرتبات المحررين كل شهر ، واصبح التعامل بينه وبين الادارة مباشرة بعد ان تكررت مماطلة المحررين وزوغانهم أول الشهر ، واستطاع أن يصل الى اتفاق مع الادارة للحصول على الديون بشرط ان يقدم أوراقا بامضاء المحرر .

ولقد تطورت تجارة السيد البقال تطورا خطيرا بعد ذلك فأصبح يبيع الحشيش والافيون . واغلب الاوراق الممضاة من المحررين التى قدمها البقال للادارة كانت ثمنا لهذه الاصناف الممنوعة .

ولكن أغرب شيء وقتها خلال الشهر الذى قضيته فى المجلة هو ان محررا طيب القلب استطاع العثور على حجرة مهجورة فوق سطوح المجلة ، واستطاع الحصول على سرير سفرى صغير واحتل الحجرة دون علم احد ، واصبح يبيت فى المجلة كل ليلة وكان يمكنه الاستمرار دون أن يدرى احد ، لولا حادثة وقعت ذات مساء عندما حضر ذات ليلة الى المجلة ومعه فتاة كومبارس ، وسمح له البواب باصطحابها ، ثم اغلق البوابة وصعد هو الاخر الى السطح معللا النفس بقضاء سهرة لطيفة . غير أن المحرر رفض ان يشارك البواب فى قضاء السهرة ، ونهره بشدة وطرده شر طردة .

وفى الصباح كان خبر الحجرة التى فوق السطوح قد بلغ صاحب المجلة . وثار صاحب المجلة بشدة وهدد المحرر بالطرد ثم أنذره فى النهاية بأن يدفع أجر الحجرة وبأثر رجعى أو يستقيل فورا من الجريدة .

وقبل المحرر الاقتراح الاول ودفع اجر الحجرة وأقام فيها بعد ذلك واصبح ساكنا وله شأن وأصبح من حقه دعوة من يشاء الى الحجرة دون ان يكون للبواب حق مشاركته السهرة أو الاقتراب من الحجرة فى أى وقت !

وفجأة وقبل نهاية الشهر بقليل جاء الى الجريدة رجل فلاح وموظف بالحكومة ، وعلى صدغه عصفورة ناصحة وتكاد تهم بالطيران ، جاء الرجل ليتولى منصب مدير عام المجلة ، وأعلنت الطوارىء فى الحال ، فقد أشيع أنه جاء ومعه مشروع كامل للتنظيم .

وعندما جاء أول الشهر نزلت ووقفت أمام أحمد عبدالعزيز صراف المجلة ، وكان رجلا باردا كسمكة ميته ، وراح الرجل يتفرسنى كأننى عجيبة من مخلوقات الرب انقرضت منذ زمن بعيد . وهز أحمد عبدالعزيز رأسه عدة مرات واعلن الخبر الذى لم اكن اتوقعه أبدا . اسمى ليس فى كشف المحررين ، بمعنى اخر انا

لازلت على باب الكريم وبلا مرتب ، وحسبت الامر مجرد مزاح ، ولكنى تأكدت ان الامر جد كل الجد عندما التقيت بالمرحوم قاسم جودة وبدا قاسم بائسا ويائسا وغير ذى نفوذ .

وخرجت من مكتب قاسم لا أكاد ارى شبرا واحدا امامى ، ورغم أننى لم اكن قد تجاوزت العشرين من العمر ، الا اننى رحت أجر رجلى جرا كأننى قفزت الى سن المائة فجأة ، وأحسست بالدموع تنزلق من عيونى الى جوفى وباننى اختنق ، ورحت أمشى على غير هدى ولم انتبه الا وأنا على كوبرى قصر النيل وهواء مارس البارد المنعش اللذيذ يضرب وجهى بقسوة .

كانت المشكلة التى أواجهها اكبر من أن تحل . . ففى خلال الشهر الذى مضى أحسست بزهو لم أحس به من قبل . ولاول مرة فى حياتى اشعر بنوع من الاستقرار لم اشعر به فى حياتى . كنت قد اصبحت محررا وبعشرة جنيهات فى الشهر ، واتاح لى هذا المرتب الوهمى حرية أوسع فى التعامل مع الناس . وعلى الطريق الموصل الى بيتى اقترضت من البقال ومن القهوجى ومن دكان السجاير . وكان الجميع فى انتظارى أول يوم فى الشهر ، وكانوا على أحر من الجمر لعدة أسباب . . أولها ـ للحصول على ما فى ذمتى من نقود .

والسبب الثانى ـ أن احدا منهم لم يكن يثق فى اننى قد استوظفت فعلا ، واننى يوما ما سأقبض بأصابع يدى الخمسة على عشرة جنيهات مرة واحدة .

ولقد تحقق ظنهم فعلا ، اتضح أنهم كانوا أعلم منى بمهنة الصحافة ، وأدرى منى بالاحوال فى مجلة النداء .

ولازلت أذكر ما حدث فى ذلك اليوم المهبب بالتفصيل . ذهبت كعابى الى حديقة الأورمان، واقتحمتها فجأة . رغم أننى لم اكن من هواة الحدائق ولم يسبق لى الذهاب الى أى حديقة الا لغرض أكل البلح أو معاكسة فتيات المدارس ، واخترت مكانا تحت شجرة وجلست كالعاشق الولهان أحدق، فى لا شىء وعقلى يعمل ولكن بلا انتظام كأنه ساعة روسكوف خسرانة ، واحسست فجأة بأننى أحمل عمارة الايموبيليا فوق رأسى ، وأن سيفا ملتهبا يخترق عظام رأسى ويستقر فى مخى ، فى أكثر الاجزاء حساسية من مخى ، وشعرت بأننى أكاد اسقط مغشيا على . كانت الشمس قد مالت الى المغيب عندما استيقظت لأجد نفسى تحت الشجرة وحارس الحديقة يهزنى بعنف لكى انهض وأمضى ، فقد أغلقت الحديقة أبوابها منذ فترة .

والقى الرجل الطيب على مسامعى سؤالا وأنا اتحرك نحو باب الخروج .

هوه انت غريب يا بنى ؟

وهززت رأسى فى فتور وانا أزحف كسلحفاة عجوزة نحو الخارج . ورحت

اتسكع فى شارع مراد فترة قبل ان ازحف من جديد نحو الجيزة . وعلى اقرب كرسى فى قهوة محمد عبدالله جلست وطلبت واحد شاى مظبوط للغاية ، وعندما حضر عم عبده ومعه الشاى وقف أمامى وراح يتفرسنى وعلى فمه ابتسامة ، وقال وهو يهز رأسه برفق :

ـ الشاى ده هتدفعه راخر والا من حساب الشهر الجديد ؟

ووخزتنى كلمة « راخر » فهى تعنى ببساطة أن عم عبده قد أصدر حكما لا يقبل النقض ان فلوس الشهر الماضى ستدفع حتما ، وازعجنى شعور عم عبده الواثق من نفسه ، فهذه الثقة الزائدة عن الحد ستدفعه حتما الى ارتكاب جريمة فى اللحظة التى يكتشف فيها أن ثقته لا مبرر لها ، واننى لا أملك نقودا من أى نوع على الاطلاق .

وجلست أفكر فى وسيلة للهروب من عم عبده ، ثم الهروب من البقال وبتاع السجاير ، فاذا لم أتمكن الا من الهروب من عم عبده ، فمعنى ذلك أن على العبد لله ان يبحث لنفسه عن مأوى ينام فيه تلك الليلة .

وفجأة قطع حبل تفكيرى يد هزت كتفى بعنف . وارتعش بدنى كله فقد ظننت أنه البقال ، وعندما التفت مذعورا وقد رسمت على شفتى ابتسامة نفاق مريضة ، وجدت صديقى الشاعر كمال العسلى أمامى . وكان كمال قد هجر العمل معنا فى مجلة مسامرات الجيب ، ثم زهد الحياة فى المدينة وآثر العودة الى مسقط رأسه فى الصعيد الجوانى ، ومضت عليه سنوات لا نسمع عنه خبرا حتى فوجئت به تلك الليلة ، يقف منتفشا كالديك الرومى ، عليه علامات سرور دفينة ، وهو الذى يبدو مكتئبا على الدوام .

وسألنى كمال عن الاحوال فحكيت ليه باختصار ، ومط شفتيه فى ازدراء وقال بطريقته المشمئزة : لسه الصحافة فيها الوساخات دى • هه .. شىء حقير قوى .

وسألته عن أحواله فقال وهو شديد الانبساط أنا كسبت الجايزة الاولى من مجمع اللغة العربية . ودون أن أسأله ، قال على الفور .. الجائزة ثلثمائة جنيه ..

وسألته فى براءة : وهتقبض الجايزة أمتى ؟

فقال على الفور : أنا قبضتها خلاص !

وهتفت بدون وعى : كذاب !

ولمامط شفتيه احتقارا ..

قلت متحديا : طيب ورينى .

وانتزع كمال رزمة أوراق مالية من فئة العشرة جنيهات ! ووقع قلبى فى قدمى ، ها هو شعار عم سعد بياع العرقسوس يتحقق « فرجه قريب » !

وها هو الفرج يتحقق فعلا ومن حيث لا أحتسب ومن حيث لم أكن أدرى !
وقال كمال : انهض بنا نسهر ليلة من ليالى العمر .
وقلت لكمال : اعطنى عشرة جنيه قبل كل شىء وعندئذ استطيع أن أتحرك .

وناولنى كمال المبلغ واستأذنت عدة دقائق دفعت خلالها ديون البقال وبتاع السجاير ، وعدت مرة أخرى لأدفع لعم عبده ، ثم انطلقت مع كمال العسلى لنقضى أياما من أحلى أيام العمر ، فلقد كنا نملك الشباب والأمل والمستقبل كله ، ولأول مرة كنا نملك مع كل هذه الاشياء المال . ولكن المال الذى كان مع كمال العسلى لم يلبث أن تبخر . وعدنا من جديد نبحث عن عمل ، ولازلت أذكر تلك الليلة الممطرة الموحلة التى سبقت رحيل كمال العسلى الى الصعيد .
كان الوقت شتاء وعاصفة رهيبة تصفع وجه القاهرة بشدة ، وعبثا حاولنا اللجوء الى مكان يحمينا من البرد وبشرط ألا يكلفنا شيئا . ثم تذكرنا فجأة أن زميلا من زملاء مسامرات الجيب قد فتح الله عليه فاشتغل فى جريدة يومية ميتة لم يكن يقرؤها أحد على الاطلاق ، ولم تكن تظهر فى السوق ، ولكنها كانت تطبع مائة نسخة لزوم استهلاك اعضاء الحزب والسفارات الاجنبية ، وكان مغرورا ككل فاشل ، فاستعان بزميلنا اياه مديرا لمكتبه ، مع أن البيه رئيس التحرير نفسه لم يكن فى مكتبه شىء أكثر من المقال الفاشل الذى ينشره كل يوم .
ودخلنا على صديقنا فى الليل وفى البرد ، واستقبلنا فى مكتب فاخر ، وأكثر من مدفأة تنفث الدفء فى أرجاء المكان ، وعلى الباب فراش مستعد ، وطلب لنا الشاى ثم راح يشرح لنا ما خفى من عبقريته ، وما هى العوامل اللازمة للنجاح ؟ ولماذا تتوافر فيه هذه العوامل بينما لا تتوافر فى أحد سواه ؟
وقضينا الليل كله نسمع ولا نعلق . والحق أننا قضينا الليل بطوله نشرب الشاى وندخن السجاير ونستمتع بالدفء .
وفى الفجر غادرت مكتبه الى الشارع ، وغادره كمال العسلى الى الصعيد .
كانت تلك هى آخر ليلة لكمال فى القاهرة قبل أن يغادرها لمدة عامين كاملين ثم يعود من جديد ولكن بعزم جديد وفكر جديد وثقة بالنفس لاحد لها .
فقد كان كمال قد حصل على جائزة الشعر ، وكان ديوانه اسمه « الانداء المحترقة » وقد استغرق الاسم ثلاث ساعات كاملة من وقت اللجنة لكى تتعقب الاصول اللغوية لكلمة الانداء منذ فجر اللغة .
وفعلا ، عدت من جديد الى النداء ولكن بمرتب حقيقى ، ثمانية جنيهات كل شهر . ونصحنى الرجل الفلاح أبوعصفورة الذى هو مدير الادارة أن أنتبه جيدا فى عملى وأن أحصل على مناشت وهو جمع مكسر غير سالم لكلمة مانشيت !

ولقد وعدت بالحصول على مناشت كثيرة ، وضحكت فى سرى من جهله العظيم . لانه لو كان قد اشتغل بالصحافة من قبل ولو لمدة يوم واحد لأدرك أن المنشيت يحصل عليه الصحفى المحترف المدرب مرة كل عدة شهور !

وكانت حرب فلسطين قد هدأت وتوقف صوت الرصاص ، وكفت صرخات الجرحى عندما أصبحت محررا وله مرتب .. ولقد بدأت العمل بسلسلة تحقيقات صحفية عن شهدائنا فى المعارك . وقدمت أكثر هؤلاء الشهداء فى لحظاتهم الاخيرة ، وفى أكثر من عشرين صفحة كاملة وكان عملا صحفيا مجيدا رغم أن أحدا من الناس لم يشعر به . حتى أسر هؤلاء الشهداء أنفسهم لم يشعروا لحظة واحدة أن هناك مجلة سيارة تكتب قصص أبنائهم ! ومع ذلك مضت الحياة هينة لأول مرة ، وشعرت لأول مرة فى حياتى بأننى فعلا قد أصبحت صحفيا . وشعرت أيضا بواجب القيام بدور الصحفى النشيط فى المجتمع ؟! فأسهر حتى الصباح وأنام حتى الظهر ، وأكتب فى المساء ، ثم أنطلق فى الحياة بغير حدود !

وذات مساء هبط فى مطار القاهرة زعيم من زعماء العالم ، وعلم من أعلام الفكر والسياسة فى العصر الحديث ، وقائد لأمة من أكبر أمم أسيا والكرة الارضية .. هبط مطار القاهرة الزعيم نهرو ، ولقد أتيح لى أن ألقاه مصادفة ، وأن أحصل منه على كلام هز مصر كلها هزا وأشعل نار معركة حامية الوطيس بين القصر والوفد . ولكن كيف التقيت به وكيف دار الحديث بين الزعيم الكبير والصحفى الشقى الذى كان منظره يوحى لمن يراه أنه تلميذ عابث أو صبى جرسون فى كافتريا المطار .. !!

انها قصة وقعت فعلا ، ولكنها أغرب من الخيال .

ولقد حدث لى خلال الاسابيع الاولى لعملى المستقر فى الصحافة عدة حوادث هامة للغاية ، سيكون لها أثر بعيد فى نظرتى للامور عامة وللحياة السياسية فى مصر على نحو خاص .. وكانت الحادثة الاولى تتلخص فى أن رجلا تركيا مهروش المخ أبله لا يكاد يفرق بين لاعب الكورة وحمار الوحش ، وصل الى مصر فجأة فى زورق شراعى فى طريقه الى رحلة بحرية حول العالم .. وما أن وصل التركى الابله الى القاهرة ورسا بزورقه على ضفة النيل الغربية بالقرب من كوبرى الجلاء حتى ثارت ضجة هائلة فى المدينة حول الامير الاشقر الوسيم صاحب النظرات الحالمة والذقن المدبب . وتهافتت عليه بنات الطبقة الراقية (!!) حتى أصبح الامير التركى ولا أمير من أمراء المماليك ، دعوات وسهرات وحفلات وحوادث طلاق كل يوم وحوادث انتحار وحوادث هروب من بيت الزوجية .. ثم حط الامير فى النهاية على بيت الامير محمد على رءوف وأصبحت كل جهوده فى دنيا الغرام حكرا للاميرة نسل شاه أجمل وأشهى بنات أسرة محمد على !

ولقد قدر لى أن أرى هذا الامير ذات ليلة من ليالى شهر يونية الحارة حينما دعا سموه الى مؤتمر صحفى على ظهر زورقه ، ولم يكن فى المؤتمر الصحفى سوى محرر آخر مثلي وعشرات من مندوبي الاعلانات جاء كل منهم يسعى على رزقه . وبينما سكت أنا وزميلي الصحفى ، راحت الاسئلة تنهمر على رأس الامير من مندوبي الاعلانات ، وسمو الامير اياه يجيب وقد رسم على شفتيه ضحكة عريضة بلهاء ليس لها مناسبة .

والحق أن الرجل كان تافها غاية التفاهة ، جهولا غاية الجهل ، ولكنه كان فى الوقت نفسه وسيما غاية الوسامة ، جميل الصورة كأنه يوسف الصديق ، مفتونا بنفسه كأنه نجمة سينما عالمية مدللة وكان يتمتع بشارب دوجلاس ، بدا من النظرة الاولى أنه محور حياة صاحبه ، وأنه أهم موهبة يتمتع بها الامير . .

ولقد كانت الاسئلة التى أخذت تنهمر على رأس الامير الهايف أكثر هيافة من سموه ، وكانت كلها من طراز ، هل تنوى سموك مقابلة ملوك العالم ؟ هل تنتهز هذه الفرصة لحل بعض المشاكل العالمية ؟ ما رأى سموك فى مشكلة فلسطين ؟

ولقد أجاب سمو الامير على هذا السؤال بجواب يليق بحجم المشكلة ، قال سمو الامير ونفس الابتسامة البلهاء مرتسمة على وجهه : مشكلة فلسطين بعدين مش تمام ، بعدين لازم مشكلة فلسطين لازم ! وقد أبدى أحد مندوبي الاعلانات اعجابه الشديد بالتصريح الخطير بأن صاح معجبا كأنه من سميعة أم كلثوم ، الله ، الله يا أمير ! فى الوقت الذى انطلقت مني ضحكة مجلجلة رغم أنفى ، وقد انتهت الضحكة بشخرة غير متعمدة ، ولقد تأزم الموقف للغاية ولكن سمو الامير ضحك هو الآخر وشخر ، ثم قال وهو يهز رأسه . . فلسطين . . ها ها ها !

ولقد انتهى المؤتمر الصحفى بعد ساعة ، وانصرف مندوبو الاعلانات بعد أن وقع الامير على أذونات نشر تدفع بعد ذلك . . وانصرفت انا والصحفى الآخر ، ولكنه توقف عند الباب وأستأذن مني لدقائق ، ثم غاب عند الزورق وعاد والضيق يبدو عليه . وراح يزفر بشدة ونحن نتمشى على الشاطىء ، ثم فجأة قال فى غيظ شديد . يلعن أبوالامرا اللى بالشكل ده ! واستطرد دون أن أساله ، قال أمير قال ، دا شحات ولا يسوا ، دنا رجعت له بحسب عنده دم ، ولكن ولا حياة لمن تنادى . . أنا افتكرته هيناولنى ظرف لكن لافيه ظرف ولا حتى جواب .

وعندما سألته عن سر الظرف الذى ينتظره ، قال فى براءة ، ظرف فيه فلوس ، ما هى دى العادة ، لما يكون راجل أمير زى ده لازم يفرق ظروف على الصحفيين ، لكن دا باين عليه شحات ! ولم يكن سموه يبدو عليه فى الحقيقة أنه

شحات ، ولكن كان يبدو عليه أنه نصاب . وانه ولد حلنجى كما الثعبان ، وأنه صايع تركى مغامر ، استطاع أن يركب على اكتاف الطبقة المصرية الراقية (!) وأن يعبث بأجمل بنات تلك الطبقة وأن يتقاضى منهن الحساب !

ولقد كان يوم مغادرته مصر يوما صعب وقفاته كما يقول مطرب الارغول . خرجت مئات من البنات والنساء الى الشاطىء ومناديلهن مبللة بالدموع . . وأغلب الظن أن الامير الصايع ركن الزورق فى ترعة المحمودية واستقل أول سفينة الى اسطنبول ! بعد أن عاش فى مصر عاما كأعوام هارون الرشيد ، وخرج منها بثروة تكفيه بقية العمر .

ولقد أدركت من خلال هذا الحادث البسيط أن الحياة فى مصر عفنة الى الحد الذى سمح لنصاب تركى وسيم أن يبيع فيها الكذب والحب . ولست ادرى حتى هذه اللحظة ما الذى اعجب ستات الزمالك فى هذا التركى الابله ؟ ثقافته أم درايته أم فهمه الواسع العميق ؟ أم خفة دمه ؟ أم لعله الشارب الدوجلاس هو الذى جذب كل هذا العدد الهائل من الستات الراغبات فى البهجة . . والبنات الساعيات الى الفرفشة ، خصوصا اذا كان الرجل المفرفش يتمتع الى جانب موهبة الشنب بموهبة أخرى هى لقب الامير !

أما الحادثة الاخرى فكانت أعجب وأغرب ، فقد تلقيت دعوة من صديق صحفى كان لامعا تلك الايام بأن أتوجه معه الى حفلة شاى فى الخامسة مساء فى مكتب بشارع سليمان باشا ، وقال يشجعنى على الحضور أن على ماهر باشا سيحضر الحفل . ولما كانت ملابسى لم تكن تسمح بحضور حفلة يحضرها رجل صاحب مقام رفيع فقد اعتذرت . . ولكن الصديق الح وأصر على أن أحضر . . وقال يغرينى على الحضور . . ستتعرف على الباشا فى الحفلة وسيفيدك هذا فى عملك الصحفى .

وفعلا ذهبت الى المكان ومعى طوغان فقد كان معزوما هو الآخر . . ولم نجد هناك الا سبعة أشخاص يبدو عليهم جميعا أنهم من الطلبة . . وثلاثة أشخاص فى المعاش ، علمنا بعد ذلك أن أحدهم عضو فى مجلس النواب عن دائرة فى الصعيد . ثم خمسة من محررى الصحف الغلابا أمثالنا . ورغم هذا العدد الضئيل من الحاضرين فقد كانت الموائد عامرة بكل أنواع التورته والجاتوه والفواكه . . ويبدا على الحاضرين جميعا عندما بدأوا فى شرب الشاى أنهم لم يتذوقوا طعاما على الاطلاق منذ أول أمس !

وراح بعضهم يرشف بصوت عال ، وبعضهم يمضغ بطريقة مقززة كأنه طاحونة دبش فوق جبل المقطم ، وفجأة قطع عليهم لذتهم دخول على ماهر فجأة

وترك الجميع الاكل والرشف والزلط جانبا ووقفوا يصفقون للباشا الانيق الذى أرتسمت على محياه تعبيرات صارمة كأنه روميل على أبواب معركة العلمين !

وفجأة قال الباشا يخاطب الحاضرين يا شعب مصر ، لقد دقت ساعة البداية وحانت ساعة العمل ، وأنى أعلن عليكم قيام جبهة مصر ، لتعمل على تطهير البلاد ، ونموها السريع ، واقرار السلام والعدل فى ربوع العالم ! وعليكم (يقصدنا نحن) أن تتمسكوا بمبادىء جبهتكم ، وأن تناضلوا « برضه احنا » نضال الابطال من أجل تحقيق برنامجكم ، وسننتصر باذن الله وبفضل تضحياتكم « احنا أيضا » !

ولما كنت لا أنوى التضحية بأى شىء ! ولأننى كنت احب مصطفى النحاس ولا أحد سواه ، ولأننى كنت أرى أن على ماهر رجل مثل مدينة طنجة ، على الحياد فى كل شىء ، فقد أدركت أننى لست المقصود بكلمة أنتم ، ولذلك نظرت خلفى ، فاذا بالخمسة عشر شخصا الآخرين ينظرون خلفهم بحثا عن هؤلاء الذين سيؤمنون أولا ثم يضحون بعد ذلك ! وخرجت دون أن أهتم بما جرى ، وحسبت الامر كله حفلة شاى وهزار ورجل وزير طيب أطعمنا دون أن يريد منا جزاء ولا شكورا !

ولكن فى صباح اليوم التالى خرجت الصحف اليومية بعناوين بارزة للغاية وعلى عرض الصفحة ، على ماهر يعلن تأليف جبهة مصر ، الجماهير الغفيرة تحضر المؤتمر وتعاهد على ماهر على الالتفاف حول مبادىء الجبهة والتضحية من أجل النصر ! حشود غفيرة ! هل كان بين الخمسة عشر رجلا واحد اسمه حشود وأبوه اسمه غفيرة ! أين هذه الجماهير التى عاهدت والتى ضحت ؟

أغرب شىء أن بعض الجرائد نشرت صورة الباشا وهو يخطب ثم صورة الخمسة عشر رجلا وهم يصفقون ، وعلى هذه الصورة قام حزب جبهة مصر بزعامة على ماهر باشا ، ولكنه قام لينفض ! ولفظ الحزب أنفاسه قبل أن ينتهى على ماهر من إلقاء خطابه الخطير فى الحفل !

هكذا اذن تصور الجرايد ما يجرى فى الحياة للناس . . أمور كلها نصب واحتيال وأحسن من السرقة وكافة شىء يغضب الرحمن .

أما الحادث الثالث فقد هزنى بعنف ، وقلب أمعائى من الداخل كأنه طعام فاسد . ولقد كان بطله صديق صحفى شاب طيب وساذج . وقد همس فى أذنى ذات صباح أنه أصبح مكافحا وطنيا وأنه أصبح عضوا فى منظمة شيوعية أسمها حدتو . . ولقد كنت تلك الايام اسمع عن الشيوعيين فى مصر وأنفر منهم ولكنى كنت معجبا بهم على نحو ما .

وقال صديقى أنه سيتسلم هذا الصباح منشورات تدعو الى الثورة ضد النظام

الملكى ، وأنه سيتولى قيادة منطقة فى وسط القاهرة ، وأنه سيكون مسئولا عن أربع خلايا ، كل خلية مكونة من أربعة أفراد ، وراح يحكى لى عن هدف الثورة القادمة ، وبرنامج المنظمة ، وكفاحها وتاريخها الحافل الطويل !

ولقد اندهشت لهذا التطور المفاجىء الذى طرأ على صديقى ، فلقد كنت اعرفه حق المعرفة ، وكنت أعلم أنه يؤمن فى السياسة بالظهور فى الصور الى جانب الزعماء دون أن يكون مؤمنا بمبادىء هؤلاء الزعماء . وكان بوصلته تبدو دائما خربانة فى بحر السياسة المصرية الهائج المتقلب ، ولذلك كان فاقد الاتجاه الصحيح فى كل الاحيان . . ورغم هذا كله فقد صدقته ، وذهبت معه وأنتظرنا أكثر من ساعة عند باب سينما مترو حتى أقبل فى النهاية شاب أصلع يضع نظارات طبية بشنبر سلك رفيع ويرتدى بدلة قديمة خفيفة رغم الشتاء القارس ، ويتأبط رزمة أوراق ملفوفة بعناية فى جريدة قديمة ، وعندما أصبح فى محاذاة صديقى غمز له بعينه فمضى هذا خلفه بحركة لا ارادية كأنه منوم مغناطيسيا . . وانحرفا معا داخل عطفة فى نهاية شارع سليمان باشا ، ثم سلمه الاوراق ولم يتبادلا كلمة واحدة وافترقا على الفور .

وراح صديقى الذى أصبحت الاوراق فى عهدته يمضى سريعا فى الشارع دون أن يخاطبنى بكلمة . وبدت عليه أهمية مفاجئة كأنه عمرو بن العاص على أبواب مصر ، وعندما حاولت التحدث اليه شخط شخطة عنترية وأمرنى بالصمت . وراح يضرب على غير هدى حتى وصلنا الى ميدان باب اللوق . وركبنا الترام معا ولكن فى صمت وفى مقاعد متباعدة . . وكان صديقى ينظر باهتمام شديد الى كل راكب جديد يصعد الترام ثم يغمز لى بعينه مؤكدا لى عن طريق الاشارة أنه مخبر نشيط يتعقبه !

ورحنا نعبر شوارع الجيزة وحواريها حتى وصلنا الى منزل صديقى ، وصعدنا فى حذر وأغلقنا الباب ، وتنهد الصديق بعمق وزفر زفرات حارة وبدا كأنه تخلص من كابوس شديد . . وعاد من جديد يحكى لى قصة كفاحه وجهاده ! ثم سألنى فى براءة منقطعة النظير . . مش لما الشيوعيين ياخدوا الحكم أنا أبقى رئيس تحرير ؟ ولم أجبه بشىء ، وسألته أنا الآخر عن مصدر المنشورات التى معه ، وفوجئت بأنه لا يدرى ، وانه يعانى من وجودها معه ، وأنه يخشى لو تركها فى البيت أن تضبط هناك ويكون مصيره السجن لا محالة . . ثم صمت طويلا قبل أن يقول ، أيه رأيك لو حرقتها ؟

ولم يكن ينتظر منى جوابا ، كما لو أن سؤاله هذا لم يكن سؤالا ، ولكنه كان قرارا أصدره وانتهى الامر ، وفعلا نهض الصديق وأحضر علبة كبريت وراح يحرق الاوراق الخطيرة أمامى . . وفجأة والدخان يعمى عيوننا انطلقت منى

ضحكة رغم أنفى ، ضحكة طويلة عميقة صافية ، كانت هى خير تعليق على الرواية كلها . وسألنى صديقى وهو يغالب الضحك ، أنت بتضحك ليه ؟ وقلت فى هدوء : انت يظهر مش فى منظمة حدتو ، أنت فى منظمة حرقتو !

وضحك هو الآخر ، ثم ظل يحرق الاوراق فى هدوء وبأعصاب قاتل محترف معتاد !

أما الحادث الاخير فقد كان أنكى وأمر !

أوفدتنا المجلة الوفدية التى نعمل بها الى المنصورة لنقوم بعمل تحقيق صحفى عن أملاك ابراهيم عبدالهادى باشا رئيس الوزراء السعدى ، وذهبت ومعى صديقى حلمى لصحفى أياه الذى كان معنا فى دار الهلال والذى ترك العمل هناك وتفرغ للعمل فى مجلة النداء وبمرتب ثمانية جنيهات كل شهر .

ولم أفهم السبب الذى دعا مدير التحرير الى الاصرار على ضرورة سفره معى ، مع أن هذه الامور لم تكن ضمن اهتماماته . . ثم اكتشفت بعد ذلك بزمن طويل أن مدير التحرير أقتسم معه قيمة بدل السفر ، وأن حلمى وعده بهدية زبدة فلاحى عند عودته من المنصورة ! كانت الرحلة ناجحة وموفقة لولا تصرفات الاخ حلمى . . ففى أول لقاء لنا مع عمدة طلخا وهو نائب وفدى متحمس أقسم الرجل أن نقضى الليل فى منزله ، ولكنى اعتذرت له بشدة . وأخيرا وافق الرجل على أن يتركنا نمضى وشأننا ، وعند باب الدوار دس العمدة يده فى جيبه واخرج أوراقا مالية دسها فى يد حلمى . وتناولها حلمى على الفور ورفع يده نحو السماء وراح يدعو الله على طريقة الشحاتين ، الهى ما يجوعلك كبد ولا يعريلك جسد يا حضرة العمدة ! وعندما عاتبته على هذا التصرف المعيب ، راح يلقى على مسامعى محاضرة طويلة عن أسلوب التعامل مع الناس والسلوك الطيب فى الحياة ، وكانت خلاصة مفاهيمه ان الحياة تعاون ، وان الناس فى خير ما تعاونوا !

ولقد قضينا فى المنصورة عشرة أيام كاملة . . ارتكبنا فيها كل الجرائم واستعملنا كل الوسائل ، حتى حصلنا على كل المستندات الدالة على استغلال الباشا لنفوذه كى يضمن لارضه الرى المريح والخصب الدائم .

مستندات حكومية أشبه بالروايات الكوميدية ! مستندات تحمل توقيعات الباشا رئيس الوزراء ، والباشا وزير الاشغال والبيه مدير الرى والافندى الملاحظ والولد الغفير !

وفى آخر ليلة لنا فى المنصورة جاء الموظف الذى سرقنا الدوسية من عهدته يبكى ويلطم فى اللوكاندة ولكننا ادعينا البراءة ، وأبلغناه أن الدوسيه أرسل الى القاهرة ، وطلبنا منه أن يصحبنا الى المجلة ووعدناه برد الدوسية وبمكافأة كبيرة !

وفى تلك الليلة الاخيرة أيضا حدث للعبد لله حادث غريب للغاية ، فقد كان يسكن فى الحجرة المجاورة لحجرتنا فى اللوكاندة رجل فى حوالى الستين من عمره ، يرتدى جلبابا وبالطو أصفر وطربوشا ويضع تحت الطربوش منديلا محلاويا عريضا ، ويمسك فى يده بمظلة . وكانت معه زوجته وهى فى السادسة والثلاثين من عمرها ، شابة مليحة ممتلئة عفية ، جمالها متوحش ، نظراتها وحركاتها كأنها لبؤة تبحث لها عن أسد جامد وقوى وخطير . . وكان صديقى حلمى الذى تجذبه رائحة النساء من على بعد ألف ميل قد لضم معها فى كلام ليس له مدلول !

وجلست أنا ليلتها مستمعا ، وكنت لم أزل صبيا فى الثانية والعشرين من العمر . وقد لفت نظرى ليلتها أن المرأة العفية المستوية كانت تختلس النظر نحوى بين الحين والحين ، وكان لوقع نظراتها تأثير عجيب على نفسى ، فقد كانت عيناها واسعتين عميقتين سوداوين ولامعتين كأنهما من الزفت المغلى !

المهم أننى فى تلك الليلة الاخيرة التقيت بالمرأة فى بهو الفندق المتواضع وكان الزوج فى الخارج وكان من عادته أن يخرج كل صباح ليعود فى المساء ، ويظل يسعل حتى تنقطع انفاسه ويسقط مغمى عليه من شدة السعال ! وتفاهمنا بسرعة أخذت تشكو وتضج بالشكوى من التهاب فى الاعصاب ، وراحت تحكى للعبد لله وهى تبكى كيف أرهقها المرض الى حد أن الزوج اصطحبها معه الى المنصورة لتشم الهواء وتسرى عن نفسها قليلا ، ولكنه جاء بها الى البندر وتركها فى اللوكاندة وانشغل عنها بأصدقائه فى المنصورة .

وفرحت الست لهذا الوضع وسرحت هى على كيفها ، وكانت ليلة ليلاء انتهت بزغرودة طويلة من الست المشتاقة الى ذكر يروى عطشها الشديد الى الحنان والحب والمتعة ! وأدركت سر أنشغال زوجها عنها فى المنصورة . . لعلها حركة ذكاء من جانبه . . ولعل كل شيء يدور من خلف ظهره وهو يدرى ! .

المهم أننا عدنا فى الصباح الى القاهرة . وقابلنا صاحب المجلة الوفدى وسلمناه فضيحة رئيس الوزراء السعدى . ولكن هذا الموضوع اختفى الى الآن فلم يكتب له أن ينشر قط !

يبدو أن الفساد كان سمة العصر ، وما يحدث فى جانب حزب السعديين يحدث مثله فى جانب حزب الوفد !

ولقد علمت بعد ذلك بسنوات أن الموضوع كله سلمه صاحب المجلة لرئيس الوزراء وقد تمت الصفقة بين الطرفين وانتهى الامر . . وضاع الموظف المسكين ففصلوه بعد ذلك ، وضاع نشاطنا الصحفى الرهيب فلم يسفر الا عن خيبة الأمل والفشل والهم !

وعدت من جديد أدور فى نفس الساقية التى أنا مربوط اليها ! عدت أكتب أى كلام وانشر أى شىء وذات يوم فوجئت بأننى فى المحكمة فقد قاضانى أحد القراء المشاهير الكبار . . وكنت قد كتبت عنه كلمة ساخرة وقصيرة وقلت بالحرف الواحد ، والشيخ فلان يشرب الكوكولا . . و . . ويدخن السجاير و . . هل أقول ؟ لا ، فانا شخصيا من عشاق الشيخ ! وكانت هذه أول قضية صحفية فى حياتى ، ولقد علمتنى الكثير وزودتنى بتجارب غنية ولكن يوم نظر القضية لم يغمض لى جفن ، وظللت طول الليل أفكر فى المصير الاسود الرهيب الذى سأنتهى اليه !

وذات مساء هبط مطار القاهرة المرحوم نهرو . كما قلت ، ولم يكن فى استقباله سوى حكمدار القاهرة مندوبا عن رئيس الوزراء ، وعدد من الصحفيين وموظفى السفارة الهندية ، ورجل اسمه فخر الدين كان يمثل اندونسيا فى القاهرة ، وكانت بلاده فى ثورة ولا ثورة فيتنام هذه الأيام !

وكنت أقف فى المطار الى جانب فخر الدين وطوغان ، وكان منظرى لا يسر عدوا ولا حبيبا ، بدلتى شتوى رغم أننا كنا فى عز الصيف ، وجيوبى منتفخة بأوراق ليس لها لزوم ، وفى يدى أوراق وأقلام لزوم الصحافة . وتقدمت نحو المرحوم نهرو وصافحته وسألته باللغة الهندية عن الصحة والاحوال فابتسم نهرو وربت على كتفى وشدنى من يدى معه الى استراحة العظماء . وانخدع الحكمدار فظننى مسئولا كبيرا فى سفارة الهند ، أو لعله ظن أننى عميد الجالية الهندية فى القاهرة ، وأننى ممصوص وممقوت من أثر الجهد البالغ أيام الكفاح . المهم أن الحكمدار الطيب رفع يده تعظيم سلام للعبد لله . وأغرب شىء أن نهرو هو الاخر انخدع مثل الحكمدار . فقد ظن أننى أحد كبار المسئولين المصريين بدليل أن الحكمدار مندوب رئيس الوزراء قد رفع يده للعبد لله بالتحية والاجلال . وجلست فى استراحة العظماء بين نهرو والحكمدار ساعة زمان ، ونهرو يتكلم فى السياسة ويتكلم فى امور الحياة . وكانت فى مصر معركة حامية الوطيس على الضمان الجماعى العربى ، وقال نهرو كلاما ضد هذا الضمان ثم نهض ووقف الى جانب الطائرة وقال كلاما شاعريا لم أفهمه . وصافحنا جميعا ثم ركب الطائرة وانصرف فى سلام !

وقضيت ساعة مع فخر الدين فى المطار أسأله عن الكلام الذى قاله نهرو فى استراحة العظماء ، ونقلت الحديث كما ذكره فخر الدين ، ثم قضيت الليل بأكمله فى بوفيه بمحطة السكة الحديد . ثم توجهت ومعى الحديث الى جريدة صباحية كبرى . وعندما اطلع مدير التحرير على الحديث رحب بى بشدة . . ولكنه رفض نشر الحديث الا اذا حصلت على توقيع من السفارة الهندية بأن الحديث صحيح وأنهم لا يمانعون فى نشره !

واخذت بعضى وتوجهت الى دار السفارة الهندية واكتشفت انه لا يوجد بالسفارة سوى موظف هندى فعلا لا يعرف من العربية حرفا ! ولما أوضحت له المسألة برمتها ، وشرحت له الموقف بصراحة ، وافق على الفور على نشر الحديث ووضع خاتم السفارة على الاوراق كلها .

وهكذا نشر الحديث فعلا فى أكبر صحيفة يومية فى مصر ولكن بلا توقيع ، وقد أحزننى هذا الموقف بشدة ، ومع أنهم منحونى عشرة جنيهات فى الحديث ، الا أننى تمنيت أن أدفع عشرة جنيهات أخرى وأضع توقيعى أسفل الحديث !

فلقد كان هذا العمل هو أول خبطة صحفية فى حياتى . ولقد أقام الدنيا وأقعدها بعد ذلك ، وهاجم صدقى باشا السراى واستشهد بالحديث ، وهاجم جلاد باشا صدقى باشا فى جريدة الزمان ، ولم يكتف بهذا بل هاجم نهرو أيضا . . وأصبحت أزمة دولية كبرى ، واضطر نهرو بعد أسبوعين من نشر الحديث الى تكذيبه وهو فى باريس ، وقال للصحفيين الفرنسيين ، لا أذكر أننى التقيت بصحفى مصرى فى مطار القاهرة .

وكان نهرو على حق ، فهو لم يعرف لحظة واحدة أننى صحفى . . ولا الحكمدار المصرى مندوب رئيس الوزراء كان يعلم صفتى .

ولكن الجريدة اليومية الكبرى التقطت القفاز كما يقولون ، وتحدث نهرو ونشرت الحديث مختوما بخاتم السفارة ، واضطرت السفارة الى السكوت فلم تعلق على الموضوع بشىء !

ولقد خيل الى أن حديث نهرو فرصة للعمل فى الجريدة . . ولكنهم رفضوا بشدة ، واقترحوا أن أعمل معهم بالقطعة . . وهو نظام كان يجعل من الصحفى شيئا يشبه الشيال فى محطة مصر . فأنت عليك كل الواجبات نحو الجريدة . . ولكن ليس على الجريدة أى واجب نحوك . . وبينما لا تستطيع تمثيلها أو التحدث باسمها فى أى مكان فانك تستطيع أن تنشر فيها انتاجك ، وضع مقلوب رفضته بشدة أنا الآخر وعدت للعمل فى هدوء فى مجلة النداء . .

وذات يوم تلقيت دعوة من صديقى فخر الدين لحضور حفلة استقبال كبرى فى فندق سميراميس احتفالا باعلان استقلال اندونيسيا ، وكانت أول مرة أدخل فيها سميراميس ، وأول مرة أيضا أحضر فيها حفلة استقبال من هذا النوع ، ولذلك دخلت الحفل أتلفت خلفى كأننى فلاح يدخل بيت العمدة لأول مرة .

وأحسست بخجل شديد عندما رأيت كل الرجال فى ملابس أنيقة ، وكل النساء فى رشاقة الطاووس . ولمحنى فخر الدين فأقبل نحوى وسحبنى من يدى ووقف يتكلم معى عدة دقائق ولكنها كانت كافية لاعادة الثقة الى نفسى !

ووقفت فى الحفل وحيدا بعد ذلك حتى أفتتح البوفية . . فاتجهت نحوه فى خوف شديد كأننى ذاهب الى مدرس اللغة العربية . . وعندما رأيت ادجار جلاد

باشا استأنست ووقفت الى جواره . . ولم أكن أعرف جلاد باشا ولم يحدث أى لقاء بيننا من قبل . . ولكنها الخيبة العريضة أوحت الى أنه مادام جلاد باشا صحفى ، ومادام وجهه مألوفا لدى ، فهو أهون من الآخرين الذين يملأون الحفل . . ورحت أزحف خلفه ألتقط من البوفيه نفس الاشياء التى يأكلها ، واكتشفت أن كل شيء التقطه كان مملحا ، ومع ذلك لم أجرؤ على أن اتناول شيئا آخر . . وعندما جاء دور الشاى طلب الباشا فنجال شاى بدون سكر . . وكذلك فعلت أنا الآخر . . ووقفت أتجرع فنجال الشاى كأنه سم أزرق .

واكتشفت بعد ذلك بسنوات أن جلاد باشا مريض بالسكر بينما كنت أنا اشكو من مرض الملح !

وعندما خرجت من الحفل الفاخر توجهت الى أقرب مقهى فى ميدان التحرير وطلبت واحد شاى بسكر ثقيل لكى أكسر سم الشاى الآخر الذى شربته هناك . . ولعلها كانت أول حفلة وربما الاخيرة ولسنوات قادمة .

وفى هذا العام تألفت وزارة جديدة برئاسة حسين سرى باشا لاجراء انتخابات جديدة ، وخاض الوفد الانتخابات بكل قواه . . وتقدم للترشيح عدد من كبار الصحفيين كان أحدهم رئيس تحرير الجريدة اليومية الكبرى اياها التى نشرت بها حديث نهرو . وأصدرت المجلة ملحقا يوميا عن الدايرة وتولى الاشراف على تحريره زكريا الحجاوى ، ثم تطور الملحق خلال المعركة الى ملحق للجريدة وعهدوا بالاشراف عليه الى محرر آخر . وقبلت العمل فى الملحق الجديد بالقطعة ، وسافرت الى الاسماعيلية مع محرر آخر اسمه هلال كان أشقر مثل عساكر الاحتلال ، طويلا وطيبا وساذجا على نحو ما . وكان يعمل بالصحافة بدون حماس وبلا طموح وكان كل آماله أن يزيد دخله عدة جنيهات تعينه على الحياة فى مستوى أفضل ! وكان يعمل مدرسا للغة الفرنسية فى احدى المدارس الثانوية وكان يبدو فخورا ومتعاليا بمهنته الاخرى ، وكنا اذا دعوناه للسهر معنا اعتذر عن القبول لانه على حد تعبيره « مانامش زيكوا برضه ، أنا مدرس ثانوى » ! وكانت عبارة أنا مدرس ثانوى هذه يرددها فى كل مناسبة ، وأحيانا كان يرددها فقط دون مناسبة على الاطلاق .

المهم انا ذهبت مع هلال الى الاسماعيلية لنكتب موضوعا عن المدينة المصرية التى يدخلها المصرى بجواز سفر ويحكمها انجليز ، وكانت الاسماعيلية فى ذلك الزمان نسيج وحدها بين مدن مصر . كان الانجليز يسكنون أغلب عماراتها وكانت الحياة تسير داخل المدينة على نحو انجليزى . وحتى المارة فى الشوارع جميعا انجليز !

وفى الليل كانت الاسماعيلية تنقلب الى كباريه ، العساكر يرقصون فى شارع ، والضباط الانجليز يرقصون فى البارات ، الغناء انجليزى والصراخ انجليزى ، كأننا فى مدينة مارجيت على شاطىء بحر الشمال ! وقضينا الليل فى بار اسمه بيكاديللى ، وفجأة وقع بصر هلال على ولد استرالى كما فحل الجاموس المعتبر جالس وقد فتح صدره وبان الشعر الكثيف يغطى جسمه ! ويداه المفتولتان القويتان تتدليان بجواره وقد غطى الذراعين وشم أخضر شديد الاخضرار ، نبات أشجار ونخيل . وقد تدلى رأسه الكبير على صدره وراح فى نوم عميق.ومع الولد الاسترالى الفحل ، تجلس بنت سنيورة جاويش فى الجيش ، ما أحلاها وما أطعمها !

ونهض هلال منشرحا ، وتوجه نحو البنت الجاويشة ، وجلس على المقعد ، وسأل البنت كام سؤال ، والبنت تسمع وتجيب ، ثم سألته بعد ثره : لماذا هذه الأسئلة ؟ وقال هلال : انا صحفى فى القاهرة وسأنشر حديثك ! واعترضت البنت لانها مجرد جاويش فى الجيش وطلبت منه ان يذهب للقائد البريطانى . . ويبدو ان البنت كانت ساذجة وكانت صادقة ، وحسبها هلال بنت عايقة ولئيمة وشقية ، فأقسم لها بدون مناسبة أنه لا يجرى حديثا الا معها ، لأنها فى الواقع وبالنسبة لهلال أعظم من كل ملوك انجلترا !

واستيقظ الولد الاسترالى على صوت هلال المسرسع ، فنظر نحوه بنصف عين ثم اشار له برأسه بأن ينصرف ، ثم لم يلبث ان نام من جديد .

ولم يهتم هلال بالولد الاسترالى وعاد الى مناقشة البنت الحلوة . ولكن الاسترالى استيقظ مرة اخرى ونهر هلال وامره بالانصراف ثم نام وارتفع شخيره فى الفضاء . ولكن هلال مضى فى طريقه مع البنت . غير أن البنت أبدت نفورا من هلال فسره هو لخيبته بأنه مجرد دلال ، وعندما استيقظ الفحل الاسترالى للمرة الثالثة ، كانت البنت يبدو عليها الضيق الشديد ولم يتكلم الاسترالى هذه المرة ولم يحتج ، فقد اعذر من انذر ، رفع يده الغليظة وطاح بهلال فاذا به مع المقعد خارج بكاديللى ، واذا بهلال حمامة فى الطريق الى محطة الاسماعيلية والواد الاسترالى خلفه وانا خلف الجميع وصوت هلال للجو ، وصوتى انا الآخر يرن حتى ابوصوير .

ولسوء حظى انتبه الواد الاسترالى الى أننى أجرى خلفه ، فظن أننى أريد به سوءا فانحرف نحوى فجريت فى الظلام نحو منتصف الشارع ، ولم الحظ أن بالشارع حديقة وانها محاطة بسياج ، لهذا انكسرت رجلى على هذا السياج ، ولكنه كان قدرا أخف من قدر كما تقول أمى ، فقد انكسرت رجلى ولكنى انقذت

من الموت بأعجوبة ! اذ أنني عندما سقطت على الارض ، لم يرنى الواد الاسترالى فأستانف سعيه خلف هلال !

ولقد قمت بعد ذلك احجل كالغراب الى لوكاندة بسطا . وعندما التقيت بهلال ضحكت حتى كدت اموت بالاختناق . فقد كان منظره يضحك الارامل . . وجهه شوارع ، وبدلته تحولت الى هرابيد والدم يغطى كل جزء فى جسمه . ثم يا للهول هلال افندى المدرس الثانوى يبكى !! وقضينا الليل فى قسم البوليس ، ورغم اننا ذهبنا الى البيكاديللى فى صحبة احد الضباط الا ان الولد الاسترالى رفض أن يذهب معنا الى القسم وفى النهاية كاد يعتدى على ضابط البوليس نفسه !

ولم أر هلال منذ تلك اللحظة لا اعرف اين ذهب ولا ادرى اين ذهبت به الايام ! ولذلك كتبت انا موضوع الاسماعيلية ونشر الموضوع بأسمى وفى تلك الليلة التى علمت فيها ان اسمى سيكتب فى الجريدة الكبرى ظللت ساهرا حتى الفجر فى محطة السكة الحديد . انتظر الجرائد حتى تصدر . وعندما حصلت على نسخة من الجريدة . توقفت تحت عمود نور اقرأ المقال واقرأ اسمى ، ورغم ان اسمى كان أسفل المقال وبالبنط ٩ الذى لا يرى الا بصعوبة ، فقد احسست بلذة لم اشعر بها فى حياتى ، لا قبل ذلك ولا بعد ذلك .

ورحت اقرأ المقال عدة مرات ، فأحسست بأننى أكاد أهم بالطيران واحلق فى الجو . ثم رحت اتمشى نحو الجيزة واثناء المشى رحت التهم المقال ! وجفا النوم عيونى تماما فظللت سائرا حتى سقطت فى المساء مغمى على . رغم اننى تقاضيت على المقال ثلاثة جنيهات ، الا اننى اعتبرت نفسى من كبار الصحفيين ! ورحت اتردد على نادى العوالم فى آخر الليل حيث كان يسهر هناك بعض الفتوات وبعض الصحفيين وبعض الفنانين !

وكانت الانتخابات فى عنفوانها ، واخبار اليوم تشن حملة صحفية على حزب الوفد أفقدت حزب الوفد نفسه الثقة فى نفسه ! واتهمت الحزب بالفساد والرشوة واتهمت رئيسه بكل ما يشين الرجال . . وانتهت الى أن الجماهير قد انصرفت عن الوفد الى أحزاب الملك والاقلية . . ولكن نتيجة الانتخابات كانت مذهلة . . فقد اكتسح الوفد جميع الدوائر ، وانضم الشعب بجميع طوائفه الى حزب الوفد ، وعاد النحاس الى الحكم ، وأصبحت الجريدة اليومية الكبرى منتدى لرجال السياسة والحكم والفن !

وأصبحت سهرتى كل مساء فى حديقة دار الجريدة . . ومن خلال هذه السهرات تعرفت على فنان مصرى متشرد وأصيل ، ونموذج لن يتكرر ، حياته تكاد تكون متشابهة مع حياتى مع فارق واحد هو أن حياته أعرض وأخصب ،

ولقد توثقت الصلة بيني وبينه بسرعة . . ومن لحظتها ، ولكنني أحببته دوما . ولقد أحببت فيه شجاعته وانفعاله الدائم وقدرته الفذة على مواجهة المشاكل وطاقته التي بلا حدود ، واقتحامه لأصعب المسائل ببساطة المقامر الفنان . . وكان الرجل وقتئذ صاحب ألمع الاسماء فى الحقل الادبى ، وكانت براجحه فى الاذاعة سريعة الانتشار وكان صاحب صيت يدوى كالطبل فى أنحاء مصر والعالم العربى . . وفى أول ليلة سهرت فيها معه أنفق أكثر من عشرة جنيهات . . ثم اقترض مني عشرة قروش ليدفع أجرة التاكسى !

وربما لهذا السبب أحببت عبدالرحمن الخميسي وصادقته . ولأنه كان متفائلا رغم ظروفه السيئة . . لا يبالى بما سوف يحدث غدا رغم أعبائه المالية الضخمة . . وفى تلك الايام كان الخميسي غارقا لشوشته فى حب شجرة ، ثم تحول عنها الى حب طالبة فى الجامعة ، وكان يبكى كلما تذكرها ، ثم يعكف وحده أحيانا لتأليف قصائد غزل فى الحبيب الذى يتبغدد !

ولقد اهتم الخميسي بكتاباتى وأسدى لى النصيحة باخلاص . وأقترح على مرة أن أكتب قصة . . ولكنى زعمت له أننى لست من هواة القصة ، وأخفيت عنه أننى أكتب القصة فعلا ولكنى لا أنشرها . . ثم فجأة تحول الخميسي عن مجراه لسبب لا أدريه وتخلى عن أسلوبه الرومانسي وراح يكتب بطريقة تعليمية أقرب الى الخطابة منها الى الفن الذى كان طابعه القديم . .

ولم أشعر بالارتياح تجاه أسلوبه الجديد . . ولكنه عندما دخل معركة صحفية مع محمد التابعى حول الفن والجمال . . ارتحت لرأى الخميسي وان كنت قد أعجبت بأسلوب محمد التابعى . . ثم اختفى الخميسي بعد ذلك فلم نعد نراه ثم علمنا أنه تزوج . . ولكنه قبل أن يفارقنا الى بيت الزوجية كنت قد تعرفت من خلاله على أعداد وفيرة من المثقفين والصحفيين والفنانين . . فقد كان واسع الاتصال بالناس ، على صلة صداقة متينة بالألوف من جميع الاوساط والطبقات . . مولعا بالموسيقى والغناء . . ولكن أغرب أصدقائه على الاطلاق كانوا من الذين ضيعتهم الايام . . هؤلاء الذين حلموا يوما بالمجد والنجاح والشهرة ثم انكسروا أمام التحديات وكان يبث فى هذا النوع من الناس الامل ، ويجدد فيهم الثقة رغم تأكده من أنهم لا يصلحون لشيء . . ولكنه كان يسعى دائما لكى يوجد لهم أعمالا مستقرة . . ولكن أحدهم رفض كل الاعمال التى عرضت عليه ، وفضل أن يبقى الى جانب الخميسي ولا يزال يتبعه كظله حتى الآن ! ولعل هذه الميزة هى أبرز ميزة فى الخميسي . ميزة المسح بعطف على جراح الفاشلين والساقطين فى الحياة .

ولكن أبرز رجل عرفته من خلال الخميسى ، كان صحفيا وشاعرا وكاتبا وفنانا وظريفا ، وكان رجلا ولا كل الرجال ، وكان مرآة متحركة لمصر تلك الايام ، وكان بعضا من تاريخها وقبسا من روح مصر الذكية القلقة العابثة على نحو ما . . وأدركت أن الخميسى ، يحب كامل الشناوى لنفس الاسباب التى احببت من أجلها الخميسى ، ثم علمت بعد ذلك ومن الخميسى نفسه ، أن لكامل الشناوى أفضالا كثيرة عليه . . وعند أول لقاء لى مع كامل الشناوى عاملنى بازدراء شديد . وأهملنى بشكل يكاد يكون متعمدا ، وفى اللقاء الثالث سألنى عن مسقط رأسى فلما أجبته . . المنوفية . . قال مندهشا : أنت أول فنان تنجبه المنوفية ! وعندما استنكرت ذلك بشدة ، وعددت له أسماء عشرات الفنانين المشاهير وكلهم من المنوفية ، نظر نحوى فى احتقار ممزوج بالطيبة . . وقال وهو يهز رأسه . . أنا باقولك فنان . . فنان . . فاهم ، اللى انت ذكرتهم دول كلهم شعراء ، وكتاب ، ولكن مش فنانين . . فاهم . . وعندما لم أتكلم ، قال بصوت خفيض : أنت مش فاهم حاجة أبدا !

لم تكد تمضى أسابيع على عملى فى الجريدة الكبرى حتى صدمت صدمة كبرى فى أحلامى . فلقد كانت الجريدة مجرد بناء أجوف ، وهرم من الرمال الناعمة . وكانت الاوضاع فيها أكثر اعوجاجا منها فى أى مكان آخر . وتعرفت خلال العمل على عشرات من أصحاب الاسماء اللامعة حياتهم أكثر بؤسا من حياتى ، ومرتباتهم لا تكاد تكفيهم ثمن الدخان والشاى . وعشرات من الموهوبين الاصلاء لا يجدون حتى هذا الاجر التافه .

ولكن فى الناحية الاخرى كان هناك عشرات من الهلافيت التافهين كل مواهبهم أنهم أصدقاء صاحب الجريدة وأنهم يسهرون أحيانا معه يقصون عليه أحدث النكت وآخر أنباء المجتمع . ويتقاضون مقابل ذلك مئات الجنيهات باعتبارهم محررين وليس باعتبارهم ندماء ، وأدركت خطر الجريدة التى تستطيع أن تخلق أصناما يعبدها الناس ، وتستطيع أن تخلق من الفسيخ شربات !

وتعجبت أكثر لهذا الجهاز الخطير الذى اكتشفه البشر والذى اسمه الادارة ، والذى يستطيع تحويل الموهوبين الى متسولين ، بينما يجزل العطاء ويسخاء لكل من يستطيع الحصول على اعلان من مدير شركة . ولكل من يستطيع أن يعقد صلة صداقة متينة مع نائب أو محسوب أو شيخ يملك مئات الافدنة وألوف الناخبين تحت أمره !

وكانت هذه القشرة اللامعة من الصحفيين تسهر كل مساء حتى الصباح فى نادى نقابة الصحفيين تلعب القمار وتخسر عشرات الجنيهات كل ليلة . وكان أبرزهم رجل من الاقاليم يملك جريدة أسبوعية تصدر فى الصعيد بينما كان هو

مقيما على الدوام فى القاهرة . . وكان الرجل خفيف الدم كريما الى درجة السفه . . وكان مشهورا بألوان معينة من الاطعمة المفضلة . . وكان صاحب نفوذ كبير فى نقابة الصحفيين . . فقد كان على علاقة وثيقة بسكرتير عام النقابة وكبار الصحفيين وجميع المسئولين فى الصحف . وكان فى استطاعة هذا الرجل السمين الذكى أن يجعل من أى انسان فى مصر عضوا فى نقابة الصحفيين ، وكان دائما على استعداد ليمنح أى انسان شهادة بأنه محرر فى المجلة الاقليمية التى يملكها فى الصعيد . . وكان سكرتير عام النقابة على استعداد لاعتماد الشهادة ، وبعد أيام يصبح هذا المخلوق - أى مخلوق - عضوا بنقابة الصحفيين له كافة الحقوق وليس عليه الا واجب السهر فى النقابة ولعب القمار حتى الفجر !

والى جانب هذه الشلة المقامرة من أعضاء النقابة كانت هناك شلل أخرى كثيرة أبرزها على الاطلاق شلة أصحاب الصحف الميتة . وكان كل واحد من أفراد الشلة يملك امتيازا باصدار صحيفة ، غير أن هذه الصحف وقفت عند هذه المرحلة فقط ولم تصدر قط .

وبالرغم من ذلك كان أصحاب هذه الصحف يتقاضون مصاريف سرية كل شهر من الحكومة ، ويتقاضون أيضا اعانات شهرية من النقابة ! وكان هؤلاء الصحفيون رغم تفاهة دورهم الصحفى يتمتعون بنفوذ واسع داخل النقابة وكانوا يستطيعون فرض أى مرشح . . ولذلك كانوا يشعرون حقا بالسعادة كلما حدثت انتخابات جديدة ، فقد كانت الانتخابات فرصة للتهليب ، كما كانت أيضا فرصة للعمل ، والسبب أن حضرات المرشحين وكانوا جميعا من أصحاب الصحف وكبار المسئولين فيها ، يقومون بتعيين عشرات من العاطلين قبل كل انتخابات تجرى لضمان أصواتهم فى المعركة . . وكانت خطابات الفصل تصل الى هؤلاء المحررين فور ظهور النتيجة ليعودوا عاطلين مرة أخرى فى انتظار انتخابات أخرى تفتح أمامهم أبواب الرزق . . ولقد كان أبرز أعضاء هذه الشلة ثلاثة . . أحدهم كان مستشارا صحفيا للخديو توفيق ، وكان الصحفى الوحيد الذى حضر مذبحة دنشواى . . وقد وصف ذلك اليوم الاغبر بأسلوب ينم عن جهل صاحبه بحقيقة المأساة . . فقد وصف الموكب الرسمى وعساكر الانجليز ، وسعادة قاضى التنفيذ ، ووصف الجلاد أيضا ، وفى النهاية كتب عدة أسطر عن الفلاحين الاشقياء الذين أعلنوا العصيان ضد السلطة الشرعية وضد الحاكم الشرعى للبلاد ! . .

وعندما تعرفت اليه أول مرة كان فى الثمانين من عمره . . وكان حريصا على أن يبدو متصابيا وشابا . . واذا صافح انسانا تعمد أن يضغط على يده بشدة استعراضا لقوته التى يتغنى بها على الدوام .

وكان عبدالستار الخطيب هو الرجل الثانى فى الشلة . . وكان فى الخمسين من عمره . . قضى منها فى مهنة الصحافة عشرين عاما ، ولكنه لم يمارس العمل حقا سوى شهر واحد وتفرغ بعد ذلك للجلوس فى نادى النقابة مع شلة المعاشات . وكان عبدالفتاح يبدو ممرورا غاية المرارة ، حزينا غاية الحزن شديد السخط على كل شىء . . على الحكومة وعلى الشعب وعلى الصحافة وعلى الفول المدمس وعلى قطار السكة الحديد . . ولكنه لم يتحرك حركة واحدة فى حياته بعد الشعور بالسخط . .

وكان يتكلم ويتحرك كأنه زعيم من زعماء الشعب المصرى أجبرته الظروف على الانزواء فى ركن . . وأحيانا عندما كان يلتقى بعشرات من الشبان المترددين على نادى النقابة ، كان يجلس معهم منفوشا كالديك ويقضى الساعات الطويلة يسرد على مسامعهم كفاحه الطويل فى عالم السيرك ، وتجاربه الحافلة فى دنيا الصحافة . وكان دائما على حق بينما كل الآخرين دائما على خطأ . . وكان اذا انطلق فى تلك اللحظات القليلة السعيدة فى حياته فلا أحد فى الوجود يستطيع وقفه ! خصوصا اذا صادف نفوسا بريئة وآذانا صاغية .

وذات مرة حكى لنا كيف نصح رئيس الوزراء سرى باشا بكذا وكيت ولكنه لم يستمع لنصحه . . ومع ذلك فقد أسدى نفس النصيحة لصدقى باشا . . ولكنه لسوء حظه ـ حظ صدقى ـ لم يستمع لنصحه . . وظل يتكلم عن موقفه من الوزراء والبشوات ونصائحه المتكررة لهم دون جدوى .

وعندما انتصف الليل كان قد وجه نصائحه لجميع البشوات فى مصر حتى لم يبق منهم باشا واحد لم ينصحه ! ولكنه استطاع أن يخرج من المأزق ببراعة وبعد لحظة صمت وتفكير عميق قال عبدالفتاح فجأة لقطيع الشبان البائسين الملتفين حوله : « وعلى كل حال أنا نصحت جلالة الملك ، وإن شاء الله هيعمل بالنصيحة » !

ولم أتمالك نفسى فضحكت !! ولكنه كان ذكيا الى الدرجة التى لم تجعله يلتفت الى هذه الضحكة الساخرة الشاخرة من ولد عابث مثلى !

تجاهل الامر كله ومر عليه مرور الكرام . . وعندما نهضنا للانصراف كانت وكسه ولا وكسة دنكرك . . انتحى عبدالستار بالجرسون ركنا وراحا يتهامسان ، ولكن الهمس لم يستمر طويلا ، سرعان ما ارتفع الهمس فأصبح ضجيجا ثم عراكا ثم ضربا بالركبة وبالرأس . . وترنح عبدالفتاح فى أول لحظات الصدام وتمدد على الارض يصرخ ويتوجع . وانتشى الجرسون بخمرة النصر السريع على عبدالفتاح ، وانتابته حالة جنون مريعة ، فهجم علينا يريد أن يتقاضى الحساب

منا ، ويعلم الله لم يكن معنا شيء على الاطلاق ، ولولا الفلس الاغبر لما احتملنا أكاذيب عبدالستار

ولقد انقطعت صلتي به بعد ذلك حتى التقينا مرة أخرى فى مجلة الصريح ، وقد تغير عبدالفتاح فأصبح أكبر سنا وأكثر هما ! ولقد حضر ومعه مقال يريد نشره .. ونشرناه فعلا ليس لانه يستحق النشر ، ولكن لان انتخابات نقابة الصحفيين كانت على أشدها ، وكان رئيس تحرير المجلة على رأس قائمة المرشحين ..

ولقد احترنا فى المبلغ الذى يجب أن نعطيه عبدالستار ثمنا للمقال ، وقدرت أنا أن خمسة عشر جنيها كافية لمثل هذا العمل التافه ، ولكن عبدالفتاح رفض بشدة واستنكر هذه الفعلة كأننى أتيت ذنبا لا يغفره الله .. وعندما سألته عن المبلغ الذى يطمع فيه قال بهدوء ، مائة جنيه !

وتصورت أنه جن ، لان الدكتور طه حسين بجلالة قدره قد يفكر عدة مرات قبل أن يطلب مبلغا مثل هذا ثمنا لمقال واحد .. ووعدته خيرا وانصرف على أن يعود فى يوم آخر !

وعندما أبلغت رئيس التحرير بالامر على أنه نكتة ، فوجئت بأنه موافق على المبلغ المطلوب ! وأدركت ان المائة جنيه ليست ثمنا للمقال ولكنها ثمن لسكوت عبدالستار خلال المعركة !

وأدركت أيضا أن عبدالستار يستخدم ذكاءه بذكاء ! وأنه يعلم أن الانتخابات هى فرصته الوحيدة !! وأنه خلال كل انتخابات يسعى كثعبان الغابة ليلتهم خنزيرا بريا أو غزالة ثم ينام يجترها فى هدوء ولمدة شهور حتى تسنح فرصة أخرى !

وكان ثالثهم رجل شديد اللطف خفيف الدم صاحب موهبة حقيقية .. ولو أنه اتجه الى التمثيل مثلا لكان نجما ولا نجيب الريحانى ، وكان كريما ظريفا ساحر الحديث ، سريع النكتة بارع القفشة ، صاحب ضحكة مميزة ترن كأنها أجراس كنيسة صباح يوم عيد ..

كان عبيد السايس قصيرا ونحيفا ويرتدى « بابيون » ويضع على رأسه طربوشا ويدخن سجاير توسكانى خبيثة الرائحة الى درجة لا تطاق ! وكان يعمل فى جريدة مسائية ويتقاضى مبلغا لا يكاد يكفى ثمن السجاير التوسكانى !

وعندما تصدر الجريدة يبدأ رحلته الابدية مترددا على جميع البارات الفقيرة فى العاصمة .. وكان يطلق على شلته « شلة المشائين » .. وكان شعاره الذى يرفعه : من كل بستان زهرة ! اذ كان ممنوعا فى مذهبه أن يتناول أكثر من كأس واحدة فى البار الواحد ! وآخر الليل كان يحضر الى نادى النقابة سكران للغاية

مبسوطا تمام الانبساط يدندن بأغانى شعبية قديمة . وفى الفجر كان يستقل عربة حنطور وكان يصر على أن يركب الى جوار العربجى ، وأحيانا كان يتولى هو قيادة الحنطور حتى بيته ! فاذا وصل الى البيت كان من عادته أن يقف وسط الشارع وبشائر الصبح تطل من خلف الافق ليقضى حاجته فى الطريق العام !

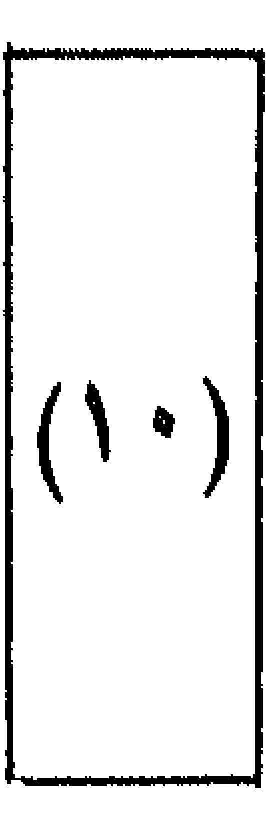
ولكم سببت له هذه العادة الغريبة مشاكل شتى ! وبسببها نام فى أقسام البوليس عدة أيام وتحررت ضده عدة محاضر . . وأحيانا كان العسكرى الجلف يعتدى بالضرب على الفنان الضائع . .

وعقب كل خناقة من هذا النوع كان يلزم البيت عدة أيام حتى يشفى من جراحه !!

وعندما أغلقت الجريدة أبوابها لم يتخل عن عادته أبدا ، الطواف طول الليل على البارات ، ثم السهر فى نادى النقابة . ولكنه حرم نفسه من لذاته الكبرى وهى ركوب الحنطور ، اذ لم يكن يملك فى أيامه الاخير أجر الحنطور من النادى فى قلب القاهرة الى منزله فى مصر القديمة ! وكان يقطع المشوار على قدميه ، ثم يقف وسط الشارع امام منزله ليقضى حاجته كالعادة . .

وذات مساء ، وكان المساء الاخير الذى شاهد فيه الناس الرجل الفنان فى نادى النقابة . . فقد حضر عم عبيد وكان سكران الى درجة الترنح ، وفى النقابة حفلة ساهرة تضم أصحاب الصحف الاثرياء وكبار الصحفيين المتريشين وعددا من البشوات والوزراء وأصحاب الطين . . وجلس عبيد فى التراس يشرب قهوة سادة ، وبعد أن انتهى من شرب القهوة هم بدخول القاعة التى تشهد الحفلة الانيقة ، ولكن الرجل الطويل العريض الذى يحرس باب القاعة منعه من الدخول لان الدخول بالملابس الرسمية وعاد عبيد الى التراس وجلس يفكر لحظات ، ثم نهض فجأة وخلع ملابسه كلها ، واقتحم الحفل عاريا تماما كما ولدته أمه . وارتاع الوزراء والبشوات وأصحاب الطين وصرخت نساؤهم بشدة لمنظر الرجل المسلوع الذى اقتحم المكان عاريا تماما الا من حذائه وطربوشه . وباظت الحفلة وخرج عم عبيد الى منزله ولم يعد أبدا .

ومات عم على بعد ذلك بأيام ، بعد حياة قصيرة عريضة ذاق فيها كل الوان البؤس والفقر . ولكنه رغم كل شىء كان أحد أبناء الجيل الذى اقتحم غابة الصحافة فى عهدها الاول ، وتعرض لكل أخطارها وذاق كل مرها ، وشربها وبذل دمه . نقطة وراء نقطة ، لكى يشيد أصحاب الصحف دورا جديدة ويكدسوا ثروات هائلة . .


(١٠)



١٠

كانت مصر فى بداية الخمسينات قد صادفت عهدا من الهدوء والاستقرار لم تألفه منذ بداية الحرب العالمية الاخيرة . وكانت حكومة الوفد فى الحكم ، ومن عجب أن صحف الوفد انهارت كلها فجأة ، وتحول اكبر الكتاب فيها الى نواب وشيوخ ، وتحول صغار المحررين فيها الى أصدقاء للشيوخ والنواب الذين كانوا ينتشرون كل مساء فى مقاهى الاوبرا وشارع عماد الدين .

ولقد كانت هذه هى أول مرة أدخل فيها مثل هذه المقاهى الانيقة ، بزبائنها الاثرياء جدا ، بجرسوناتها الخواجات ، بسهراتها التى يخسر فيها عمد الارياف مئات الجنيهات كل ليلة فى لعب الطاولة . ولقد كنت أظن حتى هذه اللحظة أن رواد المقاهى كلهم من الصيع ، وكلهم من المقاطيع . حكمة أزلية استقرت فى نفسى ، ربما من خلال رأى أمى فى المقاهى وروادها وفى أول جلسة اكتشفت كم كانت أمى ساذجة وكم كانت عديمة الخبرة .

ها هم ذوات البلد جميعا ينفقون وقتهم فى المقهى يلعبون الطاولة ويشترون أغلى وأندر الاشياء دون أن يتحرك الواحد منهم خطوة . ولقد استرعى انتباهى هذا العدد الهائل من باعة المانجو والفستق والبطارخ والبطيخ الشليان الذين يقتحمون المقهى كل لحظة . وكانوا أصحاب فطنة ، فرغم جلوسنا الى جوار هؤلاء البهوات فان أحدا من هؤلاء الباعة لم يعرض علينا بضاعته ، وكان البائع الفطن يتجه مباشرة الى البيه الذى معنا وكان البيه يكتفى بإختلاس نظرة الى البضاعة فاذا اعجبته غمز له بعينه . وكان البائع يفهم الغمزة فيضع البضاعة جانبا ويحاسب الجرسون . ويمضى !

ولقد احببت هؤلاء البهوات فى أول لقاء وتمنيت ان أعيش معهم ، وفى آخر لقاء علمت ان امى من فلاسفة العصر ، وان هؤلاء البهوات مجرد صياع مثل رواد قهوة امين فى الجيزة مع فارق واحد ، وهو ان هؤلاء الصياع أغنى !

ولقد كان موسم القطن ناجحا وحركة انتعاش كبرى شملت كل شىء فى البلاد ، وانتشرت البدل الشاركسكين البيضاء ، وكثر عدد مدخنى السيجار وانتشرت نوادى القمار ، وانتعشت البارات وأصبح شارع عماد الدين مثل الحريقة الوالعة . وكل الناس سكارى بالفلوس والفن والانبساط الذى ليس بعده مطلب .

وكان ملك البلاد قد خرج من مصر باسم مستعار يلف شواطىء اوروبا ويستدعى الوزراء ليقسموا اليمين بين يديه السمينتين ، وقانون أخبار القصر يلقى معارضة شديدة ، والامة تغلى بالغضب وليس بالثورة ، وعشرات الصحف خرجت فجأة كلها تلعن وتسب فى النظام الذى كان قائما تلك اللحظة ، ولكن الاحوال رغم ذلك كانت عال والاشيا كانت معدن والناس كانت عايشة .

وفجأة ، وقف مصطفى النحاس فى البرلمان ليعلن على الشعب نبأ هز مصر كلها هزا ، وتحكم فى مصيرها لسنوات طويلة قادمة .. وقلب كل شىء فى البلد رأسا على عقب ، وهز كل ركن حتى المقاهى المنتشرة فى شارع عماد الدين وفى الاوبرا .

كان الخبر .. الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، ولم تكد تمر لحظات على بيان النحاس حتى خرجت المظاهرات فى الشارع .. واصطدمت مظاهرة بدورية بريطانية فى الاسماعيلية ، وسرعان ما انطلقت الرصاصات ، واشتعلت النيران ، وسقط الشهداء وأصبحت مصر فى ثورة .

وذات مساء قدر لى أن أستقل اخر قطار غادر محطة مصر الى السويس فى رحلة صحفية . ولكن لم أعد من السويس الا بعد ذلك بأربعة شهور كاملة .. ولقد كان وقتا قصيرا كالحلم ، ولكنه كان كافيا لان أرى بوضوح شكل المأساة بلا رتوش ، وقبح الاحوال بلا تزويق ، وان أشم رائحة العفن بلا كمامة ، وأن أضع يدى على الجرح المفتوح الذى راح ينزف بلا انقطاع حتى تقطعت أنفاس مصر ليلة ٢٦ يناير المشهور .

ولكن هذه الرحلة الغريبة التى قطعتها فى قطار يزحف كالدودة فى الصحراء ذات مساء ملتهب من شتاء ١٩٥١ الى السويس ستكون هى رحلة العمر كله .
هأنذا صحفى محترم فى طريقى الى عمل خطير المسئولية فى رحلة خطيرة الاهمية ذات وضع خاص بين كل فترات التاريخ . وفى القطار ضباط بوليس فى طريقهم لقيادة المعارك ، وعساكر بلوكات نظام لا تدرى من الامر شيئا ولكنها تنفذ أمرا صدر اليها بالتحرك الى السويس . عساكر بطاسات صفيح وعصى خشبية وبلا سجاير ولا نقود .

وفجأة توقف القطار بعنف واهتز بشدة ، وانكفأنا جميعا على وجوهنا ثم قفز البعض ينظر من النافذة يستطلع الامر . وقبل ان نلتقط أنفاسنا صعد الى القطار فصيلة عساكر انجليز بمدافع وأوامر واستسلمنا جميعا للامر الصادر الينا . رفعنا ايدينا فوق روءسنا وبدأ التفتيش فى حقائبنا وفى جيوبنا ، ولو استطاعوا لفتشوا فى عقولنا .

لم يكن التفتيش جادا بالنسبة لنا نحن ركاب الدرجة الاولى وبدأ واضحا أن الانجليز لا يقصدون الا اهانتنا وجرح كبريائنا ، أما أمتعتنا وحقائبنا فلم تمتد اليها يد !

ولكن الوضع تغير تماما عندما اقتحم العساكر الانجليز عربات الدرجة الثالثة ، قضوا فيها ساعات طويلة يفتشون كل شبر وكل ركن وحتى الاجسام فتشوها وأجبروا الصعايدة على خلع ملابسهم ، وعندما رفض أحدهم تنفيذ هذا الامر ، ضربه عسكرى انجليزى طويل كالنخلة بمؤخرة البندقية على رأسه فسقط مغشيا عليه . وبعد ساعات طويلة مريرة ، سمح الانجليز للقطار بالتحرك الى السويس .

كانت المدينة هادئة تماما ، لا صوت ولا حتى همس ، وكل شيء يبدو مكانه كما كان منذ عشرة أعوام عندما اخترقت شارع النمسا فى ذلك الوقت المتأخر من الليل فى طريقى الى لوكاندة فؤاد . ولم يكن فى لوكاندة فؤاد الا سرير واحد فى حجرة مشتركة ينزل فيها « رجل عجوز » على حد تعبير حارس اللوكاندة ولم أستطع رؤية الرجل العجوز شريكى فى الحجرة لانه كان لحظة اقتحامى الغرفة يغط فى نوم عميق ولانى كنت حديث العهد بالنزول فى اللوكاندات ، ولانها كانت أول مرة فى حياتى أسافر فيها الى بلد بعيد لاقيم فيه فترة طويلة ، فقد أطفأت النور ونمت دون ضجة . ولكننى لم استطع ان أغمض عينى الا عندما لاحت تباشير الصباح ، وتصاعدت أصوات الديكة من أسطح البيوت القريبة !

وعندما فتحت عينى كانت الشمس تتوسط السماء ، والجو بديعا للغاية وحركة المرور فى الشارع تحدث ضجة شديدة ، وأصوات الباعة والزبائن تختلط وتتشابك ، ولم يكن يبدو على الشارع أن حركة غير عادية تجرى حول المدينة . وارتديت ملابسى على عجل ونزلت الى المحافظة لاسأل عن حقيقة الاحوال ، وأدهشنى أن كل شيء هادىء وعادى ، واستقبلنى المحافظ فى مكتبه الفاخر وراح يتحدث عن التدابير التى اتخذها لمواجهة الموقف ، ثم تحدث عن تكهناته بالنسبة للمستقبل ، ومع ذلك لم أخرج من حديثه بشيء .

وعندما استأذنت فى الانصراف سألنى وأنا عند الباب . . ان شاء الله الحديث بتاعى هينشر امتى ؟

ولم يكن فى نيتى نشر حديثه لانه كان غير ذى موضوع ومع ذلك طمأنت سيادة المحافظ الى أن حديثه سينشر فى القريب .

عندما عدت الى حجرتى فى اللوكاندة بعد جولة سريعة فى المدينة ، وجدت الرجل العجوز فى الحجرة منهمكا فى الكتابة . وكانت فرحتى عظيمة عندما عرفت أنه صحفى ، وأنه موفد من جريدة الاهرام لمتابعة الاحوال فى المدينة .

وكان هذا أول لقاء لى مع حامد عبدالعزيز وتوطدت الصداقة بينى وبينه بعد ذلك . وقضينا معا وفى غرفة واحدة أربعة أشهر كاملة كانت أخصب وأعظم فترة فى حياتى ..واكتشفت أن حامد عبدالعزيز فنان هجر الفن الى الصحافة ، وأنه بدأ حياته عاشقا للمسرح ، وكتب عدة روايات مثلت على مسارح القاهرة ، وانه دارس للاساطير الشعبية وأنه قارىء ممتاز وذواقة للادب والفن ، ولكن الحياة جرفته ، ومهنة الصحافة أكلت مواهبه كما تأكل الدودة لوز القطن . وأنه رغم كل شىء سعيد وغير نادم ، وان هدفه الوحيد فى الحياة هو رعاية ابنائه فقد كان يحبهم الى حد الجنون !

كان قد مضى على وجودى خمسة أيام عندما طرق الفراش حجرة اللوكاندة فى الساعة الثالثة بعد الظهر ليبلغنى أن شخصا ما يبحث عنى ويريد مقابلتى ولم يكد الفراش ينتهى من كلامه حتى اقتحم الحجرة رجل فى الخامسة والثلاثين من عمره يرتدى جلبابا فاخرا ويلف لاسة حريرية حول عنقه ويضع عمامة على رأسه ، ويدس يديه فى جيوب الجلباب .

وألقى علينا التحية وصافحنا فى ثقة زائدة وضغط على يدى حتى كدت أصرخ ألما ، وقال وهو يقدم نفسه .. محسوبكم عبوده .

كان عبوده متين البنيان ، عيناه واسعتان حادتان كعينى صقر ، ولونهما فى لون العسل المخلوط بالطحينة ، وله شارب نافش ومرفوع من الناحيتين وفى وجهه آثار كدمات قديمة وجرح حديث العهد ، وبعد ان مسح بيده على شاربه ، قال فى هدوء : انت السعداوى ولا مؤاخذة .. صححت له الاسم واندهشت لكلمة لا مؤاخذة التى أرفقها بسؤاله ، وهل اسمى فيه عيب يستوجب الا يؤاخذ الانسان من ينطقه ؟!

وقال عبوده وهو يتفحصنى وقد بدا عليه الازدراء لضآلة حجمى ، هوه انت بتاع الصحافة ؟

ولما أجبت بالايجاب ، قال على الفور كأنه أمر يصدره ولا يقبل المناقشة طيب قوم معايا .

مر عبودة وأنا خلفه بجوار حلقة السمك ثم تعداها وعبر خرابة مهجورة تنضح بالقذارة ثم اقتحم بوابة من الصفيح الصدىء واجتاز باحة تنشع من باطنها المياه القذرة ، ثم طرق على باب عشة وصرخ بأعلى صوته عدة مرات .. ثم سحب مقعدا وجلس امام العشة ودعانى للجلوس ، وعلى الفور خرج عدة رجال من العشة الصفيح وضربوا تعظيم سلام لعبودة وصافحونى جميعا ، ثم التفت عبودة نحوهم فى لهجة آمرة .. البسوا وامسكوا سلاحكم عشان اللفندى هيكتب عنكم !

ودخل الرجال الى العشة ثم عادوا وقد ارتدوا ملابس حربية واصطفوا فى هيئة طابور عسكرى ومعهم مدافع سريعة الطلقات . . ادوا التحية العسكرية للقائد الذى هو عبودة ، ثم هتفوا هتافا عاليا لم اتبين معناه . . وبعد أن انتهوا من جميع المراسيم نظر عبودة نحوى فى خيلاء واشار نحو رجاله وقال . . دول وحوش الجبال . . اكتب بقى على كيفك من غير مؤاخذة !

وابتسمت لعبودة ولم اتكلم ، وعلى الفور ضرب عبودة يده فى جيبه واخرج ورقة بنص جنيه وناولها لواحد من وحوش الجبال وقال فى حزم شديد : هات لنا سمك حفار علشان نتغدى ، وقبل ان يهم الرجل بالانطلاق قال : بس خد معاك مدفع .

وراح عبودة يوزع المسئوليات على رجاله ، روح انت هات عيش وفجل . . وانت هات لمون ، وانت هات جبنة اسطمبولى ، وكان يأمر كل واحد منهم : . بس خد معاك مدفع . وعندما انصرف الرجال سألت عبودة . . همه الرجالة رايحين جنب المعسكرات ؟ ولما اجاب بالنفى سألته . . طيب وليه يأخذوا معاهم مدفع ؟ وقال وهو يغمز لى بعينه . . عشان يتوصوا ، اصل دى عالم تخاف متختشيش . وفجأة صفق عبودة بيديه وحضر رجل عجوز محنى الظهر ، وسرعان ما غاب داخل العشة عندما طلب منه عبودة أن يجهز المسائل ، ثم عاد ومعه جوزة ومنقد وورقة معسل من أفخر الاصناف ، وضرب عبودة أصابعه الخمسة فى العمامة وأخرج لفافة من الورق السوليفان وفضها بسرعة ثم اخرج من الورق قطعة حشيش قضمها بأسنانه وشمها بمزاج وقال وهو يمصمص بشفتيه . . أحسن صنف واللى خلق الخلق . . دلوقت هنشرب حاجة نضيفة !

وراح عبودة يحكى وهو يسوى قطع الفحم المشتعلة عن كفاحه ضد الانجليز فى القناة ، ويروى تاريخ حياته كله وأعماله البطولية التى سيذكرها التاريخ بدون جدال . . وعندما انتهى من سرد قصته الطويلة سألته : وعملتوا عمليات ضد الانجليز ؟ ورد فى هدوء : لسه !

وقلت له وأنا أتفرس المكان كله . . امال امتى هتطلعوا ؟ وأجاب فى هدوء أشد : لما القمر يغيب .

ونظر الى نظرة فاحصة وقال وعيناه مصوبتان فى عينى . أنا تشوفنى طول ما القمر طالع . . لما القمر يروح ، ما تشوفنيش ، هابقى فى الجبل من غير مؤاخذة . . وهاشيب الانجليز واللى خلق الخلق ، على الحرام من بيتى ما هاسيب انجليزى واحد فى بلدى . . يا خبر اسود يا جدعان ، ثم سحب عبودة مسدسا ضخما كان يخفيه فى طيات ملابسه وأطلق عدة طلقات فى الفضاء !

جاء الرجال من الخارج وأكلنا حتى شبعنا ، وكانت الكميات المطروحة أمامنا تؤكد بعد نظر عبودة .

فقد بذل الباعة بسخاء من أجل خاطر المدفع الذى حمله كل رجل وهو فى رحلة البيع والشراء !

ولقد مضت أيام طويلة بعد ذلك ، وغاب القمر وطلع القمر أكثر من مرة ، ومع ذلك لم يختف عبودة ، ولم يلجأ للجبال ! ظل مكانه فى الخرابة الى جانب عشة الصفيح يدخن الحشيش ويأكل السمك الحفار ويستعرض جيشه داخل الخرابة ، ولم يكن فى السويس أى نوع من أنواع الحركة ضد جيش الاحتلال ، وكانت الحياة تدور داخل المدينة بشكل عادى دون أى تغيير ! الرجال يشربون الشيشة على المقاهى . والانجليز يطلقون النار على الناس حول السويس .

وذات جلسة مع حامد عبدالعزيز فى اللوكاندة اتفقنا على أنه مادامت المعركة لم تنشب بعد فى المدينة فلا أقل من أن تنشب على صفحات الجرايد ، وفعلا بدأت المعركة الصحفية عن أعمال وهمية للفدائيين داخل السويس ، وهجوم مسلح فى الخيال على معسكرات الانجليز فى الصحراء ، وارتفع التوزيع فأغرى عددا كبيرا من الصحف الى سلوك نفس الطريق ، وبدأت المعركة تأخذ طريقها على صفحات الصحف حتى بلغ عدد القتلى الانجليز عدة ألوف يزيدون قليلا عن عدد الجنود الموجودين فعلا فى منطقة القناة !

ونشطت الصحف فى هذا الاتجاه وتطورت الى شىء مضحك ، عربة كرنب تنسف معسكرا ! قطط مشتعلة بالنيران تقتحم معسكر الطيران فى الشلوفة وتحرق جميع الطائرات !

وفجأة دخل علينا فى الليل رجل يبدو عليه الادب الشديد يرتدى بنطلونا أصفر وقميصا من نفس اللون ويرتدى نظارات شنبر . . ودعانا الرجل فى أدب جم لمقابلة الصاغ عبدالجبار قائد كتيبة أحمد عبدالعزيز ، وكدت أرقص من شدة الفرح ها هى الكتائب بدأت تفد على السويس ، كتائب محترمة وقادمة من القاهرة من أجل الكفاح ! سنسمع طلقات الرصاص أذن ، وسيسقط العشرات قتلى من جنود الاحتلال !

كان الصاغ عبدالجبار يجلس فى بهو فندق بلير ، ولم يكن يرتدى زيا عسكريا ، ولكنه كان يبدو فى بنطلونه وقميصه والبلوفر الازرق كأنه طالب جامعى على وشك التخرج !

وخلال الحديث الذى امتد ساعات اكتشفنا ان حضرة الصاغ لم يدخل الجيش فى حياته ولكنه كان متطوعا فى حرب فلسطين وانه انعم على نفسه بهذه الرتبة وهو فى طريقه الى السويس ، وان معه مجموعة من الرجال أغلبهم كان متطوعا فى حرب فلسطين ، وانهم جميعا على دراية بحرب العصابات ، وقبل ان ننهض عند منتصف الليل قال عبدالجبار . . بس انا عاوز الصحافة تساعدنى عشان نجمع

شوية فلوس ! ولم نفهم العلاقة بين الكتيبة والفلوس . . ولكن عبدالجبار تولى توضيح المسألة بنفسه . . عاوزين نشترى سلاح ومهمات !

اثار حضور كتيبة احمد عبدالعزيز غيظا شديدا لدى عبودة ورجاله . . وحضر عبودة فى اليوم التالى وهدد باتخاذ اجراءات عنيفة ضد كتيبة أحمد عبدالعزيز . . وقال وهو يلوح لنا بقبضة يده . . اية الحكاية ؟ هيه السويس مافيهاش رجاله . والا ايه . . على الحرام ماحد يكافح الا احنا ، وبدا لى عبودة يائسا ومنهارا ومتغاظا ولا شيء بعد ذلك .

هذا الفحل الرهيب الذى بدأ حياته حارس مرمى فى احد نوادى السويس ثم عسكرى مطافى ثم مقاول لم يلبث ان فشل عند اول عملية قام بها لبناء عمارة ، ثم قائدا لكتيبة وحوش الجبال . . . وقف حائرا وسط الغرفة وبصره يتسكع على وجوهنا يريد ان يستشف حقيقة موقفنا من الكتيبة الجديدة ، وفجأة صرخ فى وجهى . . لازم تكتبوا حاجة عن الكتيبة بتاعتنا من غير مؤاخذة أحنا هننسف خط سكة حديد الليلادى !

احتدمت المنافسة بين الكتيبتين فى السويس على جمع المال والتقرب من نائب سابق كان أقوى وأهم رجل فى السويس تلك الأيام ، وكان نائب السويس الوفدى تاجرا طيبا ومنهارا أغلق باب بيته على نفسه وترك الامور تسير كما تشاء ، وانفرد النائب السابق بالأمر ، وراح يجتمع كل مساء بالفدائيين فى فندق بلير ثم يسهر مع اصدقائه يلعب القمار داخل الفندق حتى الصباح .

وكان النائب اياه لونا فريدا من الرجال . كان يسهر كل ليلة حتى الصباح قبل ان تتطور الامور الى ما أنتهت اليه مع ضباط الجيش الانجليزى وكبار المسئولين فى المحافظة ، وكان يربح الألوف وينفق الالوف ، وكان شعاره اشترى الرجال بالمال . ولم يحدث ان فشل قط فى تطبيق هذا الشعار ، وكانت اعماله مرتبطة ببقاء الانجليز فى المنطقة ، وعندما تطورت الامور الى الثورة المسلحة القى بنفسه فى احضان الفدائيين ، يمدهم بالمال والسلاح ولكن بشرط ان ينفذوا تعليماته وان يأتمروا بأوامره !

وأصبح زكى وليس هذا اسمه هو محور الكفاح والنضال فى السويس.ولقد كان لقائى به أول مرة ، ذات مساء فى فندق بلير . عندما هجم علينا الجرسون يحمل ثلاثة أقداح ويسكى على حساب زكى بك الذى أقسم أن نشرب على حسابه حتى الصباح . ولم يلبث ان انتقل بنفسه الينا ، وجلس معنا يتحدث طول الليل عن موقفه من المعركة ثم رأيه فيما ينبغى أن تكون عليه الاحوال وكان رأيه أن الانجليز أساتذة فى السياسة ، وعلى من يريد أن يحاربهم أن يستخدم هذا السلاح ، وان الثورة المسلحة ضد الانجليز لن تؤدى الى شيء الا الفوضى

والخراب ، وغمز حكومة الوفد القائمة وقتذاك ولمح بالفساد والرشوة المتفشية فى أنحاء البلاد ، وحول المسألة من حرب تحرير الى كفاح ضد الفساد .

وقبل أن ننهض لننام قال كأنه يتوسل . . خدوا بالكوم من الواد عبودة ، دا عبوده زعلان قوى ، لازم تكتبوا عنه كلمتين ! وكانت هذه أول اشارة الى أن هناك علاقة ما بين عبودة وزكى بك ولكن ما هى حقيقة العلاقة علم ذلك عند علام الغيوب .

ولقد أصبحت منطقة القناة مسرحا لنشاط الغالبية العظمى من الصحفيين بعضهم اجتذبته المعركة ليفوز بزجاجات الويسكى الرخيصة ، وخراطيش السجاير الارخص . وبعضهم جاء ليحقق على الورق بطولات وهمية ، وكانت حصيلة المعركة فى النهاية ٨٠٠ قتيل وعدة ألوف من الجرحى ولم يخدش صحفى واحد مع انهم جميعا كانوا على مقربة من المعارك وكانوا مع الفدائيين وسط الحديد والنار ! . .

ولكن قبل أن تحترق القاهرة وقعت فتنة فى السويس كادت تؤدى الى كوارث رهيبة . واتفق الصحفيون جميعا على عدم نشر أى شىء حول الموضوع . ولكن المصور نقضت الاتفاق ونشرت الموضوع كاملا بالصور . هل كان الامر مصادفة . أنا أقول لا ، بل كان الامر متفقا عليه . ولعبت مجلة المصور هذا الدور الغريب ، ولكن الامور ـ لحسن الحظ ـ مضت فى هدوء . . وصحيفة أخبار اليوم ايضا نشرت قبل ان تنتهى المعركة بأيام قصة جلالة الملك المفدى الذى كان يتمنى أن يهب المعركة بعض أبنائه ، ولما كان لا يملك أبناء يقدمهم للمعركة ، فقد اكتفى بتقديم عدة آلاف من الجنيهات . ووزعت أخبار اليوم المبلغ على عبودة وكتيبة أحمد عبدالعزيز وبعض اللصوص وتجار الحشيش فى القناة .

ثم احترقت القاهرة . وتوقفت المعركة فى السويس واضطررت الى الابحار من السويس على ظهر المركب تالودى ولم اغادرها الا فى الاسكندرية . والسبب ان زكى بك وعصابته أتفقوا مع ضابط كبير بسلاح الحدود على قتلى فى الطريق الصحراوى ، وفى ليلة ١٨ فبراير عام ١٩٥٢ صعدت على ظهر المركب تالودى القادمة من عدن . وكان معى كامل سالم مأمور السويس والصاغ زكى جبران واليوزباشى محمد عسل قائد بلوكات النظام . ولم يغادروا المركب الا بعد ان تحركت ودخلت قناة السويس واطمأنوا الى اننى قد أصبحت بعيدا عن قبضة زكى بك وعصابته .

عندما عدت الى القاهرة قادما من السويس كانت أغلب الصحف الوطنية قد توقفت عن الصدور . وكان أغلب كتاب هذه الصحف فى السجون والبعض

الآخر يطارده البوليس السياسي ، ومصر كلها تنام من المغرب بالامر ، والرصاص الشارد يدور فى سماء المدينة حتى الفجر ، وحصل الصحفيون وأنا منهم على تصاريح بالتجول فى الليل .

وكانت فرصة ليجتمع أصحاب التصاريح فى دار النقابة ليلعبوا القمار للفجر . . وبالرغم من ذلك فلابد أن نذكر للحقيقة والتاريخ . أن الصحف رغم ضعفها ، قد استطاعت خلال عامى ١٩٥٠ و١٩٥١ أن تدق آخر مسمار فى نعش العهد الملكى ، فقد تقدم عدة أفراد يحملون المعاول وهات ياهدم فى النظام القائم . فتحى رضوان .واحمد حسين واحسان عبدالقدوس واحمد ابوالفتح وابوالخير نجيب وابراهيم شكرى وحلمى سلام . وخلال تلك الفترة ايضا نشر مأمون الشناوى زجله الشهير :

ياترسملونا يا تبلشفونا
يا تموتونا وتخلصونا
ملعون أبوكو على أبونا
احنا اللى نشقى
ونبص نلقى
خراب وسرقة
من عند برقة
لحد سينا

وفى تلك الفترة ايضا نشرت كلمة قصيرة فى مجلة الملايين عن حيدر باشا قائد عام الجيش المصرى وقلت فيها بالحرف الواحد « ويضعه الخبراء العسكريون على رأس جنرالات الحرب فى العالم وعلى رأسهم جنرال موتور وجنرال اليكتريك » .

ولكن ذلك العهد الذهبى للصحافة كان قد انتهى الى الابد ، وأصبحت الصحف تحت الاحكام العرفية حافلة بالكلام الفارغ ، وانتعشت دار الهلال لانها لا تنتعش الا فى ظل الرقابة والحكم العرفى ، وانتعشت الاهرام أيضا لانها كانت دائما على الحياد بين الشعب والحكومة . وبدا واضحا ان أخبار اليوم على صلة وثيقة بالحكم الجديد وهى التى رفعت شعار التطهير ، وهو الشعار الذى جاء بالهلالى باشا الى لاظوغلى . . مقر رئيس الوزراء .

هكذا كانت الحياة تغلى فى البلاد بينما مجلة النداء تنام فى واد آخر بعيد . المرتبات أصبحت تتعثر كأنها سيارة تمضى على طريق صعب ملىء بالحفر والمطبات ، ثم راحت تتضاءل كأنها غيط قطن نزلت عليه الدودة . وتولى منصب مدير التحرير فيها صحفى داعر اقترح ضمانا للسلامة وحتى تتكشف الامور اصدار أعداد خاصة عن المدن الهامة فى مصر ، لتكون وسيلة للحصول على أكبر

عدد ممكن من الاعلانات ، ووقع الاختيار على العبد لله للسفر الى بورسعيد مع مندوب اعلانات اسمه عبدالبصير . وكانت مهمتي هى تحرير موضوعات عن الميناء وقناة السويس ومراكب الصيد وشاطىء بورسعيد بينما راح عبدالبصير يسرح فى المدينة لجلب اكبر عدد ممكن من الاعلانات والفلوس . .

وبدلا من ان نقضي عشرة أيام كما اتفقنا . . قضينا شهرا كاملا على الشاطىء نأكل الكابوريا والسمك المشوى ، ونستحم فى البحر وننفق عن سعة كأننا من أفراد عائلة المرحوم أغاخان .

كان عبدالبصير هو المسئول المالى عن الرحلة ، الحق انه كان كريما الى حد السفه ، وكان ينفق بجنون كأنها آخر رحلة لنا فى العمر . . ولم أسأله أنا عن مصدر الفلوس ولم أهتم بهذا الموضوع على أى نحو !

وكان عبدالبصير نموذجا غريبا فى دنيا الصحافة . كان مدرسا الزاميا فى احدى قرى المنوفية قبل أن يهجر قريته ويلتحق بوظيفة مندوب اعلانات بمجلة النداء ، وكانت واسطته نائب وفدى طيب اسمه أبوالعنين جعفر ، رحمه الله ، وكان عبدالبصير يدق عصفورة على صدغه الايمن ، واشجارا ونخيلا على كف يده ، وكان شديد الذكاء يعرف كيف ينفذ الى قلب العميل ببساطة . وكان يدعى أمام زبائنه من التجار والبقالين أنه عليم ببواطن الامور ، وأنه وثيق الصلة بفؤاد باشا ، وان زكى العرابى باشا لا يأوى لفراشه قبل أن يتحدث معه بالتليفون .

ولقد تعرفت من خلال عبدالبصير الى رجل ثرى فى بورسعيد اسمه الأيوبى ، كان سمينا وطيبا وجاهلا بدرجة ليس لها مثيل .

وعندما جلسنا مع الايوبى على رصيف عمارته الجديدة ، زف الينا بشرى ترشيح نفسه فى الانتخابات القادمة ، ولما زف اليه عبدالبصير التهانى بالنجاح والفلاح والنصر المبين ان شاء الله قال الأيوبى حزينا : بس النحاس باشا مش راضى ، غضبان على . . أنا قلت أنا مستعد أدفع خمسة الاف جنيه بس يسيبونى أترشح ! وحدق عبدالبصير فى الأيوبى ولم يتكلم ، رفع يديه الى أعلى وقرأ الفاتحة قال عبدالبصير للرجل ، الحكاية دى خليها على ، النحاس باشا مش هيمانع ، بس ما تجيبش سيرة لحد !

وعقب الأيوبى الطيب : ايه . . هو أنا عبيط أجيب سيرة لحد .

ونهض على الفور ونادى على أحد الخدم وأمره بأن يحضر الخروف والجزار فى الحال ، وأقسم أيضا يمينا أنه لابد أن يذبح الخروف من أجل خاطر عبدالبصير . . وجلسنا فى المساء حول وليمة فاخرة وزجاجات الويسكى بلا حساب رغم أن الايوبى لم يكن يشرب ، ولكن ولد خلبوص كان يعمل

مستشارا عنده أسمه جودة هو الذى همس فى أذنه بأن البهوات ـ عبدالبصير وأنا ـ لابد نشرب الويسكى مع الطعام .

وفى نهايةالسهرة كان عبدالبصير قد حصل على أعلان بألف جنيه . . ومائة جنيه فكة لعبدالبصير شخصيا عربون المساعى الحميدة التى سيقوم بها لدى رفعة الباشا لتذليل كل الصعاب التى تعترض ترشيحه .

ولكن خلال هذه الفترة التى قضيتها فى بورسعيد وقع بصرى على شيء غريب ورهيب ، مراكب ضخمة تعبر قناة السويس من ناحية الشرق ، وعليها عساكر فرنسيين جرحى. وفى حالة يرثى لها قادمين من الهند الصينية . . ومع هؤلاء العساكر . . عساكر عرب من المغرب والجزائر وتونس ، أحيانا يهربون من المراكب ويلجأون للسلطات . ولكن السلطات تسلمهم مرة أخرى للمراكب . . باعتبارهم جنودا فرنسيين هاربين من الخدمة ، مع أنهم عرب أولاد عرب ، أحفاد عرب ، ومن دين محمد عليه الصلاة والسلام .

ولقد هرب احدهم وأنا هناك واسمه عبدالرحمن ، كان قبل تجنيده أستاذا فى جامعة باريس ، وعندما نشرت قصته رفضت حكومة مصر تسليمه واشتغل أستاذا فى جامعة القاهرة . .

وعدت الى القاهرة بعد شهر حافل بالمتعة والراحة ، وعكفت بعيدا مشغولا ومطهوما بكتابة الموضوعات عن بورسعيد . .

وفجأة ، علمت ان الرجل الطيب عاد من الهند ، وأنه عاد مريضا وحزينا ومفلسا وقلقا على مستقبله كصحفى ابتعد عن الجو عدة أعوام . .

وعندما زرته فى بيت بعض أقاربه وكان قد لجأ اليه حتى يتقرر مصيره ، راح يحدثنى كالمسحور عن عالم الهند الغامض الساحر الفقير العجيب ، مصر بمشاكلها وفقرها لا تساوى قطرة فى محيط المشاكل التى تزخر بها الهند ، وعلى من يريد ان يكتشف روح الانسانية وان يقف بنفسه على مأساة العصر ان يذهب الى الهند ويتفرج بنفسه على ما يدور هناك .

وسحرنى حديثه عن الهند وتمنيت ان أذهب مثله الى هناك . ثم حدثنى عن الفن وعن الادب وعن السياسة ، معركة القناة هى أشرف نقطة فى تاريخ مصر الحديث ! العالم كله كان يتابع أنباء المعركة لحظة بلحظة .

كم كان الرجل فخورا كمصرى ورصاص الفدائيين يخترق سماء الشرقية والسويس .

هكذا كانت الصورة فى الخارج أذن . . يبدو ان الصورة فى ذهنى كانت باهتة لاننى كنت داخل البرواز ، لاننى رأيت عبودة والاسرى الثلاثة وافراد كتيبة وحوش الجبال .

هكذا الاشياء لا تبدو قيمتها الا من بعيد ، أو يبدو انى لا أدرك قيمة الشيء اذا بدأ أى نقص فيه ، وقلت للرجل الطيب كل شيء ، تفاصيل الاحداث وتفاصيل المعارك والجهود الشريفة لعساكر البوليس وبعض اللصوص وبعض الرجال الطيبين مثل سعد زغلول فؤاد الصحفى ومدحت عاصم الفنان ووجيه أباظة الطيار وبعض الطلبة الجدعان الذين حملوا السلاح ومضوا الى خط النار . وهمست للرجل الطيب بأن فى نيتى ان اكتب كل شيء ، ولكنه نصحنى ألا أفعل .

ستسكب حبرا على الورقة البيضاء ، وستضع حفنة تراب فى إناء اللبن .

هكذا قال الرجل الطيب ، سيأتى الوقت الذى يجب فيه عليك ان تكشف الستار عن كل شيء ، ولكن عليك أن تكتشف متى يأتى هذا الوقت المناسب . . فاذا اخطأت التقدير فسوف تخدم بكتاباتك قضية الرجعية والاستعمار .

لقد اسمتعت الى نصيحته فلم أكتب حرفا الا بعد أن جاء الوقت المناسب ، ولقد جاء الوقت المناسب أسرع مما توقعت .

كنت فى المجلة فى المساء وعبدالبصير يحثنى على الاسراع فى الكتابة لان العدد الخاص على وشك الصدور . .

وظللت أكتب حتى أغمى على وخرجت من المجلة فى منتصف الليل الى البيت فى الجيزة سيرا على القدمين .

وعندما استيقظت من النوم كانت الساعة الحادية عشرة صباحا وعلمت ان الراديو مقطوع ولا يذيع شيئا منذ الصباح الباكر وان اشاعة منتشرة فى المدينة أن أنقلابا عسكريا قد حدث .

وارتديت ملابسى على عجل وخرجت مهرولا الى بيت طوغان ، وكان عند طوغان عدد من الاصدقاء . . لا أذكر منهم الان الا شقيقه صلاح والدكتور عبدالمنعم عثمان المدرس بكلية الهندسة جامعة القاهرة .

واكد طوغان الخبر ولكن بلا تفاصيل .

وفتحنا الراديو الميت على محطة القاهرة وجلسنا ننتظر ، كانت الساعة الثانية عشرة ظهرا واليوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، وكان طوغان فى السادسة والعشرين من عمره وكنت فى الخامسة والعشرين الا بضعة شهور ، وكان الدكتور عبدالمنعم عثمان فى الرابعة والعشرين وعدة شهور ، وكان صلاح طوغان فى مثل سنه .

مجموعة شباب فى عمر الورد ، حيارى وسط أنواء السياسة المصرية ، ضعاف بلا حول فى مجتمع يدوس بقسوة على الضعفاء . . غير مؤمنين بما هو كائن . . ولكن ليس لدينا خطة بما ينبغى ان يكون .

خلاصة القول ، أننا مجموعة من الوطنيين نحب الوطن المريض ولكنّ ليس لدينا وجهة نظر بشأن علاج هذا الوطن الذى أشرف على الهلاك المبين !

وفجأة . . عادت الحياة الى الراديو الميت . وانطلق صوت أنور السادات يعلن للناس قيام الثورة ، وصرخت من أعماقى كالمجنون ، وخلعت فردة حذائى وقبلتها من شدة السرور والحبور لماذا ؟ وكيف ؟ والى أين ؟ أسئلة لم يكن لها جواب فى رأسى . . ولم يكن الجواب عنها مهما على الاطلاق ، المهم أن الاحوال قد انقلبت رأسا على عقب ، وهذا كل ما كنت أتمناه .

أهم من هذا أن أنور السادات هو الذى يذيع البيان ، هذا الرجل الذى نعرفه ! فقد كان يتردد على كازينو شهريار فى الجيزة يشرب فنجانا من القهوة مع صديق اسمه حسن عزت كان طيارا فى تلك الايام .

وذات مساء حضر فى ملابس مدنية وجلس مع طوغان ثم انضممت اليهما ، وراح يتحدث عن الاوضاع فى البلد ، والجنون الذى يتخبط فيه النظام ، ثم نهض وانصرف ونهضنا معه حتى ودعناه عند الباب ، وسألت طوغان ونحن نجلس حول المائدة .

مش دا ضابط فى الجيش ؟ وأجاب طوغان بالايجاب ، فسألته . . طيب أمال ليه بيقول الكلام ده ؟ وكان غريبا فعلا ان يجاهر ضابط جيش بعدائه للنظام ، وقال طوغان بطريقته وهو يضرب راحة يده الشمال بقبضة يده اليمين . . يا بنى لو حصل حاجة فى البلد دى يبقى الراجل ده فيها . . وضغط على « الراجل ده » بشدة ! ، ولم أهتم بكلمات طوغان كالعادة . . ولكنى عدت فتذكرتها تلك الساعة ، وقمنا يعانق بعضنا بعضنا ، ثم هرولنا جميعا نحو الشارع .

وهكذا اصبحت مندوبا للمجلة فى القيادة العامة ، فقد استقبل اصحاب المجلات الرجعية الحركة الجديدة بقليل من الترحيب وكثير من الحذر . وأرسلوا أقل المحررين شأنا ليتفاهموا مع حركة الضباط . . ولما كان هذا الوصف ـ أقل المحررين شأنا ـ ينطبق على العبد لله ، فقد أصبحت واحدا من طقم مندوبى القيادة ! ولما كانت مجلة النداء ليست فى حاجة الى أخبار ! ولما كنت أنا الآخر لا أهتم بهذا اللون من العمل الصحفى على الاطلاق . . فقد اكتفيت بالجلوس على باب القيادة اتفرج على الزوار المترددين على مقر السلطة الجديدة ، ولم يكن جهلى بما يجرى فى داخل القيادة أقل من عدم اهتمامى بهذا العمل الجديد . . فلقد كان محمد نجيب يبدو فى الصورة على أنه زعيم الثورة ، بينما كانت الشفاة تهمس بأسماء أخرى وتؤكد أن اصحاب هذه الأسماء هم القادة الحقيقيون للثورة .

ولكن أنا شخصيا كنت قد وصلت الى قرار فى هذا الشأن وهو أن أنور السادات هو زعيم الثورة ، وهو الذى اذاع البيان ، وهو الذى رأيته بعينى رأسى يجلس فى كازينو شهر يار يلعن سنسفيل جدود العهد البائد !.

ويوم خروج الملك فاروق من مصر خلعت قناع الوقار الذى أرتديه أحيانا كصحفى ووقفت أرقص عشرة بلدى فى ميدان عابدين وسط الجموع الحاشدة بينما كانت الدبابات تحيط بالقصر الملكى من كل ناحية . ولأول مرة اشعر انى لا أخشى الدبابة . لقد كان منظرها دائما يبث الرعب فى نفسى ، حتى يوم قيام الثورة شعرت بنفس الخوف وأنا أتجول فى شارع قصر النيل لأن الراديو كان قد حذر من التجمهر فى الشوارع . وعندما نسينا هذا الأنذار فى غمرة الفرحة ووقفنا أكثر من عشرين شابا تحت عمارة الايموبيليا نتكلم بصوت عال للغاية ، اقتربت منا عربة مصفحة وأمرنا الضابط بالانصراف . . وانصرفنا فى سكون حتى انصرفت العربة المصفحة ، ثم عدنا الى التجمهر من جديد وفى نفس المكان . ولكن عسكرى الدورية الطيب اقترب منا وقال فى لهجة ناصحة « ياللا يا فندى انتوهو ممنوع الجمهورية »!.

كانت الثورة فرصة للعبد لله لكى يشرع قلمه من جديد ليكشف كل شىء دار فى السويس خلال معركة القناة . وعندما تعرضت لرجل هناك يدعى سيد السايس وهو ثرى أمثل بدأ حياته سائسا فى جراج ثم انتهى صاحب جراج ودار سينما ومتعهد للجيش البريطانى . كان يزعم انه اشترك فى المعارك عام ١٩٥١ وأنه وضع جميع سياراته فى خدمة الفدائيين وكانت السيارات تدخل المدينة كل يوم تحمل شحنات الاسلحة المهربة ، هكذا كان سيد السايس يزعم ، غير أن الحقيقة كانت عكس ذلك ، فقد كانت سيارات السايس لا تحمل فى الواقع الا شحنات الحشيش ! وفوجئت فى العدد التالى لنشر الموضوع بخبر صغير فى الصفحة الأولى « فصل محمود افندى السعدنى من وظيفته بالمجلة » هكذا تحولت بخبر من سطرين الى افندى مفصول من وظيفتى بالمجلة ! وعلمت بعد ذلك أن سيد السايس حضر من السويس ودفع ألف جنيه مقابل نشر اعلان وبشرط فصلى من المجلة .

وما كان أسهل الفصل فى تلك الأيام . وبينما كان يلمع على سطح الحياة الصحفية عدة افراد من الكتاب ، كان يعانى المئات من المخبرين والمحررين الصغار القلق والعذاب والطرد الى الشارع وبلا مكافأة على الاطلاق ، حتى مرتب الشهر الذى اشتغلته لم اقبضه !.

وهكذا عدت والثورة لم يمر عليها سوى شهر واحد الى الشارع عاطلا مفلسا

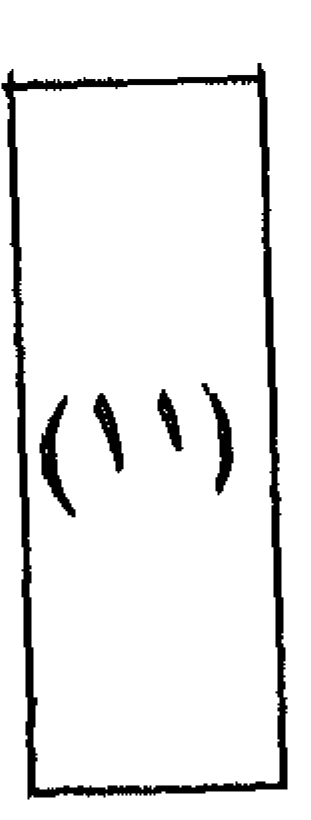
ولكن بأمل جديد . . أن الأمور لن تلبث طويلا حتى تعود الى الوضع الطبيعى الذى ينبغى أن تكون عليه ! ولم لا ؟ وأنا من جيل الثورة . . هؤلاء الكتاب الكبار تعفنوا تماما وتورطوا فى النظام الملكى حتى اصبحوا جزءا لا يتجزأ من النظام .

الصحفى الكبير الذى كان كل مجده فى الحياة انه يرافق جلالة الملك فى رحلاته للخارج ، والذى تلوك الألسنة سيرته على أنه كان يوما ما عشيقا لجلالة الملكة الأم ! والصحفى الكبير الآخر الذى كان يجلس على مائدة الملك ليضحكه حتى يستلقى الملك على قفاه . . والصحفى الكبير الثالث الذى اراد الملك ان يمزح معه فدفعه الى حوض السباحة وهو فى كامل ملابسه . . ثم خرج من حمام السباحة يشكر جلالة الملك (!) على هذه اللفتة الكريمة التى خص بها صاحبة الجلالة الصحافة دون سواها من الهيئات .

هؤلاء السادة اصبحوا جميعا بهوات وباشوات وبعضهم يحمل نيشان محمد على ! لابد أن الثورة ستنحيهم عن الطريق لتفسح لجيل العبد لله طريقه فى الصحافة . والأقلام التى سبحت فى بحر النفاق لجلالة الهلفوت الذى يتربع على العرش لابد ستتوارى الآن خزيا عن أعين الشعب ! .

ولكن . . ما أغرب الحياة . نفس الأقلام هبت تقاتل مع مواقع الثورة وكأنها هى التى صنعت كل شيء ! وراحت هذه الاقلام تكتب بشراهة عن مجون الملك وجنون الملك ، والملك على الشاطىء الآخر من البحر الأبيض المتوسط .




(١١)

١١

أخيرا تأكد أصحاب هذه الاقلام أن كل شيء قد انتهى بالفعل فتحولوا الى دود يأكلون من الجثة التى تحولت الى جيفة !! وطاف بنفسى المذعورة خاطر كئيب . وهو ان كل شيء سيبقى فى غابة الصحافة على ما هو عليه . . الوحوش فى الصدارة والموهوبون يتخبطون فى الظلام . .

الى اين أذهب الان وانا مفلس وعاطل وضائع ويبدو انه لم يعد لدى امل فى العودة مرة أخرى الى عالم الصحافة . . وانا رجل فى اعماقى متشائم وحزين رغم ما يبدو على من سعادة ليس لها نظير . .

وعدت من جديد الى مكانى على باب القيادة رغم أننى لم اعد امثل احدا الا نفسى وفوجئت بزميل آخر جاء يمثل المجلة فى دار القيادة ، ولذلك اكتفيت بالجلوس دون ان أسال أحدا او أتكلم مع أحد !

أذن لماذا جلست عند الباب ؟ لا أدرى . . سوى انى لم اكن أعرف شيئا آخر أصنعه . على الاقل أنا من هذا المكان اتفرج على عشرات من الاشخاص الذين يصنعون التاريخ فى تلك اللحظات من عمر الوطن . ولكن انا لست من هذا الطراز من الناس الذى يستطيع ان يجلس فى مكان ولا يلفت اليه الانظار ، إننى من طراز آخر يلفت الانظار رغم انفه ، وأيضا يجر على نفسه المصائب .

فلقد رحت أقلد محمد نجيب وهو يخطب فى حركات كاريكاتيرية . . وكان الصحفيون يلتفون حولى وانا أخطب للجماهير الوهمية المحتشدة امامى ، وجذبت الضجة الوانا أخرى من الناس خارج دائرة الصحافة . . عساكر وضباط وبعض الزوار ولكنى لم اتوقف . وعيبى الكبير انى لا أجيد تقدير الاشياء تقديرا حقيقيا . احيانا ابالغ فى تضخيم الشيء واحيانا أبالغ فى تحقيره والناس فى نظرى نوعان ، عدو حتى الموت او صديق حتى النهاية .

ولقد كان لى رأى فى بعض مندوبى الصحف فى القيادة ، ورحت اجهر بهذا الرأى فى كل مكان . أحدهم وكان مندوب جريدة كبرى كان مرتشيا ومغامرا

وأفاقا . وكان له موقف مريب خلال معركة القناة . . وكان وثيق الصلة بضباط القسم المخصوص وبوليس السراى . وكان يقوم بخدمات فى الظلام لجميع الاجهزة التى كانت تحكم مصر فى العهد البائد ، وعندما قامت الثورة هرع الى القيادة العامة ، وكان انشط الجميع واعلاهم صوتا . وكان يقف على باب القيادة يرحب بالقادمين كأنه صاحب الفرح ، ويتحدث عن قادة الثورة ، باعتبارهم رفاق الصبا واصدقاء الطفولة ! ولقد حوكم هذا الصحفى بعد ذلك أمام محكمة الثورة وادين وذهب الى اللومان ليقضى مدة العقوبة .

وصحفى آخر بدأ حياته فى حانات شارع عماد الدين ، ولما انتقل نبض الحياة الثرية الطرية فى مصر من صالات شارع عماد الدين الى صالات الاحزاب السياسية ، انضم الى الحزب السعدى واصبح فتوة للمرحوم حامد جودة رئيس مجلس النواب ، فلما غربت شمس الحزب السعدى وتولى الوفد مقاليد السلطة . . انتقل هو الاخر الى حزب الوفد واصبح فتوة لأحد الوزراء . فلما قامت الثورة انتقل على الفور ليعمل فتوة لصاحب مجلة كانت وقتئذ مشهورة بعدائها لكل الاحزاب ! ولم يجد صاحب المجلة من يرسله مندوبا عنه الى القيادة سوى الفتوة الخاص ، وكان الزميل إياه يتصرف هناك على أنه عليم ببواطن الامور . وكان حديثه كله يجرى ويدور حول حضرة الصاغ الذى لا احد منا يعرفه على الاطلاق والذى كان زميلنا اياه حريصا على اخفاء اسمه . . أصل حضرة الصاغ قال كيت . حضرة الصاغ كلمنى النهاردة فى التليفون وقال كذا . وكنا اذا سألناه عن الوقت أجاب . . الساعة كذا لكن ساعة حضرة الصاغ مقدمة شوية .

أما الزميل الذى حل محلى فقد كان شأنه اعجب من العجب . . كان صاحب صالون حلاقة فى سالف الزمان وكانت كل بضاعته فى الحياة وسامة واناقة كأنه مطرب مشهور . ولم يكن فى رأسه أى شىء ، ولم يكن قد قرأ اى شىء حتى كتب المطالعة . وكان ضعيفا فى الاملاء ، يرسم الحروف والكلمات ولا يكتبها . وكان يقسم خلال حديثه بالنهار العظيم ، وحياة دا النهار العظيم والا ينكسر وسطى . . وكان يطلق على دور الصحف وصف محلات . وكان يسأل كل زميل يقابله . . أنت بتشتغل فى أى محل ؟ يقصد جرنال .

وكان دائما يردد عبارة مشهورة . . انا كل ما روح محل الاقيه عاكس زى ما يكون حد عامل لى عمل . . وكان من عادته كل اسبوع كتابة تحليل للموقف السياسى الراهن . ويوم تحرير المقال يذهب الى كازينو أوبرا ويجلس فى التراس ومعه زميل غلبان يطلب له كباب وسلطة طحينة وواحد شاى ويشترى له علبة

سجاير ، ثم يجلس هو فى هدوء يدخن الشيشة حتى ينتهى الزميل من عشائه .
وعندئذ يطلب اليه ان يكتب له مقالا لانه مرهق وهو السبب الذى كان يسوقه كل اسبوع . أو مرهك على حد تعبيره هو نفسه .

ولقد اخذنى ذات ليلة حارة الى كازينو أوبرا وبعد ان تعشيت وشربت الشاى واشعلت سيجارة وحمدت الله ، جذب نفسا من الشيشة ، وناولنى قلم حبر باركر لم اكن قد استعملت مثله فى حياتى ، وقال هيه . . اسمع بقى انا اصلى مرهك ومش عارف اكتب . . أنا هقولك على الافكار وانت بس تعمل شوية انشا بس وحياة والدك تكتبهم كويس . ثم راح على الفور يشرح لى الخطوط العريضة فى السياسة المصرية لكى أصوغها أنا فى مقالى : اسمع . شوف بقى ، هيه المسألة ايه ، السفارة الانجليزية زعلانة ، أى كده وحياة دا النهار العظيم . وهيحصل كده شوية نكد . لكن ربنا يسلم انشاء الله ، واخذ بالك ، اكتب بقى .

وحدقت فى هذا الرجل الغلبان الذى لو استمر فى صالون الحلاقة فلربما صادف نجاحا لا مزيد عليه . ما الذى جعله يهجر مهنته الأولى ويقتحم غابة الصحافة ؟ ما الذى دفعه الى احتلال هذا المكان الذى يوجد فيه الان !! وما هى مقاييس النجاح اذن وما قيمة الجهد الذى بذله هؤلاء المؤلفون السذج فى تأليف الكتب الضخمة عن دليل الرجل الناجح فى المجتمع ، وابتسم تبتسم لك الحياة ، الى آخر هذا الكلام الفارغ . وما قيمة هذه العبارات المنمقة الجميلة التى تحتل أغلفة كراريس وزارة المعارف والتى تنصح ، أسهر الليالى فى طلب المعالى ، والتى تؤكد ان من يطلب العلا يعلى . هذا الصحفى الجالس أمامى يكذب كل النصائح وكل الكتب وكل القيم وكل المقاييس التى تعارف عليها الناس . لم يسهر الليالى ولم يطلب العلا ولم يسع للمكان الذى يشغله الان ، ومع ذلك فقد وجد نفسه فيه . وهو كاتب سياسى يحرر الموقف السياسى فى مجلة ذائعة الصيت ، او الموكف كما كان يسميه .

هل المسألة حظوظ ؟

أم أنه ليس بالكفاءة وحدها ينجح الانسان وانما بالصدفة أحيانا وبالفلوس و . . بأشياء أخرى أغلب الأحيان . .

لقد قرأت مرة لجوركى عبارة على لسان احد ابطاله يقول فيها : اذهب الى الميناء واشتر لنفسك بنطلونا جديدا ، انك ببنطلون جديد ترتفع فى أعين الناس ، فاذا سقط عنك البنطلون ، سقطت انت الآخر . اذن بالبنطلون الجديد تستطيع أن ترتفع فى أعين الناس ، وبالشقق و . . . تستطيع ان ترتفع فى الوظائف . ولكن حتى فى مهنة الكتابة ؟

يجوز أن يرتفع كاتب ردىء بهذه الوسائل الى مكانة الكتاب العظام . ولكن ان يرتقع رجل جهول يحتاج الى وقت طويل فى فصول محو الامية . فهذا هو الشيء الذى لا يزال فى حاجة الى تفسير .

ولقد كان الرجل طيبا الى حد انه نصحنى مرة بألا أشغل نفسى كثيرا بالكتابة . . أرحم نفسك شوية ، مانتش شايف طه حسين جراله ايه ، اهو فضل يكتب لحد ما عمى .

وذات صباح من شهر اغسطس سلخت الاستاذ اياه فى القيادة العامة وسخرت منه بشدة ، ويبدو أنه وشى بى عند احد الحراس ، لان احدهم جاءنى بعد فترة يسألنى لماذا اتواجد فى هذا المكان ، وفى أى الجرائد اعمل ؟

ولم استطع ان افسر وجودى بالفعل ، ولم استطع اثبات اننى أعمل فى أى مكان . ولكن رجل الحراسة كان طيبا رغم كل شيء فنهرنى بشدة وامرنى بالذهاب على الفور وعدم العودة الى هذا المكان . وحمدت الله على ان المسألة انتهت عند حد الزجر والطرد ولا شيء آخر .

وخرجت أجرى من القيادة وقلبى يدق بسرعة وبدنى كله يرتعش أنا ابن الجيل الذى كان يحلم بهذا اليوم . . يوم ٢٣ يوليو والذى ساهم بجهد متواضع فيه ، والذى كان ينتظر ان ينفتح أمامه الطريق لكى يمضى على طريق الثورة الى حيث تلتقى ارادتها وارادته ، أنا الذى تحولت الى عاطل ومفلس ومطرود أيضا من داخل القيادة ، لاننى فعلا بلا عمل ، ووجودى هنا مريب .

وعند الباب فوجئت بعربة سوداء كبيرة تقف ، وينزل منها الاستاذ الكبير محمد التابعى ، فقد كان على موعد مع محمد نجيب وانا كنت أعرف محمد التابعى معرفة جيدة ، رغم اننا لم نلتق الا مرة واحدة ولعدة دقائق لا تزيد .

فلقد كنت مدمنا على قراءة مقالاته . واعترف انني تعلمت منه الكثير . وانه الوحيد من بين كتاب الصحف الذى بهرنى بشدة وخلب لبى وجعلنى اتتبعه كالمجنون ! ياله من اسلوب رشيق وانيق ولاذع كان يكتب به التابعى تلك الايام . وعندما رأيته أول مرة فى عام ١٩٤٨ حين جاء يزور معرض طوغان ، صافحته بحب وهممت ان أقبل يده . هذه اليد التى تكتب مثل هذا الكلام بمثل هذا الاسلوب لابد ان تكون يدا من نوع آخر مختلف . وعندما طلبت منه ان اراه دعانى لزيارته فى أى وقت أشاء !

وصدقت أنا وقبلت الدعوة وذهبت بعد ذلك بأيام الى بيته فى الزمالك ، وصعدت السلم وثبا فقد رفض البواب أن أصعد فى الاسانسير بحجة أنه معطل !

وعندما وصلت الى باب الشقة كنت قد نزفت آخر انفاسي وطرقت الباب بخوف وبأدب شديد . وخرج لى عملاق اسمر من الداخل وسألته عن الاستاذ فقال : موجود . . مين انت ؟

وقلت على الفور وبزهو شديد للغاية : محمود السعدنى . . ونطقتها كأننى أقول نابليون بونابرت أو الجنرال ديجول أو المستر تشرشل !

وغاب الرجل دقيقة وعاد ليقول الاستاذ : مش موجود . . واغلق الباب ونزلت مجروحا اكاد أبكى وأنا أزحف على السلم ، ثم توقفت فجأة وأخرجت قلما وانتزعت ورقة من جيبى ، وكتبت عليها بالحرف الواحد : « تابعى » ان لى قلما كقلمك ولكنه أروع وأرفع ، وعندما يحين الوقت المناسب سأنشر على الناس قصة الذين يسكنون الزمالك ويكتبون عن الناس فى زينهم وحوش بردق . .

وصعدت السلالم من جديد وهممت بطرق الباب لاعطى الورقة للخادم . . ولكن لم افعل . . خشيت أن يضربنى الرجل العملاق ويسلمنى للبوليس ، فنزلت وأنا أزحف على السلم والورقة فى جيبى . ولعنت نفسى لأننى صدقت الاستاذ وزرته . وها هو التابعى امامى بلحمه ودمه على باب القيادة وانا أيضا على بابها . ولكن ما أبعد الفارق . رجل الحراسة الذى طردنى جاء مسرعا وضرب تعظيم سلام للتابعى . . بينما رحت انا ازحف فى شارع الجيش الى حيث لا أدرى .

عشرة اسابيع وانا قعيد البيت كالولية الخايبة أكاد أتمزق غيظا بينما مصر تموج بالحياة والحركة . وكانت أمى لا تكف عن النقار والشجار وقد غرقت فى بحر من الغم لان ابنها الكبير قد أصبح عاطلا . وعاد معظم أقربائى يلحون على فى ان استوظف فى الحكومة لأضمن دخلا ثابتا ثم أهوى الصحافة بعد ذلك كما أشاء ، وفعلا رحت اكتب طلبات لمديرى المصالح استرحم سعادتهم ان يلحقونى بعمل مناسب حيث أنى أعول عائلة كبيرة . . وبالطبع لم تجد هذه الطلبات شيئا فقررت السفر الى زفتى حيث كان يعمل أحد أصدقائى هناك ملاحظ مبانى .

ولا أدرى كيف اقتنعت بان ملاحظ المبانى سوف يستطيع الحاقى بوظيفة مناسبة . وفعلا سافرت فى قطار الصباح الى زفتى وعندما رآنى صديقى الملاحظ لم يبد ترحيبا كبيرا بى ، وعندما انتهى من عمله سحبنى الى حيث يقيم . واكتشفت أنه يقيم مع ثلاثة من زملائه فى حجرة رطبة عارية من الاثاث . وجلسنا جميعا نحن الخمسة فى صمت كئيب . ثم سحب احدهم حلة ووابور جاز ثم حدثت حركة مريبة فقد خرج احدهم من الحجرة ثم نادى على صديقى الملاحظ ثم خرج الجميع بعد ذلك وتركونى وحيدا فى الحجرة واستمعت وانا جالس فى الظلام والصمت نقاشا عاليا فهمت من خلال الكلمات المتناثرة ان الخناقة كلها

حولى ، ومن الذى سوف يدفع ثمن عشائى هذه الليلة ولقد احتدم النقاش بينهم بينما أصر صديقى الملاحظ على ان يتحمل الجميع ثمن عشائى لانه سبق له ان دفع نصيبه فى عشاء صديق أحدهم مرة من قبل ، واحسست اننى اذوب من شدة الخجل ، وتمنيت لو انشقت الارض وابتلعتنى كى اتخلص من هذا الموقف الرهيب الذى وقعت فيه . ولا أدرى ما الذى اتفقوا عليه ؟ ولكنهم عندما عادوا استأذنت منهم لحظة بحجة شراء علبة سجاير . وخرجت من الحجرة هائما على وجهى فى حوارى زفتى ، وفى المحطة اكتشفت ان ما معى من النقود لا يكفى لعودتى الى القاهرة بالقطار وفى الدرجة الثالثة !

وعدت الى القاهرة فى الفجر فى عربة نقل محملة بالفواكة ، ولم تكد تمضى أيام على عودتى حتى مر على فى البيت الصديق الطيب يوسف فكرى ودعانى للعمل معهم فى جريدة الجمهور المصرى . . وكان هناك محمد حمدى أول صحفى محترم صادفته فى أول حياتى الصحفية ، وكان هناك ايضا فتحى الرملى وكمال النجمى وطوغان وسعد زغلول فؤاد وابراهيم البعثى والامير المليجى ، وكان هؤلاء الصحفيون الوطنيون يعملون مع مجموعة من الصحفيين القدامى احدهم كان ينتحل لقب دكتور . كان يزعم انه وثيق الصلة بالحركات السياسية فى مصر ، فى الوقت الذى كان يعمل فيه سكرتيرا شخصيا للنبيل عباس حليم . وكان على صلة فى الوقت نفسه بعدد من رجال السفارات الاجنبية ، وكان يحمل مسدسا فى جيبه وكان يلوح به دائما اذا احتدم النقاش بينه وبين صاحب المجلة !

ومحرر آخر عجوز كان يعمل بالصحافة منذ عام ١٩٢٥ وكان على صلة بالبوليس السياسى وسبق له تزوير وثائق سياسية هزت مصر هزا خلال حكم الملك فؤاد ، وكان صالح ـ وهذا اسمه ـ خنزيرا بكل ما فى الكلمة من معنى ، ورغم اشتغاله بالصحافة كل هذا الوقت الطويل الا انه لم يكن قد قرأ فى حياته حرفا فى جريدة او كتاب .

وكان الى جانب عمله الصحفى يحترف عدة مهن أخرى ، مستشارا صحفيا لاحد ابناء الدول الشقيقة . . مديرا لاعلانات احدى المؤسسات الوهمية ، وكان صامتا دائما ، يبدو فى احسن صحة على الدوام . . لا يناقش اى أمر صادر اليه . . ويتقبل أى اهانة توجه له ، ويقبل العمل بأى مرتب يعرض عليه .

ولقد زاملته مرة واحدة فى حياتى فى تحقيق صحفى عن رجل يدعى ابوالحسن الفقى كان اكبر تاجر للحشيش فى مصر ، ويوم الافراج عنه ذهبت مع صالح الى باب ليمان طره وانتظرناه حتى خرج . . وجلس الرجل معنا على قهوة آمام باب السجن يحكى كلاما يصلح مادة لتحقيق صحفى خطير عن تجارة المخدرات .

ثم نهض معنا الى قهوة ايزافتش فى ميدان التحرير وطلب لنا افطارا ، ومن عادتى الا اتناول طعام الافطار . . ولذلك اعتذرت ، ولكن صالح غمزنى فى وركى ثم طلب سجاير رغم انه لا يدخن ، وارسل الرجل المهرب احد اعوانه فاشترى له خرطوشة سجاير كرافن ثم انتحى به جانبا وهمس فى أذنه بكلام ثم اخرج الرجل شيئا من جيبه ودسه فى يد صالح . .

وانصرفنا لكى نكتب التحقيق الصحفى الخطير وفعلا كتبت تحقيقا من واقع كلام الرجل المهرب وسلمته لرئيس التحرير ، ولكن هذا التحقيق لم ير النور قط ونشر بدلا منه تحقيق آخر بقلم صالح كله تمجيد فى الرجل المهرب واشادة به ونصائح منه موجهة للشعب المصرى الكريم وكأنه الجنرال نابليون وقد فر هاربا من جزيرة كورسيكا .

ثم علمت بعد ذلك ان هذا التحقيق نشر كاعلان ، وان صالح تعهد بالحصول على مائة جنيه أجرا للنشر ، ولكن عندما طالبته المجلة بالدفع اعتذر المهرب لانه دفع عشرة جنيهات للاستاذ صالح وهو كل ما يستطيع دفعه مقابل نشر هذا الكلام .

واضطر رئيس التحرير الى نشر مقال آخر بدون توقيع كله هجوم على المهرب وتحريض للبوليس ضده . . وخصم مرتب شهر كامل من صالح ومع ذلك لم يعترض ولم يحتج فقد كان يحصل على أضعاف مرتبه عن طريق التهديد والنصب .

محرر ثالث كان شابا وخريج جامعة ولكنه كان طموحا بلا موهبة متطلعا بلا مبادىء وكان يبدو دائما نافشا كالديك ، يتكلم من طراطيف انفه بينما السيجارة ملك مصر ترتعش دائما بين شفتيه ويفتى فى اخطر المسائل باعتباره عليما ببواطن الامور .

وكان دائم التهديد لزملائه باعتباره وثيق الصلة بكبار المسئولين فى المخابرات وكان صاحب المجلة يكرهه ويطمع فى رضاه .

ولقد انتهى هذا الشاب المغرور نهاية مفجعة وقاده عدم ايمانه بأى شىء الى كثير من المواقف الشائنة ثم ضبط فى النهاية متلبسا بجريمة خلقية تشين الرجل . وقد ترك الصحافة بعد ذلك الى الابد .

الى جانب هذه المجموعة المتنافرة المتباينة كان يعمل الصحفى اياه صاحب صالون الحلاقة . والاخر الذى كان فتوة فى صالات شارع عماد الدين .

وعندما ظهر أول أعداد المجلة طرد محمد حمدى يرحمه الله بلا شفقة ، وتم تخفيض جميع المرتبات . . وتناقص مرتب العبد لله من ثلاثة عشر جنيها الى

عشرة جنيهات . . وجاء سكرتير تحرير جديد أفتى بأن عصر المقالات قد انتهى ، وان الصحفى الجيد هو المخبر الجيد . . وان الشهر القادم سيكون امتحانا لكل العاملين بالمجلة . . فالذى يحصل على أخبار جيدة سيبقى ، والذى يفشل سيتوكل على باب الله !

ولقد وفقت بطريق الصدفة فى الحصول على أخبار غاية فى الخطورة والاهمية ، وأصل الحكاية أننى كنت فى زيارة لمجلة الدعوة التى كان يصدرها صالح عشماوى أحد أقطاب الاخوان المسلمين الذين كان فى خلاف مع الجماعة !

وبينما كنت أجلس فى الحجرة فى انتظار طوغان الذى كان ينشر رسوما هناك ، دخل الحجرة افندى منظره يوحى بأنه خواجا وانه غلبان وانه لم يخلع هذه البدلة من عشرة أعوام على الاقل !

وجلس الرجل مترددا كأنه يدخل المكان أول مرة ، وعندما سألته عما اذا كان يريد احدا ، ابتسم فى هدوء وقال أنا محرر هنا !

ويدأ من لهجته أنه خواجا فعلا . . وازدادت دهشتى أكثر عندما علمت أنه يهودى أيضا وانه فعلا يعمل محررا فى مجلة تنطق من بعيد باسم الاخوان المسلمين !

وقال الرجل الخواجا وهو يبرر لى هذا الموقف ، أنه كان على صلة بالمخابرات البريطانية وأنه يعرف اسرارها جيدا ، وانه يعلم كل حركات وتحركات الجيش البريطانى فى القناة ، وتأكيدا لكلامه أطلعنى على الاخبار التى حصل عليها لتنشر فى أول عدد من الدعوة .

وكانت الاخبار ـ لو صحت ـ هامة فعلا وخطيرة ، تنقلات بين كبار رجال المخابرات البريطانية فى مصر ، تأجير عشرين شقة فى القاهرة لعملاء المخابرات البريطانية . . وصول طائرة شحن ضخمة الى قاعدة أبوصوير البريطانية وعليها شحنة من الاسلحة الذرية ، هل هذه حقائق أو أوهام أم أخبار مدسوسة ؟

أنا شخصيا لم أفكر طويلا فى هذا الامر ، حفظت الاخبار عن ظهر قلب ، وعندما خرجت من مجلة الدعوة أعدت صياغتها من جديد ، وقدمتها لسكرتير التحرير النشيط ففرح بها كثيرا وخرجت مجلة الجمهور المصرى وكل عناوينها الضخمة من انتاج العبد لله ، ومع ذلك لم تشفع لى هذه الهمة فى سرقة الاخبار ، فقد فصلت فى نهاية الشهر بحجة انى غير منتج . . والسبب الحقيقى انى لم أكن مؤمنا بعبقرية الاستاذ سكرتير التحرير . ولكننى عدت بعد ذلك بشهر واحد الى المجلة وبثلاثة عشر جنيها كل شهر .

كان فى المجلة مخبر بوليس من قسم الموسكى عين لحراسة رئيس التحرير بعد ان تلقى عدة خطابات تهديد من القراء . . ولان التهديد لم يكن جديا ، فقد

تحول المخبر بعد فترة الى فراش ، ثم تحول الى تاجر مخدرات يبيع لمن يرغب وعلى الحساب ، ولما كانت الرقابة مفروضة وقتئذ على الصحف ، فقد عهد الى المخبر بحراسة الرقيب أيضا ، فاصبح حارسا للرقيب ولرئيس التحرير فى الوقت نفسه !

وكان رقيب المجلة شيخا معمما ثائر الاعصاب على الدوام ، ينتفض اذا تكلم ، ويرتعش اذا صمت ، وكان مدرسا فى الجامعة الازهرية وصحفيا فى الوقت نفسه . . فلما فشل فى الصحافة أصبح رقيبا على الصحفيين ، وكانت الرقابة فرصة ليفرز عقده النفسية وليضطهد زملاءه السابقين . . ليس خدمة للحكومة ، ولكن خدمة لاغراضه الشخصية ، وكنت أنا أكثر المناوئين له واقدرهم على اثارته ، وذات مرة سافرت الى القناة وعدت بتحقيق صحفى عن القوات البريطانية هناك .

وراح الشيخ الرقيب يقرأ ويشطب حتى شطب المقال كله الا عدة سطور ، ولم تكن هناك تعليمات بالشطب ، ولكن الشيخ عثر على فرصة ليغيظنى ، وعندما وصل الى امضائى اسفل المقال قام بشطبه أيضا ، وعندما سألته هل لديه تعليمات بشطب الاسم أيضا باعتباره من الممنوعات ، صاح بأعلى صوته ونادى على المخبر ، وامره بان يطردنى فورا ليس من الحجرة فقط ، ولكن من دار المجلة .

ووقف المخبر حائرا لا يدرى ماذا يفعل ، فهو صحيح معين لحراسة الرقيب ولكنه فى الوقت نفسه صديق ، ثم بعد فترة ، انسحب المخبر من الحجرة فى هدوء ، وكانت فرصة لابدى رأيى للرقيب عمليا . . وأضطر فى النهاية الى الخروج جريا الى الشارع والدم ينزف من أنفه واسنانه . . واقسم ألف يمين اننى لابد ذاهب الى السجن وأننى لن أعمل بعد اليوم فى الصحافة ، ولقد جرى تحقيق معى أمام محمد أمين حماد مدير الرقابة وقتئذ ، ولكن التحقيق انتهى بنقل الشيخ الرقيب نفسه .

أولا لانه شطب أسمى ، وثانيا لانه شطب مقالا ضد قوات الاحتلال والتعليمات التى لديه عكس ذلك تماما ، وثالثا لانه شطب فى نفس اليوم خبرا عن مملكة القطن . . لانه كان يحمل تعليمات بعدم نشر أى شىء عن سوق القطن فى الاسكندرية ! ولم أعمر بعد ذلك طويلا فى المجلة ، فقد تركتها بعد هذه الواقعة بخمسة شهور . . وبالتحديد فى مارس عام ١٩٥٣ ، فقد أتصل بى استاذى المرحوم أحمد قاسم جودة وطلب منى ان أقابله فى بار الانجلو .

وبعد دقيقة واحدة من اللقاء كان قد عرض على عملا فى جريدة يومية كبرى

أسمها القاهرة وبمرتب خمسين جنيها فى الشهر ؟ وخرجت من بار الانجلو لا تكاد ساقاى تقويان على حملى .

هأنذا أصبحت محررا مطلوبا وفى جريدة كبرى وبخمسين جنيها كل شهر ! لابد انه حلم من الاحلام . . أو لابد ان قاسم جودة كان يهذى ! ولكن قاسم جودة عودنى دائما الصدق وكان دائما مثالا للرجل الجاد ، أذن المسألة حقيقية ؟ واذن سيصبح فى مقدورى الان ان أحقق الحلم الذى راودنى طويلا ، وهو أن أصبح مالكا لشقة خاصة ومكتبة وربما سيارة أيضا ، ولم لا ؟ وأنا الان سأتقاضى خمسين جنيها كل شهر ، ولم استطع النوم عدة ليال متتالية ، واصبح حديثى المفضل هو العرض الذى قدمه لى قاسم جودة والمرتب الذى حدده !

وكنت أحيانا أسرح أكثر من اللازم فأسأل محدثى . . أيه رأيك ؟ أقبل العرض ؟ هه ، نكته طريفة ، كأننى كنت فعلا مترددا فى قبول العرض ! ولقد تمنيت على الله ان يحفظ قاسم جودة من كل مكروه ، فقد خشيت أن يناله سوء قبل أن تتم الصفقة ، فى نفس الوقت كانت جريدة الجمهورية قد بدأت فى الاستعداد للظهور ، وانتقل للعمل فيها عدد من الكتاب والمحررين من دور الصحف الاخرى .

وكنت على صلة وثيقة بأحد المسئولين عن التحرير فيها ، ومع ذلك لم يعرض على العمل معه وبأى أجر ، وقد حز الموقف فى نفسى كثيرا لأننى كنت أنا الوحيد الذى وقف الى جانبه من بين كل اصدقائه ، وعندما طردوه من جريدة الجمهورية قبل أن تصدر بأيام ، وفقت فى الحاقة بعمل فى جريدة القاهرة ، ثم اشتد على مرض مزمن دخلت من أجله المستشفى . . وانتهز الرجل فرصة وجودى فى المستشفى فاقترح فصلى من الجريدة . . ولكن اقتراحه لم ينفذ ، لانه فصل بعد ذلك بأيام !

المهم أن قاسم جودة استدعانى ذات مساء لمقابلة مدير جريدة القاهرة ، واكتشفت ان الرجل صحفى فلسطينى قديم ، وانه عديم الخبرة بالصحافة ، وانه استشار عددا من كبار الصحفيين فى القاهرة . . فرشح له كل منهم عددا من الصحفيين ، ولم يرشح قاسم جودة الا اثنين فقط ، انا وعلى جمال الدين رئيس تحرير وكالة اورنيت برس فى بيروت .

واكتشفت ايضا ان جميع اعضاء نقابة الصحفيين قد رشحوا للعمل فى الجريدة وبمرتبات خيالية . . أحدهم وكان فى سن الثمانين رشح للعمل بمائة وخمسين جنيها فى الشهر ، وذلك لخبرته فى دنيا الصحافة ! مع أن الرجل العجوز كان قد اعتزل الصحافة منذ ربع قرن !

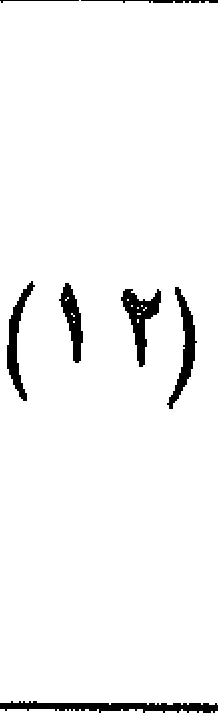
وبعد ربع ساعة خرجت من مكتب مدير الجريدة بعد أن وقعت عقدا للعمل لمدة عام ، وبمرتب سبعة وثلاثين جنيها ونصفا ! ولا ادرى ما الذى أنقص المبلغ من خمسين جنيها الى هذا الرقم ، يبدو أن منظرى وقلة حجمى لم تقنع المدير بأننى سأكون على مستوى المسئولية !

ويبدو أنه فعل نفس الشيء مع الجميع ، المهم اننى خرجت من مكتبه وأنا أسعد أهل الأرض . . وكانت جريدة القاهرة فرصة العمر بالنسبة لى ، وعلى صفحاتها نشرت أول قصة فى حياتى ، ثم نشرت مجموعة قصص كاملة أصدرتها بعد ذلك فى كتاب ، ونشرت أيضا دراسة عن الظرفاء ، ونشرت دراسة أخرى عن قارئى القرآن فى مصر ، وأتاحت لى الفرصة السفر الى مختلف أقاليم مصر ، وعن طريقها تعرفت الى عدد كبير من الوزراء وكبار الموظفين .

فقد كان من مهام عملى فى الجريدة الى جانب نشر القصص والمقالات ، الحصول على اخبار وزارة الشئون الاجتماعية . وكان أول الوزراء الذين تعرفت اليهم هو المرحوم فؤاد جلال ، وكنت قبل ذلك أعتقد أن الوزراء من طينة أخرى غير طينة البشر . . وكنت اتصورهم مطهومين دائما عصبيين ، دائما أصحاب سلطة بلا حدود ، وأنهم لا يأكلون الا صنف الملبس ولا يرتدون الا الحرير ولا ينامون الا على ريش النعام .

صورة ساذجة بددتها زيارة واحدة لمنزل المرحوم فؤاد جلال فى الروضة ، وكدت أجن عندما اكتشفت أنه يعيش مثل أى فرد ، وان فى صالة المنزل ينام بعض أقاربه الذين جاءوا لزيارته من الريف .




(١٢)



١٢

آه من الصحفي الشقي لم يعد شقيا ، العمل الآن مضمون . والفلوس تجرى من بين أصابعه كما الغلة . والحارة التى يسكن فيها لم يعد يطيق منظرها : أى هوة عميقة تفصل بين الجو الخارجي والجو الداخلي لحياته . حارتنا مظلمة كقلب الكافر ، قذرة كأنها مقلب زبالة ! مصيبتى الكبرى أننى اصبحت مثل المجتمع المصرى ، مجتمع مثل العملة له وجهان ، ومثل البيوت له واجهة وله خلفية .

الان أنا أسهر فى الفنادق الكبرى وأقضى بقية الليل فى حديقة كوبرى الجلاء ، وأتنزه فى الفجر فى قارب يتأرجح على صفحة النيل . وأنا من بين معارفى وا[illegible]فائى وزراء ومديرون بشوارب وموظفون بمكاتب وأدباء وشعراء . ولكن عندما أنفض كل هذه المظاهر وأعود الى البيت فى الصباح أشعر كأننى أختنق ، ميدان الجيزة الراكد ، ثم شارع عباس الملىء بالحفر ثم حارتنا التى تفوح رائحتها كأنها جثة ملقاة على الطريق منذ ألف عام !

وتمنيت أن أخرج من الحارة الى شارع أوسع والى بيت أحدث . وحاولت اقناع أمى ولكن المحاولة فشلت . قالت لى أمى وهى تحاورنى « أسيب بيتى واروح فين يا بنى ؟ دا اللى مالوش بيت مالوش أصل !! وهوه بيتنا ماله ؟ دامافيش أحسن منه . . » ولم أعد الى محاولة اقناعها مرة أخرى .

ورحت أعيش حياتى بالمقلوب ، أنام النهار فى البيت . وأسهر الليل فى الشارع . وهجرت قهوة محمد عبدالله فى ميدان الجيزة ولم أعد أتردد عليها الا مرة كل اسبوع . فقد كان يجلس عليها صديقان أثرا فى نفسى تأثيرا عظيما . أولهما هو أنور المعداوى والاخر هو الدكتور عبدالقادر القط .

ولقد كان أنور المعداوى رجلا من طراز فريد . كان معتدا بنفسه . . وقورا الى درجة التزمت وكان ابن عائلة ريفية مبسوطة من أقاصى الدلتا ، واشتهر فى الوسط الأدبى وهو لم يزل طالبا فى كلية الاداب . وهو أول من سلط الضوء على عبقرية نجيب محفوظ فى الوقت الذى أنكره فيه كل النقاد وتجاهله كل محررى الصحف الادبية . وعندما قامت الثورة كان أنور المعداوى أسعد الناس بها وكان يود من أعماقه ان يشترك فى عمل أدبى كبير ، مجلة ، موسوعة ، قاموس . . أى شىء فى ظل الثورة وفى اتجاهها .

ولكن الشلل منعت أنور من تحقيق أحلامه . ولأنه أيضا كان قليل السعى شديد الأنفة والكبرياء والصلف ، ولكنه كان من عادته أن يحضر الى المقهى في الرابعة تماما بعد الظهر فيجلس قليلا قبل أن يطلب الشاى ، ثم ينادى على حميدو ليمسح له الحذاء ، ثم يبدأ الاصدقاء في الحضور ويبدأ النقاش والحديث . وفي الثامنة تماما كان ينهض متجها الى فرن افرنجى فيشترى رغيف عيش فينو طويل للغاية وجبنه رومى ، ثم يجلس يأكل ويطلب الشاى ، ثم يعود الى حلقة المناقشة حتى الحادية عشرة مساء ثم ينهض لينصرف ولا يعود الا في الرابعة من بعد ظهر اليوم التالى .

ولقد كان من الممكن أن تسير حياته على هذا النحو حتى يموت ، لولا أن الجهلاء الذين تولوا أمر ادارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم أمروا بنقله مدرسا بمدرسة السلحدار . وجن جنون أنور المعداوى فلم يكن يتوقع أن يحدث له شيء كهذا ! واختفى لأول مرة من المقهى ثم عاد وقد تهللت أساريره لانه طلب تفرغا من وزارة الثقافة وقد أجيب الى طلبه بشرط أن يستقيل من وزارة التربية والتعليم . وفعلا استقال أنور من وظيفته ، ولكن طلب التفرغ لم يقبل على الاطلاق . ولقد اراد ان يكون موظفا بالمجلس الأعلى للفنون والآداب ولكنه لم يستطع . بينما كان المجلس يعج بالعشرات من الجهلاء والكونستابلات ونصابين الأدب ! وأسقط في يد أنور وضاقت الدنيا به .

وترك قهوة عبدالله والجيزة كلها الى الدقى ، ووقف بعض الاصدقاء الى جانبه في محنته حتى عاد الى وظيفته الاولى في وزارة التربية ، ولكن المحنة الشديدة التى مر بها كانت قد تركت آثارها السيئة في نفسه فسقط مريضا ولم تقم له قائمة بعدها ومات .

ولو أن أنور المعداوى استطاع أن يأخذ مكانه الطبيعى في مجلة « الرسالة الجديدة » مثلا ، فلربما صارت المجلة الى مصير غير الذى انتهت اليه .

ولكن أنور المعداوى فشل في الحصول على عمل فيها بينما وثب على المجلة رجل اسمه عبدالقوى كانت كل مهمته في الحياة قص الصور وتلزيق الورق ونفاق رئيس التحرير ، وعلى هذا الجسر عبر عبدالقوى طريقه الى منصب مدير التحرير في المجلة . ولعل ذلك هو السبب في أغلاق ابوابها بالضبة والمفتاح .

وأغرب شيء أن عبدالقوى كوفىء على هذا الفشل بأن أسند اليه رئاسة تحرير احدى المجلات . ولم تلبث هى الاخرى أن أغلقت أبوابها . ولعله اقتنع بعد هذا أنه لا يصلح للصحافة فهجر العمل الصحفى وعاد الى وظيفته الاولى موظفا في احدى الشركات !

ولقد كانت قهوة محمد عبدالله من القهاوى الشهيرة التى لعبت دورا هاما فى الحياة الادبية فى مصر . وكان صاحبها رجلا عصاميا جاء الى الجيزة من الصعيد ليقف الى جوار محطة السكة الحديد بعربة يد عليها بعض الجوز ووابور جاز وعدة اكواب وبراد شاى وكنكة قهوة . استطاع ان يفتح هذه القهوة ، وصارت فى الصباح مقرا لتجار القطن واثرياء الريف الذين يأتون الى الجيزة لمسائل قضائية أو طبية ، وفى المساء تتحول الى مكان يجتمع فيه كبار الموظفين والادباء والصحفيين .

ولقد ظلت عشرات السنين كما هى لم تتغير . حتى المقاعد التى أهترأت من كثرة الاستعمال لم يكلف عم محمد عبدالله خاطره ليعيد اصلاحها . والحيطان التى تآكل دهانها وتركت التشققات آثارا عميقة على شكل رسوم راحت تتسع يوما بعد يوم حتى صارت كأنها مقصودة وكأنها للزينة . . ولكن القهوة ظلت تضيق بزبائنها يوما بعد يوم . ومكاسبها تزيد ساعة بعد اخرى . كل ذلك وعم محمد عبدالله رابض كالاسد العجوز خلف الكيس يتسلم الماركات ويقيد الحساب ويراجع المنصرف من كميات الشاى والسكر والجاز .

وكان للرجل خمسة ابناء رجال لا عمل لهم الا القهوة . أحمد وكان اكبرهم . قصير وبدين ومهمته الوحيدة هى الطواف على الزبائن وتحية الجميع والسؤال عن المريض ومعرفة مصير الغائب .

وحسن وكان طويلا وعريضا وفى قوة سباع الغاب . كان يحضر كل يوم فى القهوة ساعة العصارى ، فيفرش بجوار النصبة وينام حتى التاسعة مساء ويقوم من النوم فيشرب الشاى ويدخن الشيشة وهو جالس على الرصيف فى التراوة الحلوة دون ان يفتح فمه بكلمة حتى تغلق أبواب المقهى فينصرف !

ومحمد كان أصغرهم ، ولم يكن يصنع شيئا الا الهنكرة ومشاغبة باعة الموز الذين يحتلون الرصيف المقابل ، والخناق مع ماسحى الاحذية والمتسولين الذين يقتحمون المقهى كل ساعة بالعشرات .

اما الشقيقان الآخران فكانا لا يترددان الا نادرا ولكى يحصلا على شىء من النقود . ولم يكن أحد منهم يعرف القراءة والكتابة . ولم يكن لأحد منهم مورد رزق ولا عمل يجيده . وكانوا اذا رأوا أباهم قادما وقفوا جميعا وضربوا تعظيم سلام كانهم عساكر بوليس رأوا المأمور فى طريقهم . وكان الرجل يشتمهم امام الزبائن ويلعن جدودهم ويتهمهم بالخيبة والبلاهة . وكان يؤكد لكل رواد القهوة انه لو مات فان كل شىء سينهار وستباع المقهى فى المزاد .

ولقد صحت نظرته البعيدة . . فما ان مرض حتى بدأت القهوة تميل للكساد . وقبل ان يموت بأيام كانت القهوة قد بيعت فى المزاد . وعاد أولاد الرجل العصامى الطيب الى أول الطريق الذى بدأه الوالد العصامى العظيم . راحوا يسرحون بعربة شاى فى الجيزة ، ثم استقروا اخيرا بالعربة عند محطة السكة الحديد !

ولقد تعرفت فى هذه القهوة على عدد من الادباء والصحفيين فى بداية حياتى .

الدكتور عبدالقادر القط الطيب المسالم الذى يشق لنفسه طريقا وسطا فى الحياة لكى يجنب نفسه المتاعب . ولكن المتاعب تسعى اليه لانه رغم طيبته صاحب نظرة موضوعية وفكر حر وعلاقات انسانية اساسها الاحترام المتبادل وليس على أساس النظرية المعروفة يابخت من نفع واستنفع !

وشاعر عظيم الشهرة عظيم القدر كان يجلس فى القهوة أغلب الوقت يستحلب قطع الافيون فى هدوء ، وصارت بينه وبين صاحب القهوة صداقة متينة بسبب الهواية المشتركة بينهما . وكان اذا جاء المساء جلس الشاعر الكبير المشهور على كرسى فوق الرصيف ينظر الى الميدان فى ذهول ويظل ساهما حتى منتصف الليل ثم ينهض لينصرف .

وكان المارة الذين يعرفون الشاعر يؤكدون أنه جالس فى حالة تفكير دائم لكى يؤلف شعرا عن الحياة والناس . لم يكن أحد منهم يعرف ان الافيون هو الذى القى عليه هذا الرداء من الهدوء والذهول ، وان تحليق الشاعر لم يكن فى سماء الشعر ولكن فى سماء المخدر !

وأديب آخر كانت كل مؤهلاته ان صحته جيدة . وبهذه الصحة الجيدة استطاع ان يطور نفسه من موظف صغير الى موظف محترم . فقد جلس فى القهوة يلتهم دروس ثانوى ، ثم راح يلتهم دروس كلية الحقوق حتى انتهى منها . وربما ظن الاديب الجيد الصحة ان كل شىء فى الحياة يتحقق بالصحة والعافية والعضل القوى ، فقد جلس فى القهوة بعد ذلك يكتب مسرحيات وقصصا وسيناريوهات ثم تزوج بعد ذلك من اديبة فاشلة ومتجبرة ثم انفصل عنها فجأة ووقع فى مشاكل الطلاق وما جره عليه من حجوزات ومطاردات واستدعاءات لاقسام البوليس .

وفى هذا المقهى أيضا تعرفت الى نعمان عاشور . ولقد كنت أعرفه وأنا طفل فقد كنت صديقا لشقيقه الاصغر . وكان نعمان عندما تعرفت اليه فى القهوة يكتب المقالات والقصص القصيرة . ثم كتب رواية ناجحة للمسرح اسمها « المغناطيس » . وبدا عليه الانبساط للنجاح الذى حققه ، وقرر عدم العودة الى القصص القصيرة أو المقالات والتفرغ لهذا الميدان الجديد . . المسرح !

ولقد التقيت بنعمان بعد ذلك فى وزارة الشئون الاجتماعية . وكان يعمل سكرتيرا صحفيا للوزير ، وكنت أنا مندوب الجريدة فى الوزارة . ورغم ان نعمان كان هو الطريق الرسمى الوحيد لمقابلة الوزير . . الا اننى لم أقابل الوزير قط عن طريقه . فقد كان يجلس فى مكتبه قلقا ومذعورا كأن شيئا مجهولا يطارده . وكان لا يستقر على مقعده لحظة ، دائم التساؤل عن اشياء غريبة وعجيبة وليس لها أى معنى .

وكنت اذا طلبت منه مقابلة الوزير نهض ونظر من كوة الباب ثم عاد واعتذر بحجة ان الوزير مشغول . ثم لا يلبث طويلا حتى ينهض مرة أخرى لينظر من الكوة ثم يعود الى الجلوس ثم ينظر مرة أخرى من خلال باب الوزير ، ثم يقف فى النافذة الى الشارع ، ثم يغادر المكتب كله الى الخارج .

وكان من عادته اذا رآنا نحن الصحفيين ندخل حجرته اسرع باغلاق مكتبه حتى لا نسطو على الاخبار الهامة التى فى الدرج . ولكن رغم كل هذه الاحتياطات الشديدة استطعت أن أسرق من مكتبه مشروع تعديل قانون العمل الفردى .

ولقد أحدث نشره فى الجريدة هزة كبرى فى جميع الاوساط ، واضطر نعمان الى الاعتكاف فى بيته عدة أسابيع حتى هدأت الضجة .

وذات صباح جاء الى الوزارة وزير جديد ومعه صول مهمته الاشراف على سيارة الوزير والسعاة والفراشين . وجاء الصول ليجلس على مكتب صغير فى مواجهة نعمان . ورغم ان نعمان هو رئيس المكتب فقد اصيب بذعر شديد من وجود الصول وكان لا يناديه الا بلقب سيادة الصول . فاذا وقف الصول وقف نعمان ، واذا جلس ظل نعمان واقفا من فرط الادب والاحترام !

وشيئا فشيئا راح الصول يزحف الى الامام ، واخيرا احتل مكتب نعمان بعد ان تنازل عنه بمزيد من القبول والرضى .

وقنع نعمان بالجلوس على مكتب الصول ، لا يبرم امرا الا بعد أن يستشير سيادة الصول ، ولا يوقع على ورقة الا بعد أخذ اذن سيادة الصول ، ولم يلبث طويلا حتى ترك الوزارة الى عمل آخر .

وأديب آخر اسمه فؤاد عصفور . كان انيقا ورشيقا ومعجبا بنفسه على نحو ما ! وكان شديد السخط على الاتجاهات الادبية الحديثة ، شديد الكفر بالادباء القدامى والذين جفوا على حد تعبيره !

وكان يزفر بشدة أحيانا حتى كأن الذى يخرج من صدره نار محرقة ، ويقول فى اسى بالغ « بس لما تيجى الفرصة واكتب ، كل الناس دى مش هتلاقى تاكل عيش » !

وعندما جاءته الفرصة كتب كلاما هايفا للغاية . . ثم تحول الى مؤلف أغانى ، ثم فشل أيضا فقنع بتأليف اغنيات غاية فى السوء يبيعها لمطربات الدرجة الرابعة ، ولصالات شارع الهرم وكازينو صفية حلمى !

ولكن أغرب ادباء قهوة محمد عبدالله ، لم يكن أديبا ولا صحفيا ولا حتى افنديا ، ولكنه كان بائع يانصيب . وكان اسمه عباده وله لحية لم تحلق قط على طريقة قيس . . وشعر رأسه يتدلى على قفاه كانه شمشون الجبار ، ويرتدى جلبابا لا لون له ، ويضع على كتفه اكثر من جلباب ، حتى أنه ليبدو من بعيد كأنه أحد شعراء الرومان المشاهير ، وكان يصفو أحيانا فيتكلم كلاما كله فلسفة وعقل ، ويجن احيانا اخرى فيتحول الى مخبول . وكان يهزأ من كل شيء ، ويسخر بكل شيء ، ويعلن رفضه لكل شيء ، ويقفز وسط ميدان الجيزة حرا طليقا من كل قيد ، ويصرخ ويصفق ثم يهدأ فجأة ، ويقبع فى ركن بعيد يبكى بحرقة وينبح كأنه كلب عجره اتوبيس فى الميدان .

ولقد كان صديقا لأنور المعداوى يسأل عنه اذا غاب ، ويجلس معه بالساعات يناقشه فى التاريخ والادب . وكان انور يقول عنه « عباده هو أعقل العقلاء » .

ولما أغلقت قهوة محمد عبدالله اختفى عباده هو الآخر ، وكنت أحيانا أراه فى الطريق وقد ازداد قذارة وتهدم وأصبح شيخا ، فلما مات أنور المعداوى ، لقيته فى الميدان وأبلغته النبأ . . فقال بلا مبالاة . . مانا كنت عارف أنه هيموت !

ولقد تفرقت الشلة بعد ان انهدمت القهوة وقامت على ارضها عمارة شاهقة بلا طعم . وكأن أنور المعداوى كان معها على ميعاد ، تدهور حال أنور المعداوى أيضا . فلما انهدمت القهوة مات أنور المعداوى رحمة الله .

ولقد كانت وفاته خسارة جسيمة للفكر والادب ، فقد كان طرازا من الرجال يبيع ملابسه ولا يبيع كرامته ، ويجوع ولا يسأل اللئيم !

ولقد احببت أنور المعداوى واحترمته ، وما اكثر الذين احببتهم وما أقل هؤلاء الذين يستحقون الاحترام .

وبعد موته بزمن طويل ذهبت مع أحد الاصدقاء الى قبره البعيد وجلست أبكى وأنا الذى لم تذق عيناى الا نادرا طعم البكاء .

ولقد ودعت انا الآخر قهوة محمد عبدالله الى حديقة كازينو الجلاء . وكنت قد حققت لنفسى بعض الشهرة بين الصحفيين . . واصبح لى اصدقاء يمكن الاعتماد عليهم وقت الازمات . واصبحت أعمل فى مجلة اسبوعية اسمها « صوت الشرق » الى جانب عملى الرئيسى فى جريدة القاهرة . ولكن ظل حلمى القديم يراودنى . أن اصبح يوما مالكا لشقة خاصة تطل على شارع عريض

ومضىء ، وان اصبح عضوا بنقابة الصحفيين ، ولقد خيل الى ان تحقيق حلم النقابة أسهل بكثير من تحقيق حلم الشقة .

ولم لا وأنا صحفى وأعمل فى المهنة منذ زمن طويل . ولى كتابات منشورة ، ولى اجر محترم ، ومعى شهادات من الصحف تثبت اننى أعمل بالمهنة منذ أكثر من عشر سنوات .

منطق الحق والحقيقة !

ولكن ، من قال ان الحق والحقيقة وحدهما هما الطريق الوحيد الى نقابة الصحفيين .

كانت جريدة القاهرة تجربة مفيدة تثبت بالدليل القاطع أن الصحافة ليست بالعافية وأنها مهنة صعبة لا يجيد صنعها الا أبناؤها . فلقد خرجت الجريدة الى الوجود وعلى صدر صفحتها الاولى أسماء اربعة رؤساء تحرير ليس من بينهم واحد من أبناء المهنة . أحدهم كان قائدا للجيش المصرى فى حملة فلسطين عام ١٩٤٨ . والآخر كان رئيسا للمجمع اللغوى . والثالث كان من كبار المجاهدين . . . وهكذا ! وكتب رئيس المجمع اللغوى افتتاحية العدد الاول تحت عنوان « غبوق الصباح » ولم يفهم أحد من القراء ولا من المحررين حرفا وحدا من مقال رئيس التحرير . ولذلك راحت الجريدة تتدحرج حتى وصلت فى خلال شهر واحد الى الحضيض !

ولقد كانت الجريدة فوق كونها تجربة مفيدة ، تجربة فريدة أيضا . فلقد تجمع فيها اليمين بدرجة مكثفة ، وبينما كانت الصحف الاخرى التى عملت فيها من قبل تعج باليساريين والوطنيين والمعارضين ، كانت جريدة القاهرة لا تضم بين جدرانها الا اليمين وفلول الاحزاب القديمة ، والمتطلعين الى مناصب أكبر وفلوس أكثر وبعض أصحاب الهيافة الذين ليس لهم فى الطور ولا فى الطحين !

وكانت سكرتارية التحرير تضم ثلاثة من أغرب وأعجب من عرفت ورأيت خلال عملى فى الصحافة أحدهم كان يتناول العمل الصحفى بأسلوب الموظف . يحضر فى الثامنة صباحا كل يوم ، وينصرف فى الثانية ظهرا .

وكان اذا حضر سارع الى خلع الجاكتة وعلقها على شماعة خلف المكتب ، ثم شمر أكمام قيمصه فشر ست فلاحة تستعد للعجين ! ثم يطلب شايا ويشعل لنفسه سيجارة قبل أن يبدأ فى فرز أخبار المحررين . وكان هذا الفرز لا يستغرق من وقته أكثر من خمس دقائق . بعدها يتفرغ لنفاق رئيس التحرير ! ثم التعرض لزميليه بكلام لا يليق من رجل فى مثله مركزه ، وكان شديد الحرص على استعراض ثقافته أمام الحاضرين ، وكانت هذه الثقافة لا تتعدى دائرة : هل الوضوء ينقض لو حمل المرء قربة فساء على ظهره ؟

وهل تدخين السجاير مكروه أم ممنوع ثم ماذا دار بالضبط بين سيدنا الهراس وسيدنا بعجر بن شمروخ !

وكان الآخر على عكسه تماما . يحضر فى مواعيد منتظمة . وأكثر خبرة وفهما لعمله الصحفى ، ولم يكن يهتم من الثقافة الا بماله اتصال بالعمل الصحفى ، وكان يرى أن كل الصحفيين فاشلون وكلهم يستحقون الطرد . وكان دائما يردد أن باستطاعته اصدار الجريدة وحده ، بشرط طرد جميع المحررين . . وكان يخاف رئيس التحرير ويدس له من وراء ظهره ، وكان له فم واسع وأسنان حادة ومدببة . فاذا ضحك أو تكلم بدا كأنه ذئب جائع مسعور .

واستطاع بعد فترة من العمل الصحفى فى الجريدة أن يسيطر على عقل احدى المحررات وأن يتزوجها . وسرعان ما سقط صريع الذبحة الصدرية ولما أنقذ بأعجوبة كان قد فقد منصبه فى الجريدة فاكتفى بالجلوس فى نقابة الصحفيين وسب جميع الآخرين .

أما الثالث فكان دلدولا بكل ما فى الكلمة من معنى ، وللاسف استطاع هذا الدلدول أن يشق طريقه الى الامام بسهولة ، وظل محتفظا بمنصبه فى الجريدة الى أن أغلقت أبوابها .

أغرب شيء أنه تحول بعد ذلك الى كاتب ، وأصبحت له كتب ومؤلفات ، شخصية غريبة تثبت أنه لا يبقى فى النهاية الا الذيول .

ولكن أعجب وأغرب الشخصيات فى جريدة القاهرة لم تكن من بين المحررين . ولكنها شخصيات كانت تلعب دورا رئيسيا من وراء ستار وتتحكم فى الجريدة وتحريرها وسياستها . . وتوجهها الى حيث تريد . . أول هذه الشخصيات كان يدعى الياس . . وكان مسئول الحسابات والمالية فى الجريدة . . وكان يمت بصلة قرابة لصاحب الامتياز . وسلطاته كانت مطلقة ، ورغباته كانت أوامر ، وعقليته كانت أتفه من عقلية حمار .

والرجل الآخر كان اسمه مسعود وكانت وظيفته الرسمية سائق سيارة صاحب الجريدة ، ومن خلال هذه العلاقة التى تربطه بصاحب رأس المال ، استطاع أن يفرض نفسه على جميع المحررين وأن يسهر معهم ، ووعد بعضهم بعلاوات ، وهدد البعض الآخر بالفصل . ونجح فى لعبته فكان يتلقى الهدايا ، وينشر صورته فى باب المجتمع ويحرر فى باب بريد القراء !

أما الرجل الثالث فكان يتمتع بشارب رفيع ووجه ثعبانى وكان يتولى كل الامور القانونية فى الجريدة . وكان شديد الحذق كمحام يجيد استغلال نصوص القانون لحسابه . . ويعرقل سير العدالة بمزيد من الاجراءات والتعقيدات ، ولقد استولى على قلب صاحب الجريدة عندما نجح فى فصل خمسين محررا دفعة

واحدة دون أن يعطى لأى منهم حقه المشروع ، فلما لجأوا الى القضاء نجح فى كسب القضية ضدهم ، وجعل من هذا الفصل حقا مشروعا لصاحب الجريدة الساذج الغلبان .

ولقد استشرى نفوذه فى الجريدة حتى أصبح يعين من يشاء ويفصل من يشاء دون رقيب ولا حسيب ! ولقد كان هو السبب المباشر فى فصلى من جريدة القاهرة حين اتصل تليفونيا بالجريدة يريد مخاطبة صاحبها .. ولسوء حظى وقع فى قرعتى ، فطلب منى فى صلف شديد أن أحول المكالمة على مكتب صاحب الجريدة . ولم أرد عليه واكتفيت باغلاق السكة فى استهتار ملحوظ .. ويبدو أنه اغتاظ بشدة فعاد وطلبنى ، ولما أجبت على التليفون راح يصيح فى أذنى مهددا بفصلى .. ولعنت له خاش جدود الذين نسلوا أبوه ، وبصقت فى سماعة التليفون احتقارا لشأنه ، وتوعدته بالاذية فى أول فرصة تقع فيها عيناى عليه فى الطريق !

ولكن الرجل الثعبان استطاع أن يفصلنى من الجريدة بعد ذلك بشهر . يوم الفصل استدعانى صاحب المجلة وكان رجلا عالما وفاضلا ومجاهدا عربيا قديما ، ولكنه كان عجوزا الى درجة مضحكة .. اذا تكلم قطع الحديث فجأة ونام وارتفع شخيره فى الفضاء ، ثم يستيقظ فجأة ليستأنف الحديث من جديد . ولقد أبلغنى قرار الفصل على أربع دفعات . وخلال هذه الفترة كان ينام ويستيقظ ثم ينام ليستيقظ ويستأنف الحديث من جديد .

ولقد عرض على خمسمائة جنيه لأتنازل عن القضية ، ولكنى ركبت رأسى وقررت أن أمضى فى الشوط الى النهاية .

ولقد حكمت المحكمة فى القضية بعد ذلك بستة أعوام .. وحكمت ضدى والزمتنى بدفع مصاريف وأتعاب المحاماة ... وبدلا من الخمسمائة جنيه التى كنت سأتناولها ، دفعت أنا عشرة جنيهات وخرجت من المولد بلا حمص .

رجل آخر عرفته فى جريدة القاهرة ، وكان ناعاما ولطيفا وصاحب اتجاه فى الصحافة هو نشر كل ما هو طريف وظريف .. وكان فيما مضى من الزمان يدعى الثورية ، وانضم فعلا الى حزب فاشى كان أنصاره يرتدون القمصان الملونة ويحطمون البارات وبيوت الدعارة .

وعندما احترف الصحافة كان أول من مد يده للبنت لتدخل هذا الميدان ، وهى حسنة تذكر له بالخير ، غير أنه تمادى فى هذا الاتجاه ، فأصبحت كل الجرايد التى يعمل بها مفتوحة على البنت ، ولكن ليس للولد فيها مكان .. وكان رغم مركزه الكبير فى الجريدة ، لا يجلس فى حجرة مستقلة ، بل كان يفضل الجلوس فى صالة كبرى وحوله عدد كبير من المحررات المعطرات الانيقات .

وانطبع هو بهذا الجو المحيط به فأصبح وكأنه واحدة منهن يقزقز اللب ، ويتعطر بأجمل أنواع الكولونيا ، ويقضى معظم الوقت فى الحديث عن أصناف الطعام المفضلة لديه !

ولقد حدث للعبد لله مرة أن تعرفت على احدى بناته المفضلات . . وكانت بنت سنيورة ، عيونها فى لون البنفسج ، وخدودها كتفاح لبنان ، وكانت عفية وقوية وكأنها بقرة سمينة معلوفة بالكسب التمام . . وصارت علاقة غرام عنيفة ومواعيد حب على شاطىء النيل ، وفى داخل النيل أيضا ، وعندما اكتشف المسألة جن جنونه ، وثار وأحرج البنت أمام جميع الحاضرين ، وظنت البنت أننى أنا الذى كشفت سرها ، ومعذورة هى لأنها لم تكن تعرف أن بينى وبينه ما صنع الحداد .

ولقد جن جنونى أنا الآخر وحاولت جاهدا أن أعيد العلاقة مع البنت ولكن دون جدوى ، رفضت باصرار وبشدة . . وعاملتنى بقسوة حرضتنى على التمسك بموقفى المزرى . . وتصور منظرى وأنا أطلب البنت كل خمس دقائق بالتليفون . وفى البداية كنت أتفاهم ، ثم بعد ذلك أصبحت أتذلل وأرجو وأستعطف وكأننى شحات واقف على باب الحب !

وأعترف الآن أننى فى حياتى لم أشعر بالبؤس مثلما شعرت به تلك الايام ، أنا الذى كنت أسخر من المحبين والمغرمين والعاشقين أصبحت واحدا منهم ، ورحت أطوف حول بيت البنت كأننى قيس وكأنها الست ليلى . وأحيانا كنت أبكى ، وأحيانا كنت أتحدث مع نفسى فى الطريق .

أغرب شىء أيضا . . أنه حدثت لى أزمة نفسية حاده جعلتنى أتصوف .

وذات مساء دخلت مسجد سيدنا الحسين وحذائى تحت ابطى ورأسى منكسة ، وقدماى لا تقويان على حملى . . وجلست فى صحن المسجد كالمتسول وعيناى تبرقان بلا معنى وتنظران بلا احساس . . ولكزنى الرجل الذى بجوارى واكتشفت أنه صديقى الدكتور سعيد قدرى ، وتعجب الرجل لوجودى فى هذا المكان . . خصوصا أننى رغم وجود مسجد فى اعماقى وشيخ له عمامة . الا أننى لست من هواة التردد على المساجد . . وتظاهرت بأننى فى المسجد فى انتظار أحد أقربائى الفلاحين وتركت مكانى بجوار سعيد قدرى وانصرفت الى ركن آخر .

وبعد الصلاة قمت مع المرحوم الشيخ محمد الصيفى الى منزله فى العباسية ، وجلست معه حتى انتصف الليل ، وحكيت له عن سبب تعاستى ، فربت الرجل الطيب على كتفى وقرأ الفاتحة عدة مرات ، ولم يزد على قوله : « كل شىء قسمة ونصيب » .

وأعترف الآن أنني بعد لقاء الشيخ محمد الصيفي . شفيت من الغم الذي حط على نفسي ، ولكني لم أشف تماما . ظلت صورة البنت في نفسي الى فترة طويلة من الزمان . ولم أشف منها تماما الا بعد أن صدر أول كتاب لي « السماء السوداء » وأحدث ظهوره ضجة كبرى في الوسط الادبي .

عندئذ أفقت من ذهول الحب ، وشغلني النجاح الادبي فعدت من جديد رجلا سويا .

ولقد التقيت بها مرة بعد ذلك في الطريق . . مصادفة ! وصافحتها بفتور وانصرفت ، واكتشفت أنني لم أكن أحبها أبدا ولكن المسألة كان لها وجه آخر !

فلقد كان من عادتي أن أتعرف على البنات وأهجرهن ! ولكن هذه البنت خالفت القاعدة فهجرتني . ولم تدرك البنت ولم أدرك أنا أيضا أنها بهذا الهجر قد نكأت كل الجراح التي في نفسي . وما أكثر الجراح التي في نفسي ، فأنا أمضي في الحياة وكأني أجر ورائي قطار سكة حديد من الجراح والذكريات المريرة .

طفولتي ، وظروف حياتي الاولى ، وفقري الذي كان نسيج وحده . فلا أنا فقير دقة فأتسول ، ولا أنا قادر على مواجهة الحياة ، ولا أنا أستطيع الكذب على نفسي ، ولا أنا قادر في صباي المبكر على عدم الكذب على الناس ! لم يكن من أجل البنت نفسها ولكن من أجل ظروفي وحياتي كلها . خصوصا أنها كانت أول بنت أتعرف عليها من بنات هذه الطبقة ! بيتها في جاردن سيتي ، وأبوها له شوارب وله طين وله سيارة وفي السيارة سائق له بدلة خضراء وشرايط على ذراعه !

وكان قهري للبنت يعني شيئا آخر . . هو قهري لهذه الطبقة . حواري الجيزة تسيطر على شوارع جاردن سيتي . . هذه هي القضية . . فلما رمتني البنت بقسوة ، نضحت على نفسي كل أحزان الجيزة وكل آلام أهلها !

فلما حققت نجاحا في مكان آخر نسيت البنت ونسيت أمرها . ولكنها كانت على أية حال تجربة مفيدة ومريرة معا !

ولقد صدر كتابي الاول الذي كان السبب في شفائي بطريقة لها العجب . تعرفت على موظف كبير في وزارة الشئون الاجتماعية اسمه صلاح نور ، وهو من أسرة نور الثرية العفية ، ولكنه هو نفسه كان من نسيج مختلف . وكان في جوهره فنان وصعلوك وابن بلد قذفت به الصدفة من أصلاب هذه الاسرة ، وبينما كان مرتبه لا يزيد عن ستين جنيها كان يوزع نصفه على سعاة الوزارة ويقوم بتسليف النصف الآخر لصغار الموظفين . . وكان قلقا للغاية لا يدرك بالضبط ماذا يريد !

وكان يهوى الترف والاسفار والادب ، ويقرأ كثيرا وبنهم ، ولكن قراءاته كانت متعددة وأفكاره لذلك كانت مشوشة ، وأصدقاؤه كانوا من جميع الطبقات والاوساط . وبينما كنت تراه يجلس فى قعدة أشبه بقعدات المصاطب والقهاوى فى القرى ، كان يسكن فى شقة فاخرة على النيل وله سيارة كأنها قطار السكة الحديد . الا أن أسعد لحظات حياته ، كانت تلك التى يقضيها فى الريف بالشبشب والجلباب . وكان يتحدث بطريقة واد ابن بلد مولود فى حوارى السيدة زينب ، واذا ثار بدا كأنه من سكان الدرب الاحمر ، واذا وقع فى عاركة تصرف وكأنه ولد من أولاد بولاق .

وتوطدت الصداقة بينى وبين صلاح نور ، وسرحت معه فى الحسين وفى الريف وفى مكاتب الوزارة .

وذات مرة قرأ لى قصة قصيرة منشورة فى جريدة القاهرة ، وقال لى وهو يضحك ، دا انت لو طلعت كتاب هتعمل ضجة .

واعتذرت له بأن اليد طويلة فى الكتابة ، قصيرة فى الفلوس .

وقال صلاح نور :

- اذا كان العائق هو الفلوس فقط ، فاعتبر الكتاب صدر والمطبعة تدور الآن .

وقمنا بالفعل .. وبعد أيام كان الكتاب فى السوق .

ولقد تحققت نظرية صلاح ، فأحدث الكتاب ضجة لدى النقاد والادباء ، ولكنه لم يحدث أى أثر عند القراء ، وبلغ عدد النسخ التى بيعت من الكتاب مائة نسخة لا تزيد . ولكن الكتاب رغم الوكسة العريضة كان جواز المرور للعبد لله الى دنيا الادب والادباء .



(١٣)



١٣

قصه عبدالعاطى فى الصحافة تصلح للغناء على الارغول ، كفاجعة من فواجع العصر . وهى قصة أكثر اثارة من شفيقة ومتولى ، وأعمق شجنا من حسن ونعيمة . ولقد كان عبدالعاطى رجلا جهولا لا يحتاج لكشفه الى ذكاء كبير ، كانت سحنته ولهجته ومنظره كله منظر قهوجى عاطل لا يصلح لشىء على الاطلاق ، كانت الاحوال فى مصر مضطربة ، وكانت الثورة فى بدايتها ، وكبار الصحفيين فى قلق على مستقبلهم ، وصغار الصحفيين حيارى لا يدرون بالضبط ماذا ينبغى عليهم صنعه !

ولكن كيف دخل عبدالعاطى .. لا أحد يدرى .. المهم أنه أصبح محررا بثمانية جنيهات ، وصفة محرر واسعة جدا على العمل الحقيقى الذى يقوم به . فقد كانت مهمة عبدالعاطى تلقى المكالمات التليفونية من مراسلى الجريدة فى الارياف .. وكانت معظم الاخبار التى يتلقاها تأخذ طريقها بسهولة الى سلة المهملات ، وأحيانا كان بعضها يأخذ طريقه الى النشر . وحتى هذه لم تكن تخرج عن دائر الأخبار التافهة .. سرقة ماشية من زاوية أبو جاموس ، أو قتل مزارع فى بنى حسين والعثور على القاتل بفضل يقظة وخبرة وفن الكونستابل الممتاز على أفندى عبده ! هذه هى كانت مهمته بالضبط .

ولكن عبدالعاطى كان طموحا الى أقصى حد . ولكن طموحه الشديد للغاية لم يكن يصل أبدا الى الحد الذى وصل اليه بالفعل . فقد راح يهمس باسم أحد ضباط المخابرات على أنه صديقه الأوحد .. وأحيانا كان يطلبه بالتليفون ، وأحيانا أخرى كان يرسل بعض التقارير اليه على مرأى ومسمع من الآخرين ..

وكان عبدالعاطى حتى هذه اللحظة محتقرا من الجميع .. فلما شاعت قصته وذاعت ، وعرف الجميع نبأ العلاقة التى بين عبدالعاطى وضابط المخابرات العامة ، ابتسمت له الوجوه التى كانت دائما عابسة ، وضحكت الافواه التى كانت دائما مطبقة ، وامتدت اليه الايدى التى كانت دائما منكمشة وممسكة .. وأحيانا كان رئيس التحرير ينتقل بنفسه الى مكتب الاستاذ عبدالعاطى ليسأله عن آخر تطورات الاخبار فى الريف .

وارتفع مرتب عبدالعاطى فجأة من ثمانية جنيهات الى ثلاثين ، وانتقل من مكانه الصغير الى مكتب فخم ، وترك ميدان الريف الى مجال أرحب . . مندوب متجول للجريدة فى دوائر البوليس . . واستطاع عبدالعاطى أن يثبت جدارة وكفاءة فى عمله الجديد ، ووثق صلاته بضباط البوليس فى الاقسام ، وبالصولات وبالعساكر ، وأصبح له نفوذ فى مديريات الأمن در عليه دخلا لا بأس به عن طريق الافراج عن المشبوهين والمقبوض عليهم للتحرى ، ونقل عساكر البوليس من مكان الى مكان آخر . فقد كان عمله يسمح له بنشر صور كبار ضباط البوليس ونشر أسماء صغار الضباط الذين اشتركوا فى ضبط مجرم هارب أو اطفاء حريق شب فى عشش الترجمان !

وتبدلت أحوال عبدالعاطى فخلع البدلة القديمة ، وأصبح يبدو كل مساء فى د بدلة جديدة ، وعرف القمصان الحرير والزراير الذهب والكرفتات الارجنس ، بينما الحقيبة الجلد تتأرجح دائما فى يده . . واشترى سلسلة ذهب من الصاغة كان دائما يلوح بها وهو سائر فى الطريق . وصفت الحياة لعبدالعاطى وكان يمكن ان تصفو له هكذا على الدوام ، لولا أن صراعا رهيبا كان يدور فى الخفاء بين رئيس التحرير ومدير التحرير ، وقد قرر كل منهما أن يخوض المعركة الى النهاية ، وأن يستخدم أى سلاح حتى يحقق الغاية المنشودة .

وتبارى الاثنان فى كسب ود عبدالعاطى ، فهو صاحب نفوذ فى دوائر المخابرات وهو يستطيع عن طريق التقارير أن يحسم المعركة لحساب أحد الطرفين فى النهاية .

.ولقد كان مدير التحرير الشاب الطامع والطموح أسرع فى كسب ود عبدالعاطى ، وكان عبدالعاطى صريحا فاعلن انضمامه الى مدير التحرير ، وفعلا انتقل بمكتبه الى مكان قريب من مكان مدير التحرير وتحول من محرر الى فراش ، اذا عطش مدير التحرير أسرع فأحضر له كوب ماء ، واذا نام وقف كالديدبان يحرس مكتبه حتى لا يدخله انسان ، واذا عطس قال له : يرحمكم الله !

ولم يكن مدير التحرير يطمع فى كل هذا الولاء من جانب عبدالعاطى ، كان يطمع فقط فى أن يقف عبدالعاطى الى جواره فى المعركة الناشبة بينه وبين رئيس التحرير فى التقارير بكلمة أو اشارة ، ولكن عبدالعاطى كان كريما الى أقصى حد .

كان يجلس بالساعات يدون أمام مدير التحرير كل حرف يقوله المدير فى حق رئيس التحرير ، هكذا دون مراجعة ودون اعتراض ، ثم يضع التقرير فى ظرف ويستأذن مسرعا ليذهب الى المخابرات .

كرم أخلاق من جانب عبدالعاطى قابله مدير التحرير بكرم أكثر ، فارتفع مرتب عبدالعاطى الى ستين جنيها ، ستون جنيها - فى هذه الايام - مرتب أستاذ جامعى أصبح يلهفه كل شهر هذا الجاهل الاحمق المأفون !

واستشرى عبدالعاطى كالسرطان فى أنحاء الدار ، يدفع المحرر - أى محرر - بكتفه أو يلزقه من باب المزار ، ويتلطع عند أبواب المكاتب ويسترق السمع كلما وجد أكثر من ثلاثة فى اجتماع . . كان يعد ويتوعد ويهدد وصوته أصبح أعلى من صوت مكنة الطحين ، ودائما يدوى بين جدران الدار ، ولكن رغم جلال عبدالعاطى ودلاله كان يخشى العبد لله ويتحاشاه . . وكان كلما التقى بى مصادفة فى الطريق ضرب تعظيم سلام ، ليس كما يفعل الناس العاديون ، ولكن على طريقة رجل الشرطة عندما يصادف ضابطا فى الطريق .

ولقد كنت أكرهه وأحتقره وأبدى له فى وجهه رأيى الصريح .

وذات مساء دخلت الجريدة منهكا . . فقد كنت قد انتهيت تلك الليلة من كتابة مذكرات زعيم شهير من زعماء العهد الماضى ، كانت الجريدة تنشرها له على حلقات ، ولما كان الزعيم اياه ليس من محترفى الكتابة فقد توليت أنا صياغة المذكرات فى الثوب الصحفى اللائق ، وحمدت الله لأن هذا العمل الثقيل على نفسى قد فرغت منه الى الابد ، ولم أكد أستقر على مقعدى حتى جاء الفراش يدعونى لمقابلة المدير العام . كان رجلا عفيا وجهولا وعديم الخبرة بالصحافة . وناولنى الرجل رزمة أوراق وقال فى اختصار شديد وفى حزم أشد . . خد مذكرات جديدة عاوزها تنشر من الاسبوع القادم . . وقلت لا حول ولا قوة الا بالله ، أخرج من نقرة أقع فى حفرة . . ياللحظ التعيس على رأى يوسف وهبى .

وفوجئت وأنا اراجع رزمة الاوراق فى مكتبى وكانت هذه المذكرات بعنوان « أسرار الثورة المصرية ، حقوق الطبع والامتياز محفوظة للاستاذ عبدالعاطى . المحرر الصحفى » .

اذن هى مذكرات عبدالعاطى . . يا للعار . . ! والمذكرات بالطبع كلام فارغ فى فارغ وهرش مخ ازلى ونصب واختلاق وكذب ليس له مثيل ! لكن كيف العمل وما هى الوسيلة لافساد خطة عبدالعاطى ؟ خصوصا أن المدير العام موافق على نشر المذكرات !

لم يكن هناك جدوى من التفاهم مع مدير التحرير ولا مع المدير العام . . كان لابد من طريق آخر لوقف نشر المذكرات . . كان لابد من فضيحة .

استدعيت عبدالعاطى الى مكتبى وارتديت قناعا رسميا للغاية . . فلما أبصر

المذكرات بين يدى حيانى باحترام شديد وجلس فى ادب بالغ يحدثنى عن المتاعب التى صادفها حتى استكمل هذه المذكرات والجهد البالغ الذى عاناه حتى حصل على كل التفاصيل . وعندما انتهى من سرد كل ما عنده من حكاوى قلت له باختصار وبهدوء : أنا عاوز انشر المذكرات دى فى كتاب ، ونظر نحوى فى ارتياب وقال فى اصرار . . بس أنا عاوز انشرها فى الجريدة . .

وقلت لعبدالعاطى : طبعا . . بس انا عاوز اتفق معاك على نشرها فى كتاب قبل ما حد يلهفها . . وهتأخذ ألف جنيه . .

ووقعت عليه عبارة الالف جنيه كالصاعقة ، فقال على الفور . . زى بعضه ، وانت تاخد تسعمائة وأنا أخذ ميه . . وقلت لعبدالعاطى غاضبا ، ازاى تقول كده دا عرقك وشقاك ، عاوزنى أكل عرقك ، انت فاهمنى ايه ؟ وارتبك عبدالعاطى فلم يستطع أن يتكلم . وانتهزت فرصة ارتباكه فسحبت ورقة وقلت له وهو تحت تأثير المفاجأة ، نكتب العقد دلوقت . . ولكنه كان قد استجمع نفسه مرة أخرى فطلب مهلة حتى يستشير بعض الاصدقاء . وبالطبع كان مستشاره الوحيد هو مدير التحرير ، ولو استشاره فى الامر فسيدرك مدير التحرير أن المسألة كلها مقلب ولعبّة شيطانية من تدبير العبد لله . وكان لابد من منع عبدالعاطى من مغادرة مكتبى بأى صورة ، فقلت له بصوت مزمجر : دى فرصة ما تضيعهاش . . أو خد المذكرات دى واديها لحد تانى يكتبها !

ورفعت سماعة التليفون على الفور واتصلت بيوسف السباعى فى البيت . ورد يوسف السباعى وقلت له على الفور وفى لهجة مؤدبة جادة للغاية . . خلاص يا فندم ، عبدالعاطى قدامى هنا ووافق . ولم يكن يوسف السباعى يعلم شيئا عن الامر ، فقال بطيبة متناهية . . عبدالعاطى مين ووافق على ايه ؟ قلت ليوسف أيوه خلاص . . ألف جنيه ونطبع الكتاب ، قال يوسف فى دهشة مين اللى بيتكلم ؟ قلت محمود السعدنى . قال طيب بتخرف تقول ايه ؟ قلت خلاص عبدالعاطى وافق ، وسيادتك موافق . . مبروك . . قال يوسف ضجرا . . انت باين عليك اتجننت . . ووضع السماعة بعنف ، فقلت قبل أن اغلق السكة ، حاضر يا فندم ، هنكتب العقد على طول . .

وصدق عبدالعاطى الحكاية . . وراح يرقبنى فى اهتمام زائد وانا اكتب شرط العقد : « اتفق كل من عبدالعاطى المحرر الصحافى له حقوق الطبع والامتياز طرف أول مع دار الهنا والشفا للطباعة والنشر على نشر كتاب أسرار الثورة المصرية وذلك بمبلغ ألف جنيه مصرى تدفع فور صدور الكتاب ، أما الطبعات الشعبية فيتقاضى المؤلف مائة جنيه عن كل طبعة تصدر فى الاقاليم ، وعددها عشرون طبعة فى كل من بنها العسل وكفر بطه ومنوف والقصاصين والبدرشين

وبنى سويف وبنى مزار وأبوتيج وديروط » وصرخ عبدالعاطى فجأة وقال فى توسل : لا بلاش ديروط ! وتساءلت انا فى بلاهة : ليه ؟ فقال أصلى دى بلدنا . . وعلى الفور استأنفت كتابة العقد « بشرط استثناء ديروط حيث انها بلد المؤلف » .

كان الحوار قد جذب انتباه زميل كريم يجلس أمامى فى هدوء يتصفح بعض المجلات الاجنبية . كان الزميل هو محمد محبوب وأنا أحبه واحترمه كثيرا ! . . فقد كان شديد الأنفه شديد الكبرياء . . يحضر الى دار الجريدة فى موعد محدد وينصرف فى موعد محدد ، ويؤدى العمل المطلوب منه على الوجه الاكمل . . وكان نادرا ما يمزح ، ونادرا ما يختلط بالآخرين ، ولكنه كان شغوفا بالموسيقى مولعا بالادب والفن . .

ولقد جره الحوار الى التوقف عن القراءة ومتابعة الحديث الغريب الذى يدور بينى وبين عبدالعاطى . . وخلع محبوب نظارته السميكة ونظر نحوى باندهاش ، وقال وهو يشفط نفسا عميقا من سيجارته . . ايه الحكاية ؟

ولو أنا حكيت الحكاية فعلا لباظ المشروع كله ، فقلت له دون اكتراث : دا مشروع كبير جدا وانت كمان هتقوم بالترجمة ! . . وقلت لعبدالعاطى ، تحب نترجمه انجليزى والا فرنساوى ؟ فقال على الفور : فرنساوى أحسن . . وأستأنفت كتابة العقد « وبشرط أن يقوم الاستاذ محمد محبوب بترجمة المذكرات الى الفرنساوى ويتقاضى خمسمائة جنيه . . ويتقاضى المؤلف مثلها » . . وقدمت العقد لعبدالعاطى فوقع عليه وانصرف . . وقدمت العقد لمحمد محبوب ، وعندما انتهى من قراءته كان ضحكته المجلجلة ربما لاول مرة تهز جدران الدار كلها .

وحملت المذكرات والعقد الى المدير العام فأمر بوقف نشر المذكرات . . ووقف عبدالعاطى نفسه عن العمل . . ولكن لم تمض اسابيع حتى فصل المدير العام وجاء مدير جديد وجاء معه عبدالعاطى ، وأشاع عبدالعاطى أن المدير السابق فصل بفضل جهوده لدى صديقه فى ادارة المخابرات . ولقد وجد عبدالعاطى من يصدقه فارتفع مرتبه الى ثمانين جنيها فى الشهر . . وأصبح نفوذه فى الجريدة يخشاه كل المحررين . .

وتطورت مهنة عبدالعاطى فأصبح المحرر العسكرى للجريدة . ونشرت صورته على غلاف مجلة اسبوعية مصورة كانت تصدر عن الدار . . وكتب مدير التحرير مقالا عن نشاط وجهود عبدالعاطى فى مهنة البحث عن المتاعب والاهوال . . وأصبح عبدالعاطى نجما صحفيا يشار اليه بالبنان ! خطوة واحدة فقط بقيت لعبدالعاطى ليصبح صحفيا وليحقق كل الآمال . . أن يصبح عضوا

بنقابة الصحفيين . . وكل شيء أمامه معد وجاهز وعلى خير ما يرام . . أوراق من الدار تثبت أنه يعمل صحفيا وبمرتب كبير . وجميع الاجهزة الرسمية موافقة على انضمامه للنقابة . . ولكن بقيت موافقة نقابة الصحفيين ولقد وقفت نقابة الصحفيين موقفا شريفا وعظيما ضد انضمام عبدالعاطى اليها . . وقال رخا رأسى والف سيف لا ينضم عبدالعاطى للنقابة . . واذا دخل من الباب سأخرج من النافذة . ولم تتزحزح نقابة الصحفيين عن موقفها قط .

ولكن ماذا يهم ، عبدالعاطى شغال فى الصحافة على ودنه ، ويوما ما سيدخل النقابة رغم أنف الصحفيين !

ولكن . . تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن . ضبطت الحكومة شبكة تجسس لحساب الغرب . . وضبطت أفراد الشبكة فى حالة تلبس اثناء اجتماع فى شقة رجل انجليزى فى الزمالك . وسيق المتهمون الى السجن . . واغلقت الشقة بالشمع الاحمر . ونزل عبدالعاطى مسرعا من الجريدة الى مكان الحادث ليكتشف ان كل شيء قد انتهى وان الشقة مغلقة بالضبة والمفتاح ، ولكن عبدالعاطى الجسور نادى على البواب وأمره بفتح الشقة وفض الشمع الاحمر ، ولما سأله البواب عمن يكون ؟ أجاب ببساطة أنا من المخابرات !

وفتح البواب الشقة ودخل عبدالعاطى ، وعبث طبعا فى محتويات الشقة ، والتقط صورا لها من الداخل . . ونشر الموضوع كاملا فى الجريدة فى صباح اليوم التالى ، وقامت الدنيا ولم تقعد . . والقى القبض على البواب وعلى عبدالعاطى ، واجرى معه تحقيق سريع ثم أفرج عنه بعد أربعة أيام . . ولكن هذا التحقيق الذى أجرى معه صار جزءا من التحقيق فى قضية التجسس نفسها . ومع التحقيق ارفق تقرير مفصل بالتحرى عن عبدالعاطى نفسه . وفى التقرير كلام عن عبدالعاطى يشيب لهوله سواد الليل !

وانقل لكم بالحرف الواحد ما جاء بالتقرير : « عبدالعاطى محرر صحفى كان يعمل بالبوليس السياسى برتبة عسكرى فى مدينة الاسماعيلية فى العهد البائد ، ثم فصل من وظيفته لاتهامه بالاتصال بالمخابرات البريطانية . . وهو دائم التهديد لزملائه فى العمل بأنه من المخابرات والبوليس الحربى بقصد الارهاب وابتزاز الاموال . وهو جاهل لا يجيد القراءة والكتابة وقد حصل على علاوات كثيرة بفضل علاقاته المشبوهة ببعض كبار المحررين » !

انتهى التقرير ، ولقد تلقت نقابة الصحفيين هذا التقرير وقدمته الى المحكمة كتبرير لموقفها فى رفض قبول عبدالعاطى عضوا بها ، وقد أمر القاضى برفض طلبه . . والى أبد الآبدين !

ولكن . . هل انتهت قصة عبدالعاطى ؟ لا . . لقد ظل يعمل فى الصحافة رغم كل شىء ، وبعد شهور فصل مدير التحرير وفصل عبدالعاطى . . وتقاضى الف جنيه مكافأة وتعويضا عن فصله . . وعندما رأيته بعد الفصل بأيام ، كان رابط الجأش يؤكد لكل من يلقاه انه سيعود بفضل نفوذ صديقه ضابط المخابرات الكبير ! ولكنى التقيت به بعد ذلك بأسابيع ، وكان قد جف عوده واسود وجهه واحمرت عيناه وقال لى وهو يجلس منكسرا على المقهى : ان عينيه احمرتا من فرط البكاء ، ويبدو أنه فقد الأمل نهائيا فى الاشتغال بالصحافة ، فافتتح محلا لبيع الفول المدمس والطعمية فى عابدين . . وعندما التقيت به ذات مساء امام الدكان راح يسب ويشتم فى الصحافة والصحفيين . . هذه مهنة الصياع والذين بلا عمل !

كان هذا هو رأى عبدالعاطى فى أول عهده بصناعة الفول ! وكان يحلم بثروة ستهبط عليه من وراء هذا المشروع الجديد . . وانه يوما ما سيصبح مليونيرا مثل أبوظريفة وأبوعضيم ! ولكنه لم يلبث أن أفلس بعد شهور .

واختفى عبدالعاطى سنوات طويلة ، ثم التقيت به مصادفة . . ويا له من لقاء ! اكتشفت ان مكتبى قد انفصلت احد قوائمه فأرسلت فى طلب نجار ، وعندما جاء النجار اكتشفت انه عبدالعاطى نفسه ! كان يرتدى بنطلونا وقميصا وقد أرسل ذقنه ، ودب الشيب فى رأسه وقفز عمره عشرات الاعوام دفعة واحدة ! . . وجلس يحكى لى فى مرارة عن كفاحه وصراعه فى الحياة ، ولكنه لم يكن قد فقد الامل نهائيا فى العودة للصحافة . . سأعود اليها بعد ان تنصلح الاحوال !

ولم أفهم أى أحوال كان يقصدها عبدالعاطى . وقبل ان ينصرف دعانى الى زيارته فى الدكان . واكتشفت عند الزيارة انه لا يزال يعيش فى الماضى . . مقالاته معلقة على الجدران وصورته على غلاف المجلة تتصدر المحل وتحتها عبارة الصبر مفتاح الفرج . وقدمنى لزملائه فى محل النجارة . . لفندى كان زميلى فى الصحافة ، عشان تصدقوا ياولاد الهرمة ! وصاح عامل كان منهمكا فى نشر لوح خشب . . والنبى تتلقح وتسكت . . وقال عامل آخر ، ما تريحنا يا أخى وتروح الصحافة بتاعتك .

وهز عبدالعاطى رأسه وقال فى وقار : باذن الله بس لما تزول الاسباب ! وعندما سأله عامل عجوز ، والسبب ايه ان شاء الله ، رد عبدالعاطى على الفور : خلاف سياسى من غير مؤاخذة !

تصوروا . . هذا الحمار الذى لا يعرف الفرق بين الخيارة والحمارة !

ثم غاب عبدالعاطى بعد ذلك فلم أره إلا منذ عام ، كنت أجلس ذات ليلة على رصيف الدمياطى فى الجيزة وكانت ليلة حارة ورطبة تكاد تكتم الانفاس . ومد رجل شديد القذارة لحوح بدرجة مزعجة يده ، فمددت يدى أنا الآخر ووضعت فى يده شيئا لله ! ولكن اليد ظلت ممدودة والشخص القذر ظل مكانه لا يتحرك على الاطلاق ، وعندما نظرت فى وجهه اكتشفت انه عبدالعاطى ! وان يده ليست ممدودة من أجل قرش ولكن يده ممدودة من أجل السلام . . وصافحت عبدالعاطى وجلست معه حتى الصباح . لقد فشل فى كل المهن ، الفول والنجارة وحتى فشل كطباخ ! ذهنه لا يجيد العمل . . فلم يعد أمامه الا عرق الجبين والسواعد والاقدام .

ولقد تدحرج عبدالعاطى فى النهاية ليستقر فى سفح الحياة كشيال فى محطة الترولى باس ! أية مأساة عنيفة هى حياة عبدالعاطى . فلقد خلق عبدالعاطى فعلا لمهنة شيال ، فإذا به ـ بسبب بعض الاوضاع المقلوبة ـ يتحول الى صحافى شهير ولكن لعدة أعوام .

لقد كان من الطبيعى أن يكون عبدالعاطى شيالا . . وكان من المنطقى أن يظل شيالا من الميلاد حتى الممات . . فهذه هى كل مواهبه فى الحياة ، ولكنه انقلب صحفيا شهيرا بعض الوقت . . وهذه هى المأساة !



(١٤)



١٤

وهكذا أصبحت ـ بعد تجربة عاصفة ـ واحدا من رجال السياسة . ولقد كانت تجربة صدمتني ولا استطيع أن ازعم لنفسى أنها أنضجتنى ! ولقد كنت قبل هذه التجربة المرة أشترك فى السياسة على الهامش ، وكنت وفديا بقلبى ، مع النحاس بعواطفى ، ضد جميع الاحزاب بقلقى وهمى وعدم استقرارى على حال !

ولقد خرجت من هذه التجربة بشعور غريب ، هو انه ينبغى أن أتذوق السياسة بلسان ساخر وان أشمها بأنف مزكوم ! وبعد عام من قيام الثورة لم أكن قد شهدت حفلا سياسيا لقادتها . ولكن قدر لى أخيرا أن أقوم بأول رحلة سياسية مع قادة الثورة فى انحاء الريف وكانت رحلة لا تنسى .

كنا أربعة من الصحفيين مع عدد من قادة الثورة على رأسهم جمال عبدالناصر وحسين الشافعى . ولم أكن أعلم وقتئذ أن عبدالناصر هو زعيم الثورة وبطلها الوحيد . ولقد حرص هو خلال الرحلة ان يؤكد بتصرفاته أنه ليس الرجل الذى فى الصدارة ، وأنه ليس الرجل الذى حرك كل شىء قبل وأثناء ليلة ٢٣ يوليو . بينما كانت تصرفات وحركات أصغر ضابط فى الرحلة تكاد تصرخ بأنه صاحبها الذى صنع كل شىء ودبر كل شىء ، وانه لولاه لما حدث فى مصر حادث ! وتحركت السيارات الى شبين الكوم حيث خطب عبدالناصر خطبته المشهورة التى دعا فيها الاستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل . . أو يقاتل حتى الموت دفاعا عن صلفه ووجوده .

ولم أكن أنا شديد التعلق بالسياسة تلك الايام خصوصا بعد التجربة المريرة ، وكنت قد أصبحت صاحب نظرة متشائمة وغير مبالية بأى شىء ولذلك لم أدرك مغزى هذه الكلمات ولا معناها . وظننتها لونا من الدعاية ، وأشياء للاستهلاك المحلى لا تزيد ، وهكذا أخذت الأمر ببساطة ، كما تعودت ان آخذ كل حركة سياسية تلك الايام ببرود . فقبل ذلك بعدة شهور قدر لى أن أقوم بدور تمثيلى مضحك فى مسرحية سياسية هزلية ليس لها مثيل .

فقد دعيت عند تنظيم الأحزاب لحضور ليلة سياسية يقيمها حزب المعارضة الذى دعا الى قيامه الزميل فتحى الرملى . ولقد كانت معرفتى بفتحى الرملى تمتد الى ما قبل ذلك بأعوام . فعندما كنت تلميذا بمدرسة المعهد العلمى الثانوية شاهدت شخصا يرتدى ملابس العمال يوزع على الناس فى حى السيدة زينب منشورات ثورية ملتهبة ضد النظام الملكى القائم ويدعو فى الوقت نفسه الى انتخابه نائبا عن الدائرة ، وكان الشخص اياه هو فتحى الرملى نفسه . ولكن منظر فتحى الرملى ودعوته لم تشغلنى كثيرا فقد كنت مطهوما وقتئذ فى المعركة الانتخابية الى جانب مصطفى عبدالهادى صاحب مدارس المعهد العلمى . .

ثم تعرفت اليه بعد ذلك فى جريدة الجمهور المصرى وأحببته . ولذلك لبيت دعوته لحضور مؤتمر الحزب . وفوجئت بعشرة أنفار فى المؤتمر ، وشاب ضئيل الحجم يرتدى نظارات طبية ويتكلم بفصاحة يتصدر الاجتماع . وبدأ الشاب حديثه عن حركة الحزب الجديدة وبرنامج العمل الذى ينبغى علينا ان نقره واسلوب العمل فى المرحلة القادمة . وكانت نغمة جديدة على اذنى . فلم أكن قد سمعت مثلها فى أى ندوة سياسية من قبل .

كان الكلام طيبا ولكن واقع الحال لم يكن كذلك . فلم يكن فى مؤتمر الحزب سوى عشرة انفار أغلبهم حضر دون رغبة فى الحضور مثلى . هل نحن فعلا الطليعة كما قال الاخ الضئيل اياه !؟ وهل ستقوم على اكتافنا نحن كل التغييرات المنتظرة فى المجتمع المصرى فى المرحلة القادمة ؟ وهل المسألة جد أم هزار ؟

وتأكدت انها هزار عندما طلب الاخ المتكلم من الحاضرين ان يدفع كل منهم خمسة وعشرين قرشا وان يترك صورته باعتبارهم الهيئة التأسيسية للحزب الجديد . ودفعت الربع جنيه وتركت صورتى وانصرفت ، وفوجئت بأخبار الحزب منشورة فى جريدة المعارضة ، والهيئة التأسيسية بكامل هيئتها مجتمعة ، وصورة العبد لله تحتل أفضل مكان بين الحاضرين . عندئذ تأكدت ان المسألة هزار . لأننى فى واقع الامر لم أكن مع هذا الحزب ولم أكن ضده . ولم أكن مشغولا حينئذ الا بعملى الصحفى وان احتفظ بنفسى ثانيا على حبل الصحافة الذى كان يهتز كثيرا تلك الايام .

ولكن صديقا آخر زارنى فى الجريدة فى اليوم التالى جعلنى انظر للمسألة نظرة أخرى . كان الصديق هو ابراهيم عبدالعليم . . ولقد عرفت ابراهيم أول عهدى بالصحافة فى جريدة صوت الأمة . وكان لا يبدو مثل الصحفيين الآخرين . كان جادا ومهتما وممرورا على نحو ما . وكان يفلسف كل شىء . وذات يوم صدمنى صدمة قاتلة حين قررت امامه اننى أبحث عن عشرة قروش لشراء كتاب لأبراهيم الوردانى . وكنت معجبا بابراهيم الوردانى الى حد

الجنون . كان اسلوبه سهلا ممتعا شديد الاناقة والرشاقة كأن كاتبه تاجر من تجار الصاغة يجيد عملية سبك الكلمات الى حد ليس له نظير . ونظر ابراهيم نحوى باحتقار شديد ، وهاجمنى بعنف ، واتهمنى بالتفاهة والهيافة والجهل المقيم . لماذا ؟ لانني أعشق الوردانى ككاتب ، مع انه لا يكتب الا لطبقة السادة وأصحاب الطين !!

ولم أفهم وقتئذ ماذا يقصد ابراهيم عبدالعليم ، وظللت على حبى لابراهيم الوردانى ، وتبينت بعد ذلك اننى كنت على حق ، وكان ابراهيم عبدالعليم على خطأ عظيم . فليس اسهل من العثور على مثقفين ، ولكن ما أصعب الحصول على فنانين . واذا كان لديك عشرة مثقفين فمن الصعب أن تجعل من احدهم فنانا ، ولكن لو كان لديك فنان واحد وجاهل ، فما أسهل عملية تحويل هذا الفنان الجاهل الى فنان مثقف وملتزم وعظيم !!

ولقد ظلت العلاقة بينى وبين ابراهيم عبدالعليم كعلاقة القط والفأر . ولكن صداقتنا ظلت قائمة من بعيد ، حتى جاء يوم زارنى فيه فى الجريدة وانهال على رأسى بكلمات التفاهة والهيافة ولماذا هذه المرة ؟ لاننى أصبحت عضوا فى حزب فتحى الرملى الجديد . وشرحت لابراهيم الامر ، وكيف ان انضمامى اليه لا يتعدى دفع ٢٥ قرشا وصورة !! ليس إلا ، وقال ابراهيم اذن هات صورتك . ولم أسأل لماذا ولكنى أعطيتها له . الى هذا الحد أصبحت صورتى مهمة ؟ وبعد اسبوع كانت صورتى منشورة فى احدى المجلات على اننى احد أعضاء حزب التحرر الوطنى !!

وهكذا مرة واحدة أصبحت الاحزاب تتقاتل من أجلى وتتنافس فى سبيل الحصول على صورة العبد لله ! ونفس الشيء الذى حدث من ابراهيم عبدالعليم حدث من فتحى الرملى ، جاءنى الى الجريدة وعاتبنى على انضمامى لهذا الحزب المنافس ، وقلت له ما جرى بينى وبين ابراهيم بالحرف الواحد ، وانصرف فتحى لاكتشف بعد اسبوع ان كل ما دار بينى وبينه قد أصبح مادة فى جريدة المعارضة ، وتكذيب بالبنط العريض لما أشيع عن انضمامى الى حزب التحرر الوطنى ، ثم تأكيد لشعب مصر باننى لازلت فى حزب المعارضة واننى لازلت على العهد مقيم ؟! تمثيلية ما كان أصلحها على خشبة المسرح الكوميدى لولا أن المسرح الكوميدى لم يكن قد ظهر بعد ! ولكنها حادثة كان لابد من ذكرها قبل أن نمضى معا فى رحلتى مع عبدالناصر الى الريف .

كان عبدالناصر يرتدى الملابس العسكرية ، وكانت هذه أولى رحلاته فى ريف مصر . ولقد لاحظت عليه خلال الرحلة أشياء لم الحظها فى احد غيره من قبل . عندما كنا نجلس على مائدة الطعام ، كان يسأل أولا أين الصحفيون ؟ وعندما

يطمئن الى وجودنا على المائدة يسأل . هل قدم الطعام للسواقين ؟ ثم يسأل نفس السؤال بالنسبة لرجال البوليس المخصصين للحراسة . وعندما يطمئن الى أن الجميع قد تناولوا الطعام يبدأ هو الآخر فى تناول طعامه .

وفى دسوق حدث لنا حادث غريب . جاء مدير المديرية فى الصباح وصافحنا ـ نحن الصحفيين ـ بحرارة . ثم جاء معنا لتناول طعام الافطار . ولقد كانت المائدة حافلة بكل أنواع الطعام . قشطة وبيض ورز معمر وحمام وفطير مشلتت وجبنة قديمة وزبدة وطواجن فول مدمس . وقد نزلت أنا على القشطة والفطير المشلتت كما ينزل وباء على قرية ليس فيها طبيب . . وخيبة العبد لله أن نفسى مفتوحة وبطنى مريضة على الدوام . حتى فى تلك الايام عندما كنت شابا فى شرخ الشباب كنت اذا تناولت الطعام فى وليمة ظللت أسبوعا أصرخ من بطنى . ولم يدر بخلدى أبدا اننى مريض . . ولو اننى تداركت الامر من البداية فلربما أصبحت الان فى حال غير هذا الحال . ولكنى لم أدرك هذا الا أخيرا ، وبعد أن التهبت مصارينى التهابا أبديا لا دواء له ولا خلاص منه ولا فائدة ترجى فيه !

وقمنا من الافطار الى بعض الزيارات الرسمية . ومن هناك الى جامع سيدى ابراهيم الدسوقى لحضور صلاة الجمعة . وعندما دخل عبدالناصر ومن معه الى الجامع ، تصدى مدير المديرية لنا نحن الصحفيين بالذات ومنعنا من الدخول . . ولما احتج احدنا على هذا الاجراء رفع الرجل المخبول عصاه وانهال بها ضربا علينا ، ورحنا نجرى فى كل اتجاه . وهكذا صدرت الصحف الاربع اليومية الكبرى فى الصباح وفيها وصف تفصيلى لرحلة قادة الثورة فى دسوق . وأجمعت الصحف الاربعة على أن السيد دسوقى عبدالسميع مدير المديرية كان فى استقبال وفى وداع الجميع . . ولم يكن المدير اسمه دسوقى عبدالسميع . ولذلك جاء يجرى مهرولا فى الصباح الباكر الى استراحة الرى حيث كنا نقيم . . وبدا لنا خلال حديثه معنا أنه يعانى غيظا شديدا نحونا ، والسبب أننا كنا تجاهلناه فى اليوم السابق فلم نذكر اسمه ولم نشر الى وجوده . . وأدركت عندئذ كم هى قوية الصحافة وكم هى ضعيفة امامها أجهزة الادارة والحكم . من أجل أننا تجاهلناه كاد يموت غيظا ، ومن أجل أننا لخبطنا أسمه جاء يعتذر ويبكى !

وتركت دسوق الى مدينة أخرى . . وفى ساحة الاحتفال جاءنى رجل معمم وصافحنى باحترام شديد رغم أنه فى سن والدى . وقدم نفسه على أنه مراسل جريدة القاهرة فى الاقليم ، ثم وقف فجأة وخبطنى قصيدة عصماء فى وصف صفاتى النبيلة وكلها لا تخرج عن دائرة الحكيم والعليم والامير والكاتب النحرير وكل المدى بشلاضم الشرشير !

لابد أنه القاها من قبل فى وصف عشرات من الناس فى مناسبات سابقة ! وفجأة راح يقدم لى صفا طويلا من الناس ، حضرة العمدة وولده ، الشيخ فراج وأبناء عمومته الحاج وهدان وابن خاله ، الوجيه عبدالشكور وعائلته . . وصافحت الجميع باحترام ، فقد ظننت لخبلى أنهم جاءوا خصيصا لمقابلتى ! . . وفجأة سحب من جيبه كشفا واعطانى اياه . . وقال وهو يسيل عذوبة ورقة ، أنا اشتغلت عشان انت ما تتعبش نفسك . الوصف وكل شىء على ما يرام ، انت تبعت الرسالة بس . . فى الوصف اياه . . وكان عن وصول قادة الثورة للمدينة . . مجرد سطر واحد . . ثم . . . وكان فى استقبالهم حضرات الحاج وهدان وعائلته والشيخ فراج وأهل بيته والوجيه عبدالشكور وابن خاله . كشف بأسماء العمد والاعيان فى الناحية . وهذا الكشف مجرد اعلان مدفوع الاجر للمراسل اياه . ويبدو انه توسم فى العبد لله الغفلة والسذاجة فخبطنى القصيدة اياها وتوكل على الله ! وطويت الكشف ووعدته خيرا .

انتهى الحفل فى المساء واستعد الجميع لمغادرة المدينة الى مدينة أخرى . وهرع الجميع نحو السيارات التى كانت تنتظر على جانب الطريق وانحشرت مع الصحفيين فى سيارة صغيرة سوداء ، وعندما تحركت بنا السيارة مخترقة الساحة لمحت الشيخ المراسل اياه يقف وسط وفد العمد والاعيان وقد فشخ بقه عن ابتسامه رضا بلهاء . فها هو كشفه المعد قد ذهب الى المحرر ، وها هو سيقبض غدا أجر النشر وسيصبح مبسوطا شبعان بأذن الله ! !

وهتفت فجأة وبلا سابق تدبير أناديه : يا شيخ عبدالسلام . وصرخ هو الاخر كأنه عسكرى بلوكات نظام نادى عليه حضرة الاميرالاى الكبير . أفندم . . وقلت على الفور ، خد يلعن أبوك . والقيت له بالكشف من نافذة السيارة ، امام رهط العمد والاعيان وأهل بيوتهم .

لقد أدركت من خلال تلك الرحلة مدى خيبة الصحافة فى الاقاليم . . مراسلى الصحف فى الريف جميعا تلك الايام كانوا مراسلين هواة . . جزمجية وقهوجية وأصحاب دكاكين بقالة ومراسلون لجرائد كبرى ومحترمة فى العاصمة أى سطر فيها كفيل بزلزلة عروش الحاكمين فى الريف . ولكن بدلا من أن تصبح الصحافة فى الاقاليم عينا على الادارة ، أصبحت عينا لها . . وتحول مراسلو الصحف الى ذيول للسلطة الحاكمة ، مهمتهم الحقيقية التقرب للمدير وللحكمدار ولموظفى البلدية وعساكر البوليس ، وأصبحت كل سهراتهم فى بيوت العمد والاعيان والذين يملكون القعدة الطرية واللقمة الهنية ويملكون ما يستطيعون أن يدسوه فى يد المراسل النشط . . ومن بين هؤلاء المراسلين من

استطاع أن يجمع ثروة ، ومنهم من اقتنى البيوت والاطيان واصبح من أعيان الريف .

ولقد وصف أحدهم ذات يوم فى عام ١٩٥٠ ثورة الفلاحين فى بهوت بأنها تمرد من جانب البلطجية واللصوص والمشاغبين ضد حضرة صاحب السمو الملكى ولى العهد المعظم الذى لا يترك مناسبة الا ويغمر فيها بكرمه وعطفه الفقراء والمعوزين !

أدركت حينئذ أن مشكلة الصحافة ينبغى أن تحل من هنا . ولو وجد فى كل عاصمة محافظة صحفى محترف ومحترم . الصحافة عنده رسالة وليست وسيلة لأكل العيش .. لو وجد هذا الصنف الممتاز من الصحفيين فى الريف لا نصلحت احوال كثيرة ولانزاح ظلم كثير . . ولاصبحت رسائل الصحفيين من جوف الريف ذات اهمية كبرى .. ولها الاحترام الواجب والتعظيم .

ولكن أغلب رسائل مراسلى الريف تأخذ طريقها بسهولة الى سلة المهملات . . حتى الجيد منها والمفيد . ليس أهمالا من الصحفيين فى القاهرة ، ولكن لان مراسلى الريف لم يستطيعوا ان يفرضوا أنفسهم بالموقف المحترم والسلوك الشريف .

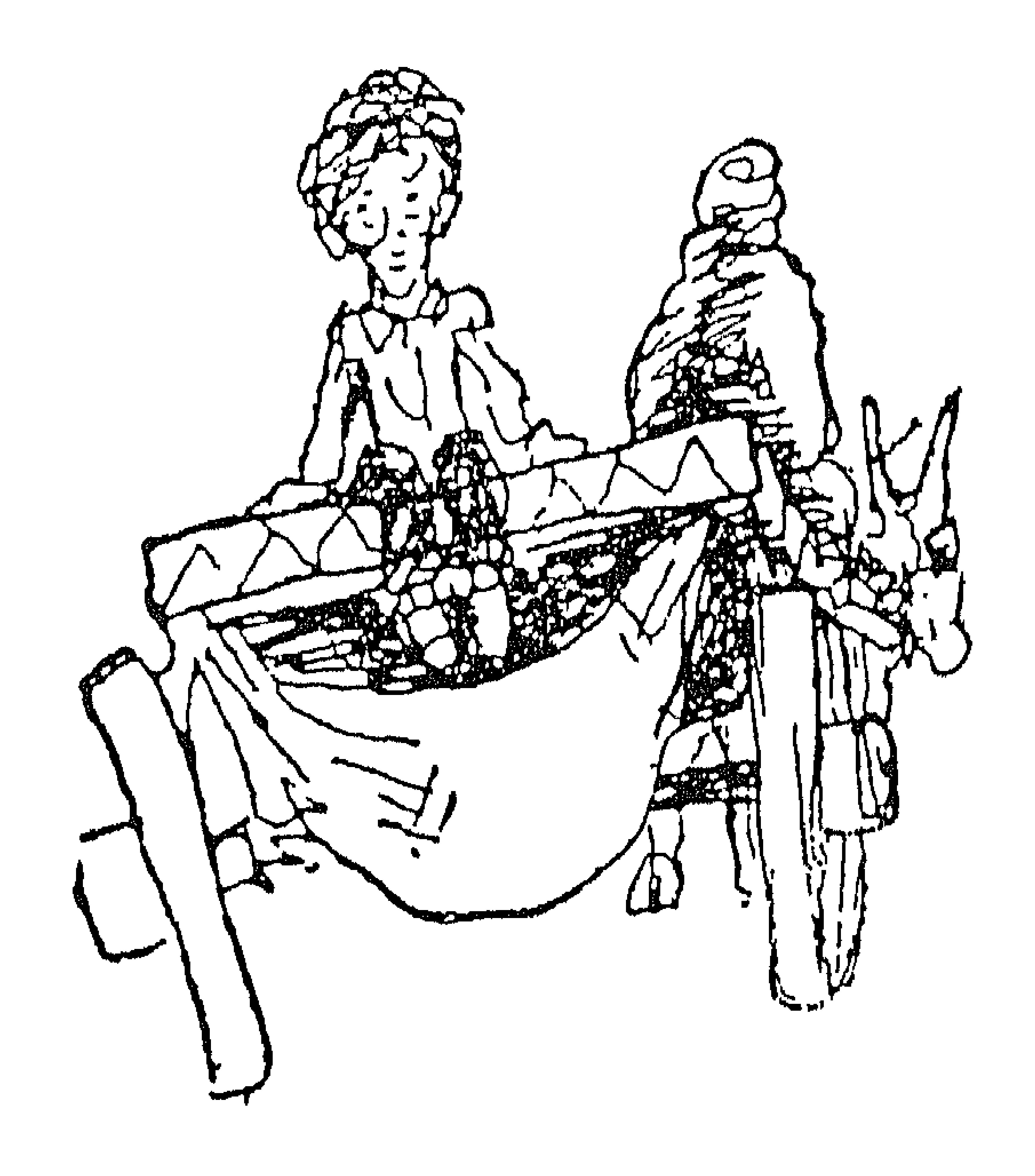
ولقد كنت أعرف أحدهم منذ عشرين عاما يراسل جريدة كبرى ويتنطط طول النهار فى قطارات الوجه البحرى يبيع للمسافرين الروائح العطرية والدهانات التى تعيد الشباب للشيخ السقيم !!.. وأحدهم كان عضوا فى أخطر عصابة عرفهاالصعيد ، وأحدهم كانت مهمته الوحيدة اضحاك سعادة المدير بأن يقف وسط أى حفلة يحضرها المدير ويلزق نفسه على قفاه ويصرخ كالطفل ويتشقلب كالقرد الظريف !!

رحلة ممتعة خرجت منها بدروس عديدة . . وخرجت منها بصداقة رجل فلاح من ريف مصر العظيم . . فلاح اسمه محمد الجمال . . احترف التدريس فترة فى المدارس الالزامية ثم احترف السياسة واستطاع فى فترة قليلة ان يصل الى قمة جهاز سياسى كان له شأن كبير فى مصر فى فترة من الزمان هو المؤتمر التعاونى العام . ولقد استطاع محمد الجمال ان يصل الى سكرتارية هذا المؤتمر بفضل كفاحه وتعبه الشديد . ولكن الشلل ضربته ضربة قاصمة ، والمخابرات العامة افسدت حياته وابعدته عنوة من ميدان التعاون ليحتل مكانه بعض الامعات الذين كانوا اقارب لبعض السادة فى ادارة المخابرات ، مع ان محمد الجمال كان

من اول من آمنوا بثورة عبدالناصر فى اول يوم من قيامها ، ولقد اندفع فى تيار الثورة بعنف ، وسبح فى بحرها بمهارة ، كان يحب عبدالناصر الى درجة الجنون ، ويقدس اسمه الى درجة انه كان يقسم به . ولكن من قال ان الذين كانوا يحبون عبدالناصر كانوا يشقون طريقهم بسهولة ؟ من قال ان تلاميذ عبدالناصر المخلصين كانت لهم الولاية على الامر ؟ لقد اصطادت مراكز القوى معظمهم ، وضربت اكثرهم بلا هوادة . وكان محمد الجمال عنوانا على هذا الطراز من الرجال المخلصين .




(١٥)



١٥

وكما ورقة شجر هشة تتقاذفها الريح هكذا كنت انا فى مطلع عام ١٩٥٤ . والثورة لم يتبلور اتجاهها بعد . ولم تكشف عن هويتها بعد . والاحزاب القديمة لا تزال فى عنفوانها ولكنها تبدو على السطح هامدة فى انتظار فرصة . وبينما كانت الاحزاب القديمة تعرف اتجاهها بدقة . كانت الثورة تبدو مضطربة ، فهى احيانا حركة وهى نهضة وهى ثورة !! وهيئة التحرير التى كان شعارها « كلنا هيئة التحرير » لم تستطع ان تنفذ الى صفوف الشعب ، ولم تستطع ان تجعل ولو « بعضنا هيئة التحرير » وظل تنظيم الثورة مجرد بناء ولكن بلا روح !

ولذلك ما ان تفجرت ازمة مارس عام ١٩٥٤ حتى هاج الشارع كله ضد السلطة . وكم كان غريبا حقا ان يتحالف أقصى اليمين مع اقصى اليسار فى سبيل تحقيق هذا الهدف .

ولقد اخطأ الشيوعيون خطأهم التاريخى الثانى خلال تلك الازمة . وكان خطؤهم الاول فى عام ١٩٤٨ حين دعوا الى قبول تقسيم فلسطين ، لأن المشكلة الاساسية فى اعتقادهم كانت فى الداخل !! ولقد هاجموا حرب فلسطين باعتبارها مؤامرة لصرف الانظار عن فساد النظام الرأسمالى ولقتل زهرة شباب الامة فى حرب ليس من ورائها اى طائل !!

وكان خطؤهم الثانى حين تحالفوا مع أقصى اليمين للاطاحة بالثورة ، ووزعوا منشورات دعوا فيها الشارع الى ضرب السلطة باعتبارها عميلة للامبريالية الامريكية ، ولكن هكذا هم الشيوعيون دائما سيظلون يخطئون الحساب رغم نواياهم الطيبة . . وسيبقون دائما فى معزل عن الجماهير ، لأنهم لا يحسنون بالضبط تحسس رغباتها ! ولأنهم يعيشون فى سطور الكتب ولا يعيشون فى حركة الناس . ولانهم يطبقون نظريات محفوظة على واقع ليس له علاقة بهذه النظريات !!

ولكن اين كان العبد لله تلك اللحظات التاريخية من عمر الوطن ؟ لم اكن مع السلطة . كنت مجرد متفرج لا يعى بالضبط ما يدور حوله . شيء واحد فقط شككنى فى الحلف الذى انبثق ضد الثورة . . . . هو ان الجميع سارعوا الى دخول الحلف ما عدا مصطفى النحاس . ولم يصدر بيانا ولم يفتح فمه بكلمة . صحيح أن قطاعات كثيرة من الوفد تحركت ، ولكن مصطفى النحاس لم يتحرك . لعله كان يدرك بغريزته الطيبة انها حركة حق يراد بها باطل . وبقدر ما كانت تلك الايام عصيبة . . بقدر ما كانت مفيدة . فقد كشفت نوايا كثيرة كانت مستترة ! واظهرت اطماعا كانت مختفية . وتحولت الديمقراطية الى علم يختفى تحته كثير من المصالح الطبقية والاطماع الشخصية . .

ولكن جماهير العمال حسمت الموقف فى النهاية لمصلحة الثورة . وأمام محكمة الثورة وقف عشرات من رجال الاحزاب القديمة وبعضهم يستغفر ، وبدا هؤلاء الآلهة الصغار كدمى اطفال ، لا ايمان بشيء ، ولا استعداد للدفاع عن معتقداتهم . .

ولقد دعيت للشهادة امام محكمة الثورة ولكنى رفضت بشدة . والسبب ان المتهم كان صاحب جريدة عملت معه فترة قصيرة فى بداية الثورة ثم تركت العمل معه فى منتصف عام ١٩٥٣ وذهبت للعمل كمحرر فى جريدة القاهرة ، ولقد خاض الرجل عدة معارك ضد حزب الوفد وضد احزاب الاقلية ولكنه كلن يحيط نفسه ببطانة سيئة جرت عليه المتاعب وجلبت له المصائب . ولانه كان متهما بالخيانة العظمى وأنا لا اشهد علي خائن الا اذا كنت متأكدا من خيانته . وايضا . . لان الذى دعانى الى الشهادة ضده كان صحفيا مشبوها يستحق السجن المؤبد بسبب جرائمه الوطنية !

وقد حضر الى ذات مساء فى جريدة القاهرة وحرضنى على الذهاب للشهادة ضد الرجل الذى عملنا معه فترة من الزمن . وراح يغرينى بوعود هايفة ، فلما التزمت جانب الرفض طلب منى ان اذهب الى النيابة لانها تطلبنى . ولكنى لم أذهب حتى استدعتنى النيابة رسميا . ولقد كنت تلك الايام أعمل مندوبا للجريدة فى محكمة الثورة . وكانت النيابة فى مبنى المحكمة فذهبت اليها والتقيت بأحد أفرادها . وحكيت للرجل كل ما كان يدور فى الجريدة خلال فترة عملى هناك . وحكيت له بصدق ولم أخف شيئا . ولكنه سألنى سؤالا مباشرا عن واقعة الخيانة فنفيت له علمى بشيء مثل هذا ، ولو اننى كنت أعلم وسكت ، فأنا خائن أيضا .

وكف وكيل النيابة عن سؤالى وطوى أوراقه ولم يكتب حرفا . وانصرفت من مكتبه فى سلام فقد استغنت النيابة عن شهادتى . وعلمت بعد ذلك أن أربعة

فقط من المحررين قد شهدوا ضد الرجل فى واقعة الخيانة ، أما الاخرون فقد امتنعوا عن الشهادة مثلى . ولم يكن هذا موقفا منهم لاخفاء الحقيقة . ولكن لانهم فعلا لم يكونوا يعلمون شيئا ! وسارت القضية فى طريقها العادى وقضت المحكمة بسجن المتهم وأسفت المحكمة فى الوقت نفسه للموقف المزرى لبعض المحررين . .

وكان اسم العبد لله فى قائمة المحررين الذين وضعوا انفسهم فى الموقف المزرى ، وطالبت المحكمة بأحالة امر هؤلاء المحررين الى نقابة الصحفيين ، ولكن اغلب هؤلاء المحررين لم يكونوا اعضاء فى النقابة . . وكنت أنا واحدا منهم . ولقد كانت القائمة تضم عددا من الشباب الذين تتفق مصالحهم مع مصلحة الثورة . ولكن الثورة فى بداية الامر لم تكن تهتم بهذا الاسلوب فى فرز الناس . .

وكانت تعتمد اعتمادا كليا على هذا النفر القليل من الثوار الذين خرجوا ليلة ٢٣ يوليو . ومن هنا جاء اسفها على موقف بعض الشبان الذين كانوا يقفون فى الواقع فى صف الثورة ويحملون سلاحها ، وبدلا من احتضانهم . . حكمت الثورة ضدهم ، واغلبهم صحفيون واعون وفنانون بحق . الشاعر كمال النجمى والشاعر محمد الفيتورى وابراهيم البعثى والأمير المليجى ويوسف فكرى والعبد لله .

اغرب من هذا ان القائمة ضمت رجلا لم يكن يوما ما على علاقة بالمتهم ولا بالجريدة التى كان يصدرها . . هو الفنان عبدالرحمن الخميسى . وكان لهذا الحكم على نفسى وقع الصاعقة . وقضيت عدة ايام هائما على وجهى فى شوارع القاهرة . وخيل الى ان هذا الحكم بمثابة حكم بالاعدام على مستقبلى الصحفى . يا للأيام السود التى عشتها بعد صدور هذا الحكم حتى كدت اعتزل العمل الصحفى واتوارى فى عمل آخر فى الظلام . ولكن الأيام مضت بى بعد ذلك ولم يلحق بى أى اذى . بل ان احدا لم يلفت حتى نظرى لا من المسئولين فى النقابة ولا من المسئولين فى الجريدة . وعندما فصلت من عملى فى جريدة القاهرة اخذت طريقى بسهولة إلى مجلة التحرير ـ مجلة الثورة ـ دون ان يعترض احد . ولم ادخلها كمحرر عادى الا لمدة اسبوعين ثم اصبحت مديرا لتحريرها فترة طويلة من الزمن . ولكنى قبل ان اترك جريدة القاهرة اتيح لى فترة من الوقت كافية لأنشر على الناس دراسة عن النكتة المصرية وظرفاء مصر منذ عبدالله النديم الى كامل الشناوى .

واكتشفت ان اغلب هؤلاء الظرفاء اشتغلوا بالسياسة ، وكانت النكته سلاحا من أسلحتهم . واكتشفت ايضا انهم كانوا زعماء جماهيرين بحق لأنهم دخلوا مزاج الناس من خلال الكلمة الضاحكة واللفتة الذكية والنكتة الحلوة .

ولقد قادتنى هذه الدراسة الى حقيقة باهرة ، هى ان الذين يتصدون لقيادة الشعب المصرى ينبغى ان يعرفوه حق المعرفة ، وأن الذى يتصدى لهذه القيادة ينبغى أن يخاطب الشعب المصرى باللغة التى يجيد فهمها . ولا يمكن قيادة شعب مثل شعبنا بالكلمات المرصوصة والنصوص المحفوظة . ولعل هذا هو السر فى غياب الشيوعيين عن مجلس قيادة الشعب المصرى فى مختلف مراحل كفاحه منذ عام ١٩٢٤ حتى يومنا هذا ، ولعل هذا السر هو الذى جعل الجماهير تهب لحرق مقر الحزب الشيوعى فى عام ١٩٢٤ بينما كان زعماؤه يزعمون ان الشعب يمشى خلفهم ، لعله كان يمشى خلفهم ليؤدبهم لانهم كانوا ـ ولا يزالون ـ يتناولون الاشياء بطريقة تخالف الطريقة التى يتناولها بها شعبنا .

ولقد اتيح لى أن انشر دراسة عن فن قراءة القرآن منذ عمنا الشيخ أحمد ندا الى عمنا الشيخ مصطفى اسماعيل . ولقد استقيت معظم معلوماتى عن قراء الجيل الماضى من المرحوم الشيخ محمد الصيفى ، وكان الرجل عالما فى هذا المجال بحق . وايضا من رجل أديب وظريف هو المرحوم مصطفى حمام . وكان حمام صحفيا يهوى الشعر ، وشاعرا يهوى الصحافة . وكان محدثا بارع الحديث حلو النكتة راوية للشعر القديم . وكان ذا صوت حسن يقلد به مشاهير القراء ، الشيخ الفيشاوى والشيخ القهاوى والشيخ منصور بدار . وكان يبدو وهو يقرأ معجبا بنفسه على نحو ما . كان يصيح عقب كل قراءة مهللا . . يا سلام ، الله اكبر ، صلى على النبى كده واشرع . ولكنى لاحظت اختلافا جوهريا بين رواية الشيخ الصيفى ورواية حمام . . والسبب أن الصيفى ، كان ينظر الى الموضوع من زاوية دينية ، بينما كان حمام ينظر اليه من زاوية فنية . ولقد استفدت بحق من وجهتى النظر المختلفتين ، كما أننى اعتمدت على نفسى فى دراسة قراء القرآن الكريم من ابناء هذا الجيل ولقد كنت ـ ومازلت ـ اعتقد ان الشيخ مصطفى اسماعيل فلته من فلتات هذا الفن . واعتقد انه لن يكون له مثيل من بين القراء فى المستقبل القريب .

ولقد احببت الشيخ مصطفى وسرحت خلفه فى كل مكان . من جامع الى مأتم ، ومن سهرة الى مولد . وذات مولد وكان فى بولاق ذهبت خلف الشيخ مصطفى اسماعيل . واقتحمت المسجد مع شلة من الاصدقاء . وجلست بجوار الدكة التى يجلس عليها الشيخ مصطفى . ولم يكن المسجد مزدحما فقد كان

الوقت عصرا وجموع المريدين لم تحضر بعد . وبدأ المسجد يزدحم . والحلقة تضيق حولنا حتى لم يعد هناك مكان لقدم . وعندما حانت صلاة المغرب ، هب الجميع ونحن معهم فأدينا الصلاة ثم عدنا الى اماكننا فى انتظار قدوم الشيخ ولكن مر الوقت والشيخ لم يحضر . . وفجأة هب احد الحاضرين واقفا وصرخ بشدة وهو يصفق بيديه . . الله حى الله حى . .

ولم يلبث ان هب الجميع وقوفا صارخين مثله ، فقد بدأت حلقة الذكر . وبدلا من أن نستمع الى الشيخ مصطفى اسماعيل وجدنا انفسنا رغما عنا وقوفا وسط الحلقة ، نتمايل فى حركات منتظمة ونصفق على الواحدة كأننا جميعا ضباط ايقاع ، حركات غريبة لم نتوقعها ومصير لم يكن فى الحسبان ! وحانت منى التفاتة الى احد افراد الشلة فاذا به يضحك . . ولم استطع ان اغالب الضحك فانفجرت ضاحكا انا الآخر .

وامتدت عدوى الضحك الى كل الشلة فانفجر الجميع ضاحكين وفورا امتدت الف يد تصافح اقفيتنا ، ثم امتدت الف برطوشة نحونا واختلط الناس ، لا احد يعرف بالضبط من الذى ينبغى ان يضرب . . فضرب الناس بعضهم بعضا ، جنون ينتاب الجماهير المحتشدة عندما يثور بينها حادث مفاجىء لم يكن احد يتوقعه .

واستطعنا وسط الفوضى ان نشق لأنفسنا طريقا نحو الخارج ، ولكن بلا احذية ، وخرجنا نرمح فى الشارع مجموعة افندية حفاة نطلب الامان بعيدا عن بطش الجماهير ، واقسمت من يومها الا اذهب خلف الشيخ مصطفى اسماعيل . . واكتفيت بإشباع هوايتى فى الراديو وفى المآتم المحترمة حيث الاحتمال بسيط فى ان تثور فجأة عاركه بالبراطيش !

ولقد استمعت الى الشيخ عبدالباسط عبدالصمد فى اول عهده بالقاهرة ، وقد استقبلته بفتور ، وخيل الى انه سيلمع فترة ثم لا يلبث ان يزول ، ولكن الشيخ عبدالباسط فرض نفسه فرضا بعد ذلك ، حتى استطاع ان يحتل فى نفسى المكان الثانى بعد الشيخ مصطفى اسماعيل ، وهناك من القراء الذين لم يحققوا شهرة عريضة من يحتل مكانة سامية فى نفسى من هؤلاء المرحوم الشيخ محمد فريد السنديونى ، الذى مات شابا بعد أن اعتزل القراءة وافتتح لنفسه مقهى فى حى شبرا يستقبل فيه المعجبين ، ولم أزل حتى هذه اللحظة أبكى كلما استمعت اليه .

ولا يوجد بين قراء القرآن الكريم من ينزف صوته دما مثل صوت الشيخ السنديونى العظيم . والشيخ محمود عبدالحكم ، ولا أدرى لماذا لم يأخذ حظه من الشهرة . . رغم أن صوته كان ينبغى أن يتيح له هذا الصيت العريض !

ولكن الشيخ محمد رفعت ظل له المكان الاول فى نفسى رغم كل شىء . . ربما كان السبب هو أنه كان أول من استمعت اليه فى صباى ، حين كان يسحبنى أحد أقاربى الى قهوة فى شارع ابوالسباع ليدخن الشيشة ويستمع الى الشيخ رفعت طول السهرة ، ولقد تعرفت الى الشيخ رفعت بعد ذلك ولكن لفترة قصيرة ، لم يلبث بعدها أن مرض ثم مات يرحمه الرحمن الرحيم .

ولقد اتيح لى أيضا أن أنشر فى جريدة القاهرة مجموعة قصص مصرية قصيرة ، كانت من خير ما انتجت فى حياتى كلها ، ولقد ظهرت فى تلك الفترة التى كانت فيها القصة المصرية مزدهرة وباهرة . . وجاءت عقب قصص زكريا الحجاوى القصيرة التى كانت هى الكوبرى بين القديم والجديد . . ولا أدرى لماذا توقف زكريا الحجاوى رغم أن بدايته كانت عملاقة وكانت تبشر بخير كثير ، ولكنها على أية حال كانت بداية الطريق الذى ظهر عليه يوسف ادريس .

ولقد أصبت بما يشبه الدوار عند قراءتى لقصص زكريا الحجاوى ، ثم اصبت بالذهول عند قراءتى لقصص يوسف ادريس . وكان احساسى الحقيقى تجاه هذه القصص انى أكتب كلاما مثل هذا ولكنى أخشى نشره ، ولكن قصص يوسف ادريس القصيرة كان خير مشجع لى على نشر ما عندى من قصص ، فقد فتح هو الطريق .

ولو قدر للقصاص فى مصر أن يأكل عيشه من انتاجه ، ولو تفرغ زكريا الحجاوى ويوسف ادريس وبعض كتاب القصة القصيرة الذين ظهروا فى الخمسينات لكتابة القصة فلربما كان لدينا الان انتاج قصصى عظيم .

ولكن أعظم كتاب القصة القصيرة هجروها الان الى مجالات أخرى فى الادب والفن ، ولم يبق فى الساحة الا نجيب محفوظ رغم أن هوايته الاولى هى الرواية .

ولكن قبل يوسف وزكريا جذب انتباهى بشدة احسان عبدالقدوس فى مجموعته بائع الحب وصانع الحب . كما أدهشنى كثيرا ابراهيم الوردانى فى مجموعته نحن بشر ، كذلك كان احساسى مع قصص يوسف غراب ويحيى حقى ومحمود تيمور وطاهر لاشين .

ولقد كان النقاد فى واد بعيد عن الادباء الشبان ولولا تشجيع المرحوم أنور المعداوى والدكتور عبدالقادر القط لتوقفت تماما بعد أول قصة . . بل ان الدكتور القط كتب عنى فصلا كاملا فى كتاب له وقد حفزنى هذا على الاستمرار فى الطريق ، وما أكثر الذين مدحونى شفاهة ولكن ما أقل هؤلاء الذين ابدوا رأيهم تحريرا فى انتاجى .

ولقد كتب لى يوسف السباعى مقدمة مجموعة قصصى الثانية « جنة رضوان »

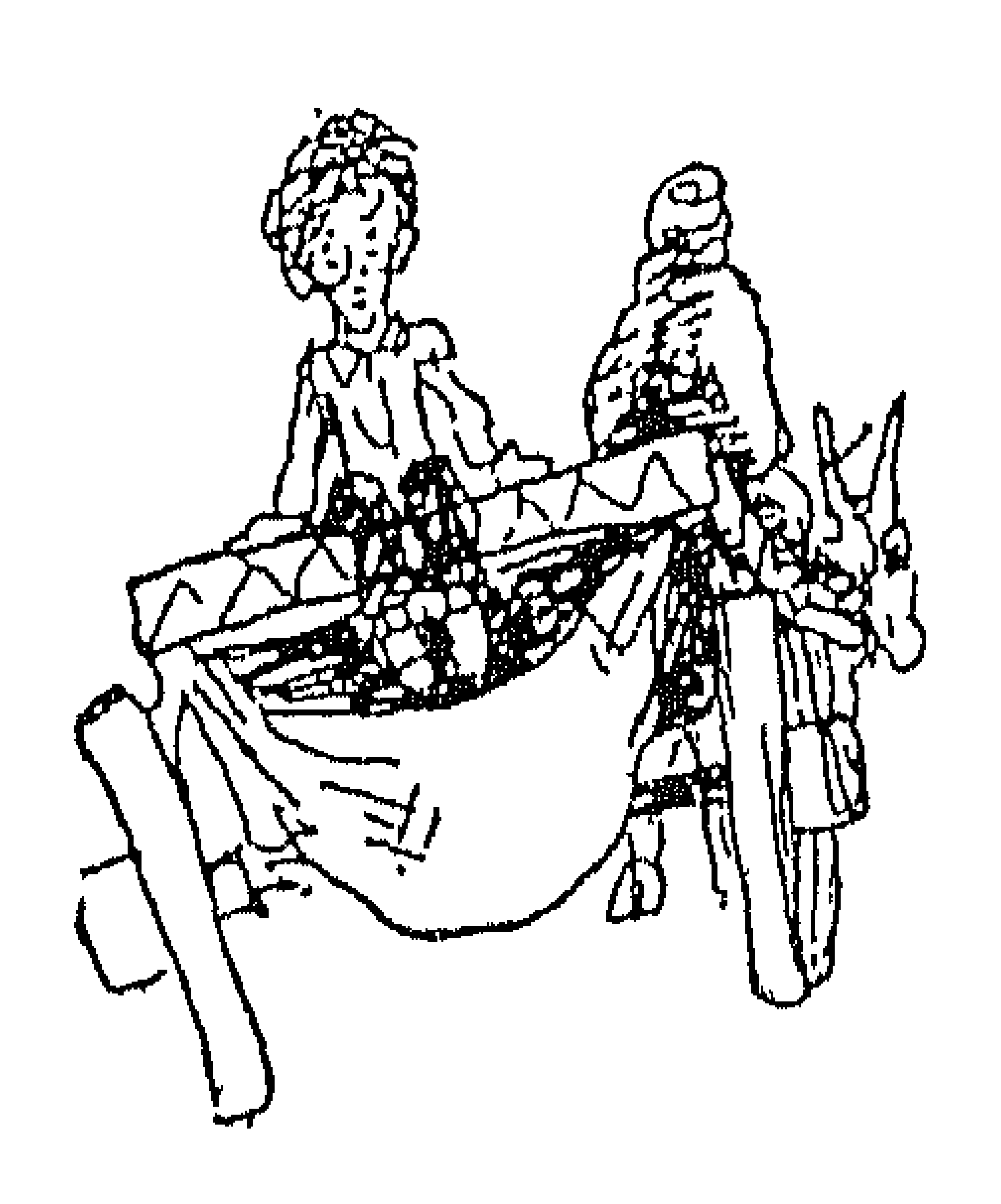
وهو عنوان القصة التى وصفها الدكتور على الراعى شفاهة ذات يوم بأنها أعظم قصة مصرية قرأها فى حياته ، ثم لحس هذا الرأى بعد ذلك وناصبنى العداء لخلاف بينه وبين الخميسى لم أكن أنا طرفا فيه !

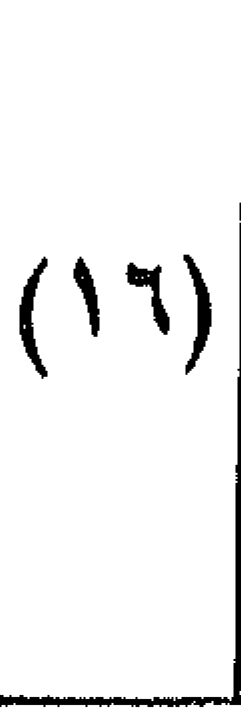
أما السبب الذى جعل يوسف السباعى يكتب مقدمة مجموعة جنة رضوان فهو سبب يستحق أن يروى ، وهو سبب جعلنى أومن بأن الجو الادبى فى مصر هو مجرد غابة ، وانك لكى تضمن لانتاجك أن يظهر وان ينمو فلابد أن تكون من أقوى الوحوش .

ولقد بدأت القصة حين أبلغنى يوسف السباعى ان الاستاذ توفيق الحكيم ذكرنى فى معرض الحديث عن الادباء الشبان وانه أبدى استعداده لان يكتب لى مقدمة مجموعتى الجديدة . . وطلب منى يوسف السباعى أن أذهب لمقابلة توفيق الحكيم .

وحين ذهبت مسرورا الى دار الكتب لمقابلة الاديب العظيم . . وفى أول لقاء معه أعاد ما سبق أن قاله لى يوسف السباعى ، وطلب منى احضار أصول المجموعة الجديدة لكى يكتب رأيه فيها . . وخرجت من دار الكتب تكاد الارض لا تحملنى ، ويكاد الفضاء أن يضيق بى !

ولم أتكتم الخبر بل نشرته فى كل مكان وذكرته لكل من قابلنى . وبعد أيام حملت أصول الكتاب الى دار الكتب ، ووضعت القصص بين يدى توفيق الحكيم ، ولم اكن أدرى انه خلال تلك الايام التى فصلت بين لقائى الاول ولقائى الثانى ، حدثت أشياء أقل ما توصف بها أنها عجيبة وغريبة ورهيبة ، وليس لها مثيل .




(١٦)



١٦

عندما جلست أمام توفيق فى مكتبه بدار الكتب بعد أسبوع من لقائى الاول أدركت أن شيئا ما قد حدث . ولكن لم أستطع ادراك هذا الشيء على وجه التحديد . ولكنه اعتذر بأنه لم يقرأ قصص المجموعة الثانية وطلب منى فى النهاية أن أمهله حتى شهر رمضان . . حيث الوقت متسع للقراءة والكتابة على حد سواء . وهز توفيق الحكيم رأسه وقال بطريقته المعروفة « ايه رأيك بقى ؟ » ووافقته بالطبع ، ولكنى لم أنقطع عن زيارته حتى جاء رمضان . ومضى رمضان أيضا وأنا مواظب على الزيارة وهو مواظب على الاعتذار .

وبعد ثلاثة أشهر كاملة أدركت أن توفيق الحكيم لن يكتب المقدمة . والحق أننى حزنت وتألمت بشدة . والسبب اننى كنت فى صباى المبكر أحب طه حسين وأفضله على توفيق الحكيم . ولكنى التقيت فى مطلع شبابى بطبيب مثقف أوصانى بقراءة توفيق الحكيم . لاننى « سأجد مصر بين السطور وسأشم رائحة الارض الطيبة ممتزجة برائحة الحبر الذى كتبت به الكلمات » .

وقرأت عودة الروح فى البداية ولكنها لم تهزنى بعنف . ولكن عند قراءتى ليوميات نائب فى الأرياف انتابتنى حالة غريبة من القلق والنشوة والامتاع الفنى غمر كيانى كله وجعلنى ساهرا حتى الصباح دون أن أشعر بحاجة الى النوم . ورحت ألتهم توفيق الحكيم كمفجوع وجد نفسه فجأة على مائدة عامرة بأطايب الطعام . وكان توفيق الحكيم هو البداية التى دخلت منها الى ساحة الفن المصرى العظيم ، وهى التى قادتنى الى هذا النفر العظيم من الفنانين المصريين : ابراهيم عبدالقادر المازنى وزكى مبارك وبيرم التونسى العظيم .

ولقد تصورت أن مقدمة يكتبها توفيق الحكيم لمجموعة من قصصى سوف تدفعنى عدة أميال فى هذا الطريق . وستكون شهادة ميلاد لى كقصاص جديد .

ولكن لماذا اعتذر توفيق الحكيم عن كتابة المقدمة ؟! لذلك قصة . وهى قصة لم يروها توفيق الحكيم ، ولكن الذى رواها واحد من أقرب أصدقائه وأكثرهم اطلاعا على حقيقة ما يدور عند توفيق الحكيم . . الذى حدث أن بعض الادباء الشبان ذهبوا الى توفيق الحكيم وعاتبوه على اختيار مجموعتى لكتابة مقدمة لها ورطنوا أمامه برطانة أعجمية فهم منها الحكيم الذكى الحذر الشديد الحرص على ألا يقحم نفسه فى مهاترات من أى نوع لكى يقضى رحلة حياته العظيمة الطويلة باذن الله قارئا وكاتبا ولاشىء غير ذلك .

ولذلك حزنت حزنا شديدا عندما اعتذر ، ومن يدرى ، ربما لو كتب توفيق الحكيم المقدمة لتفرغت لكتابة القصة وربما كنت اليوم أحد فرسانها الميامين .

فهم الحكيم ان هناك خلافا وأن هناك أشياء لا يجوز له أن يخوض فيها على الاطلاق . ولقد واجهت هؤلاء الأدباء بعد ذلك . . بعضهم اعترف وبكى .

وبعضهم اعترف واعتذر بأنهم كانوا فى حالة نفسية شديدة السوء !

على أى حال ، لقد طبعت هذه المجموعة « جنة رضوان » فى الكتاب الذهبى حيث طلب منى يوسف السباعى أن أسلم أصول الكتاب الى احسان عبدالقدوس . وكانت صلتى باحسان مجرد صلة قارىء بكاتب ، وكنت أنا القارىء على كل حال . وايضا صلة زميل صغير بزميل اكبر . ولكنى اكتشفت عند لقائى به أنه قرأ مجموعتى الأولى « السماء السوداء » وأنه معجب بها على نحو ما . ولم أكن أنا أدرك حتى هذه اللحظة ، ان ما اكتبه يستحق اهتمام أحد من الكتاب الكبار .

وربطتنى هذه المقابلة باحسان . فقد عاملنى بود ، واحتفل بى بصدق .

وسرعان ما دارت ماكينات الطباعة ، وصدر الكتاب فى السوق . وسحبنى يوسف السباعى بعد صدور الكتاب بأسبوع الى دار روزاليوسف لمقابلة الست .

وكان هذا هو لقب السيدة روزاليوسف يرحمها الله . وذهبت مع يوسف السباعى فى بدلة جديدة . شامخ الأنف ثابت الخطى ، فقد تصورت نفسى أحد كبار الكتاب فى هذا العصر والأوان . وعندما اقتحمنا الغرفة اكتشفت بأن الست ليست وحدها ، وأنها تراجع بروفات المجلة ومعها عدد من المحررين والعمال .

وصافحتنى بدون احتفال وقالت ليوسف السباعى « مين ده راخر ؟ » ورد يوسف فى خوف : دا محمود السعدنى . وقالت بعصبية :
لأخلاص مش هنطلع كتب تانى بقى ، كفاية بقى ، كفاية بقى ، كتب الشبان دول ماهاش سوق ، كفاية خسارة !

وقال يوسف ما احنا لازم نشجع الشبان برضه ، ولكنها ردت فى حزم : لأخلاص أنا قلت لا . وقال يوسف السباعى على كل حال السعدنى كتابه طلع خلاص . وقالت الست لتنهى المناقشة ، خلاص ، خليه يروح يقبض الفلوس . أربعين جنيه ، مفهوم .

وانتابتنى حالة الحماقة التى تنتابنى دائما كلما واجهت موقفا من هذا النوع .

وهممت بأن أصرخ فى وجهها ، ما هذا الذى تفعلينه ؟ أنا لست شيالا فى محطة مصر . والخلاف بينى وبينك على أجرة مشال من المحطة الى البيت ، أنا كاتب اعطيتك انتاجا هو عصير عمرى وتجربتى فى الحياة ، وما ذنبى أنا اذا كان هذا الانتاج لم يجد سوقا ، وهل أنا تاجر فى سوق العصر ؟

ولكن الكلمات ماتت على شفتى ، وتراجع يوسف السباعى خارجا وأنا خلفه . وعلى درجات السلم سألنى يوسف انت شفت الست قبل كده ؟ . . وأجبت بالنفى ، فقال يوسف وهو يضع يده على كتفى ، دى طريقتها لكن هيه ست طيبة ! وارتاحت نفسى لكلمات يوسف . فهذه الست العظيمة التى انشأت من العدم دارا صحفية وكتابا شهريا وصنعت كتابا ومؤلفين واصحاب اقلام من كل نوع . . وابنها من كبار الكتاب ، وأى كاتب اذن هو ابنها مهما كان . من أكون أنا فى زمرة الكتاب !؟

ولم يُسعدنى الحظ بعد ذلك لمعرفة الست عن قرب ، فقد كان هذا لقاؤنا

الاول والاخير . . وعندما عملت فى دار روز اليوسف كان قد مضى على وفاتها أكثر من عام ، ولكن ذكرى هذا اللقاء لم تبرح ذاكرتى قط . ولقد حرصت بعدها على أن أعرف مدى انتشار هذا الكتاب ، وأدركت انها على حق . فلقد كان أعلى رقم بلغه توزيع الكتاب هو عشرين ألف نسخة باعها كتاب الدكتور طه حسين ، وأعتقد أنه الطبعة الثانية من « المعذبون فى الارض » وكان ثانى كتاب وزع منذ ثلاثة عشر عاما هو كتاب « يوم الثلاثاء » لأمين يوسف غراب وقد باع ستة عشر ألف نسخة بينما باع كتابى ثلاثة آلاف نسخة وكذلك كتب كل الكتاب الشبان الذين ظهروا فى سلسلة الكتاب الذهبى ذلك العام .

ولكن الذنب لم يكن ذنبنا فلم تكن الجماهير قد تعرفت علينا بعد ، وكانت كل وسائل النشر لا تهتم الا بجيل الكتاب الكبار المشاهير أصحاب التاريخ الطويل والعريق فى الأدب والفن . وكان جيل الشبان فى حاجة الى من يقدمهم للناس ويتحمل الخسارة والتضحيات . ولقد تحملت السيدة روز اليوسف هذا العبء . واشهد انها كانت رائدة فى هذا الميدان .

وفى ذلك العام أيضا تعرفت الى فنان مصر الاعظم بيرم التونسى . كان يجلس على مقهى فى السيدة زينب ، يكتب بقلم رصاص كلاما أشد فتكا من الرصاص . ولكن هذا الوطنى العظيم والاشتراكى المناضل كان قد تحول خلال السنوات القليلة التى سبقت الثورة فكتب كلاما ينشر فى بعض المجلات ، يهاجم به حزب الوفد ، ولا ادرى ما الذى دفع مناضلا عظيما مثل بيرم التونسى الى هذا العمل الردىء ؟ ومع ذلك لم يحط هذا العمل من قيمة الفنان العظيم فى نظرى .

ولقد كنت معجبا به الى درجة الجنون ، فهذا الكاتب هو وحده الذى يستحق لقب كاتب الشعب . لانه ظل يقاتل بقلمه كل القوى التى تعادى الناس إلا فى فترات قليلة . وحتى فى فترات ضعفه . وتخاذله كانت كلماته فى مدح الطغاة تقطر سما . . ولازلت أذكر كلماته التى قالها فى اسرة محمد على ولحنها وغناها رياض السنباطى .

محمـــد لمـــا شرفهـــا
بعينـــه المبصرة شافهـــا
كنوز بس اللى يعرفها
ويعـرف ينتفـع بيهـــا
مـــزارع جـوهـا دافى
وطولها وعـــرضها وافى
ولية يمشى ابنها حافى
يمـــد الايـد ويـــطويها
وليـــة القاضى والـوالى
يجيبهم بـابها العـــالى
حـــاكمها من اهـاليهـا

وليس أبلغ من هذه الكلمات فى نقد أسرة محمد على ، ومع ذلك شربها الحمير وأذاعوها على انها قصيدة عصماء فى مدحهم . وعندما رأيته كان منظره يوحى بأنه لا يزال فى المنفى . ورغم أنه كان خلال الأعوام التى تلت قيام الثورة يربح نقودا كثيرة الا انه كان دائم الشكوى . الشكوى من أنه لم يأخذ حقه كما ينبغى ، ولانه ايضا عندما بدأ يسترد بعض حقه كانت أيام الصحة والشباب قد ولت الى غير رجعة .

ولقد توطدت صلتى به الى أن مات . وحتى الحظ النحس تدخل ليفسد عليه آخر متعة فى حياته ، فعندما ابلغ انه حصل على وسام الفنون من الدرجة الاولى كان المسكين يعانى سكرات الموت ، ولعله لم يسمع بالضبط كلمات التهنئة على وجه التحديد ، ومع رحيل الليل رحلت روحه هو الآخر وفارق دنيانا بعد رحلة عجيبة وغريبة ورهيبة ، تجرع خلالها المر وتجشأ الاسى . وأشهد أننى ما تعلمت فى حياتى من أحد بالقدر الذى تعلمت به من بيرم ولم يبهرنى فنان مثله ، ولم أتعرف بالضبط على جغرافية المجتمع المصرى الا من خلال كلماته .

ولقد كان الدكتور زكى مبارك هو الفنان المصرى الثانى الذى بهرنى بحق . . وعندما تعرفت اليه كان يزحف ببطء نحو القبر . . وكان يجلس فى بار صغير فى ميدان التوفيقية يشرب خمرا رخيصا ويكتب مقالات فريدة فى نوعها ، اذ يبدأ

بموضوع ويتشعب الى ألف موضوع ، وينتهى المقال ولا ينتهى الموضوع الذى بدأه .

ولقد كنت أحب زكى مبارك لاكثر من سبب ، لفنه فى الدرجة الاولى ، ولانه من سنتريس وهى على مرمى رصاصة من مسقط رأسى فى المنوفية . وأعتقد أن الدكتور زكى مبارك لم يوفه أحد من النقاد حقه ، لم يأخذ مكانه اللائق فى الحركة الادبية المصرية . . ولعل السبب انه لم يكن يحتفل بانتاجه ، ولم يكن يحفل أيضا بتدعيم الصلات والصداقات مع المسئولين عن الادب والفن . . ولكن الذى أحزننى حقا هو الكشك الذى كان يجلس فيه أيام الصيف فى سنتريس على حرف الرياح المنوفى . ولو كنا فى دولة عصرية حقا لانتهز مجلس قروى سنتريس الفرصة واحاط الكشك بحديقة . . ولأقام تمثالا للدكتور زكى مبارك فى الحديقة ، ولانشأ متحفا للدكتور الاديب الفنان ابن سنتريس فى الحديقة . ولأقام حفلات موسيقية وأدبية وفنية لأهل سنتريس فى هذا الكشك . ولكن الذى حدث عكس ذلك على طول الخط . .

هدم مجلس قروى سنتريس الكشك ، وزرعوا مكانه قمحا وبطيخا ! ويبدو ان شعار المجلس القروى القمح قبل الكلمة . . والطحن قبل الفن ! هذه العقلية نفسها هى التى جعلت محافظا سابقا من محافظى المنوفية ـ لا أذكر من هو على وجه التحديد ـ يصدر كتيبا فى عيد المنوفية ، تحدث فيه عن مفاخر المنوفية ومجدها . وكان أبرز ما قدمه من مفاخر المنوفية انها تنتج أعظم أنواع العجول ، وأنها انجبت لمصر ٣٧٤ وكيل وزارة ! ونسى المحافظ اياه ، أو لعله تعمد أن ينسى أن المنوفية أنجبت زكى مبارك والمرحوم عبدالعزيز فهمى وسعد مكاوى وأحمد عبدالمعطى حجازى وعبدالرحمن الشرقاوى . . وكل الذى لفت انتباه المحافظ ان المنوفية تنجب أعظم أنواع العجول . ووكلاء الوزارة .

ولكن هذه هى حقيقة الاجهزة الرسمية المسئولة عن الفن والادب من الفنانين الادباء . هذا الموقف الذى جعل شاعرا عظيما مثل عبدالحميد الديب يعامل كمتسول وبائس وفقير لا ينبغى ان نصدر له ديوانا ولا يصح ان يكون له فى تاريخ أدبنا . . تاريخ !

ولو وجد عبدالحميد الديب فى بلد مثل فرنسا ، لتألفت باسمه جمعيات

وأقيمت ندوات ، ولأصبح له مطاعم يرتدى فيها الجرسونات ملابس المتسولين ، ويقدم فيها الطعام فى صحون من الفخار ، ولقامت جمعية للتأليف تحمل اسمه ودار نشر تهتم بمؤلفاته وتدرس ظروف حياته ومن خلالها تدرس ظروف عصره .

وهذا الموقف نفسه هو الذى جعل رجلا مثل الدكتور ابراهيم ناجى ينام تحت تراب النسيان حتى غنت له أم كلثوم أغنية الاطلال . مع ان ابراهيم ناجى شاعر عظيم وصاحب مدرسة وفنان كان له أكبر الاثر على المدرسة الجديدة فى الشعر الحديث ! وهذا الموقف نفسه هو الذى أدى ويؤدى الى الاحتفال بشاعرة هايفة ليس لشعرها بكسر الشين ولكن لشعرها بفتح الشين !

وأبرز مثل على هذا بنت حلوة وبضة وبيضة وكالبطة ، وكان شعرها سائحا كالحرير ، وجسمها سائحا كالسمنة ، وعقلها سائحا كلوح ثلج فى شهر يونية . هذه البنت كانت تكتب شعرا اكثر سيحانا من عقلها وشعرها وجسمها البض السمين . ومن خلال هذا الشعر الهايف استطاعت ان يكون لها معجبون وأن يكون لها شهرة عريضة ، وأصبحت صورها وأخبارها مادة ثابتة فى الصحف اليومية . مع باب أين تذهب هذا المساء ،
والتف حولها عشرات الشعراء والكتاب والادباء والصحفيين وصار بيتها ندوة لرجال الادب والفكر ، وصار لها فى المجتمع مكانة ومكان .

ولمعت الست البيضة المعجبانية عدة سنين طويلة ، وصار لها اكثر من ديوان وصدر عنها أكثر من دراسة . ولكن شهرتها الادبية أفلت عندما تسلل الشعر الابيض الى شعرها الاصفر ، وحفر الزمان تجاعيده فى جلد وجهها ، وذبلت العيون التى كانت تشع نورا ونارا تحرق قلوب المعجبين .

وأكم من ست معجبانية حدث لها نفس الشيء فى مصر . ولو كانت فى بلد مثل انجلترا لوجدت هذه الست فرصتها كموديل تقف زلط ملط أمام فنان يرسم لوحة . ولكن لان الاشياء مختلفة ومتشابكة فى مصر . . فكل شيء ممكن وكل شيء ماشي وكل شيء عال .

رجل مثل زكى مبارك يذهب الى النسيان ، وست مثل بديعة مصابنى تصدر عنها كتب ، وعن فلسفتها دراسات !

حقيقة تؤكد ان الموهبة ليست طريق الفن ، ولكن هناك طرقا كثيرة ، ولكن أغربها هو الذى حدث لى شخصيا ، ولقد كان الذى حدث . . أغرب من الخيال .



(١٧)



١٧

احسست بأننى حصلت على فرصة العمر حين أصبحت مسئولا عن باب النقد الأدبى فى مجلة أسبوعية شهيرة . وشرعت قلمى من أول لحظة لأهاجم الجيل الماضى من الأدباء الذين سبقونى . وكانت أول معاركى مع محمد عبدالحليم عبدالله . . وكان هجومى قاسيا ومريرا ، وقد أحسست بخجل شديد عندما التقيت بمحمد عبدالحليم عبدالله بعد ذلك ، فعندما التقيت به تجهمت بشدة ، وتقلص جسمى وتركزت نظراتى فى عينيه كأننى ثعبان يهم بالتهام فريسة . ولكننى حزنت جدا وشعرت بالخجل الشديد عندما واجهنى عبدالحليم عبدالله بابتسامة ، مد يده نحوى فى بساطة ، وعاتبنى فى وداعه . ولم أعتذر أنا لعبدالحليم عبدالله ، ولكنى أحببته ، وأمسكت لسانى عنه بعد ذلك فلم أهاجمه قط . وذلك حرصت كل الحرص فيما بعد أن ابتعد عن المشاهير من الناس .

لا أحضر اجتماعاتهم ، ولا أتزاور معهم ، حتى لا يكون بينى وبينهم صداقة . فأنا من النوع الذى تأسره الصداقة وتتحكم فى مزاجه العلاقات الشخصية . وانا شديد الوفاء لكل من ساعدونى فى بداية حياتى ، ولكل من قدم لى يدا بيضاء بددت قليلا من ظلام الطريق ! . .

ولهذا السبب لم أرد على هجوم مأمون الشناوى حين هاجمنى بقسوة شديدة فى جريدة يومية منتشرة . . وقضيت اسبوعا بأكمله أعانى عذاب الحيرة والتردد ، ثم قررت فى النهاية أن أرد عليه ، وكتبت مقالا شديد القسوة لو نشر لعشت عمرى كله شديد الندم ، فعندما قرأت المقال شاب شعر رأسى لهول ما فيه ، لم يكن المقال من كلمات ولكن من سكاكين ، وعندما قرأته أكثر من مرة هدأت نفسى وبدأت أفكر فى الموضوع .

لقد كان مأمون الشناوى هو أول من مسح على جراحى فى بداية حياتى الصحفية . وكان وسط غابة الصحافة كأنه شجرة تفاح تبسط ظلها وثمرها على الحيارى والضائعين . ولذلك حملت مقالى وذهبت الى كامل الشناوى . وقرأ

كامل الشناوى المقال وتعجب . الى هذا الحد تتعاركان معا وأنت ومأمون الشناوى شقيقان فى الحياة ، وانا شقيق مأمون بشهادة الميلاد . . هكذا قال كامل الشناوى وهو يلتقط سماعة التليفون ليتصل بمأمون . . وفعلا حضر مأمون فى بيت كامل الشناوى . وقبل رأسى واعتذر ومزقت المقال وشعرت بارتياح بالغ .

ولقد عف على كالطير عدد من كتاب الصف العاشر وامطرونى بانتاجهم الوفير فى الادب والفن . ولكنى لم أكن أحفل بهذا النوع من الادباء . لان مدح هؤلاء المدعين جريمة ، والهجوم عليهم جريمة أكبر . ولكن أبرز هؤلاء كان يعمل فى شركة كبرى لاعمال الكهرباء . وكان منظره يوحى بأنه قاتل هارب من العدالة ، أو صول بوليس فى طريقه الى المعاش ! وكان لحظة التقائى به قد انتهى من تأليف كتابه الرابع ورغم ذلك لم يكن أحد يدرى به ، ولم يكن لكتبه وجود الا فى محلات البقالة ، ولقد نفذ الى نفسى من النقطة الضعيفة ، فقد حكى لى قصة كفاحه فى الحياة ، وهى قصة أشبه ما تكون بقصة حياتى . فقد بدأ حياته عاملا فى الشركة ، ثم استطاع ان يصل بمجهوده وعرقه وكفاحه الى منصب مدير مبيعات فى الشركة نفسها ، ثم يصبح مؤلفا وله أربعة كتب ، وكلها روايات عن الحب والغرام . قصة كفاح مدهشة ، ولكن أدبه حقير وفقير وحاجة تسد النفس وتغم الفؤاد . وصاحبته باعتباره رجلا مكافحا وليس باعتباره أديبا من الأدباء .

ولكنه ظل يلح على أن أكتب عنه كلمة ولكنى رفضت بشدة . .

كان قد تعرف على محرر شاب يعمل معى فى الصفحة الادبية . وقد لاحظت شدة اشفاق هذا الشاب على الاديب المزيف ، وشدة اهتمامه به وبكتبه على السواء . وذات يوم رأيت فى بروفة الصفحة خبرا عن هذا الأديب فقمت بشطبه . ولكن المحرر الشاب اتهمنى بالقسوة ، ورجانى أن أترك الخبر لان عدم نشره سيصيب الاديب اياه بيأس قاتل لا يعرف أحد مداه . وتحت تأثير المحرر الشاب تركت الخبر يمر . ولكن الاخبار بدأت تتكرر ، اخبار لا علاقة لها بأدب الاديب اياه ، ولكنها اخبار تحوى اسمه والسلام . خبر عن اعتزامه انتاج فيلم جديد ، أو خبر آخر عن قيامه برحلة فى أوروبا . ورغم تأكد هذا الغبى ان الاخبار ليست صحيحة الا انه كان يبدى بها اهتماما عظيما .

وكان يسهر معنا حتى الصباح لكى يحصل على نسخة قبل موعد صدور المجلة بيوم . ولكن اخبار الاديب أياه انقطعت فجأة عن الصفحة . وراح الصحفى الشاب يهاجم الأديب بضراوة . ولم يلفت نظرى هذا الانقلاب المفاجىء فى غلاقة الطرفين . ولكنى اكتشفت كل شيء فجأة عندما جاءنى الاديب أياه ذات مساء وهو يبكى ، وراح يحكى لى كيف أقنعه الصحفى الشاب بأن فى استطاعته أن يحقق له الشهرة الادبية . . ووزعت الصفقة بين الاثنين على أساس أن يدفع الاديب اياه ثمن الشهرة للصحفى الشاب . ودفع الاديب صاغرا ثمن الشهرة نقودا وأشياء أخرى عينية . ولكن الصحفى الشاب لم يقنع بعد فترة بالثمن الذى يدفعه الاديب المزعوم ، والاديب هو الاخر لم يعد قانعا بالاخبار التى ينشرها عنه الصحفى .

وعندما اختلف الاثنان ظهر المستور ، ولقد ذهب الاديب بعد ذلك فلم أره أبدا . غير انى كنت بين الحين والحين أرى مقالات فى نقده بقلم بعض « كبار » الكتاب ، وأحيانا اخرى أقرأ أخبارا عن نشاطه فى دنيا الادب ، وكنت أتساءل بينى وبين نفسى ، هل تم النشر باتفاق مماثل أم ماذا ؟ ولكن يبدو أن المسائل « ماذا » فى كثير مما ينشر فى الصحف والمجلات .

وهكذا بعد عشر سنوات كاملة منذ عام ١٩٤٥ الى عام ١٩٥٥ ، كنت قد تأكدت ان الصحافة ستصبح مهنتى من هنا والى الابد . وكنت قد حققت بعض الشهرة لدى القراء وكل الشهرة لدى المشتغلين بالمهنة . ورغم اننى لم أكن عضوا بنقابة الصحفيين الا أن رأيى كان له وزن فى انتخابات النقابة . ولقد خضت الانتخابات فى النقابة ذات مرة ضد جلال الحمامصى واستخدمت لسانى فى المعركة واثبت انه سلاح مارد وجبار . وخضتها مرة اخرى خلف طوغان ، ولكن التوفيق لم يحالفه ، واكتشفت على ضوء هذه المعركة انه لا يكفى ان تكون شريفا وأمينا وصادقا لكى ينتخبك الناس . ولكنى اكتشفت ان الانتخابات مهنة ينجح فيها الذى يتقنها . ولكن أغرب فصل انتخابى بارد صادفته كان فى نقابة الصحفيين ايضا . ولقد خضت المعركة بكل قواى فى صف عبدالمنعم الصاوى ضد حسين فهمى . وكنت اعتقد ان عبدالمنعم الصاوى دم جديد على النقابة ينبغى تأييده وانه وجه جديد وحسن ينبغى الوقوف خلفه الى ما لا نهاية . وقفنا ندافع عن عبدالمنعم الصاوى كالفولاذ ، طوغان وسامى الليثى وانا ، ولكن قبل الانتخابات بايام وقف عبدالمنعم الصاوى فى صالة نقابة الصحفيين يخطب

بحماس وقد تشابكت يده مع يد حسين فهمى ، وندد بالانتهازيين عملاء الاستعمار الذين دفعوه دفعا لمنافسة زميله وحبيبه حسين فهمى ، ثم أعلن فى النهاية تنازله عن الترشيح . وهكذا وجدت نفسى فجأة ، انتهازيا وعميلا استعماريا . . ومن الذى يتهمنى ؟ الرجل الذى وقفت خلفه ادعو له بالنصر من كل قلبى ، وابذل دمى من اجله فى سبيل الانتصار .

وفى ذلك العام أيضا ، عام ١٩٥٥ ، قدر لى ان اركب الطائرة لاول مرة وكانت اول رحلة لى الى الاقصر ، وعندما تسلمت التذكرة شعرت انى تسلمت تصريح دفنى . . فقد كانت الطائرة فى نظرى هى علامة الموت ولا شىء سواه . المصير الاغبر الاسود الذى سأنتهى اليه ، ستصير جثتى بعد لحظة من الطيران طعاما لسمك النيل ، أو طعاما لدود الارض ولن يعثر لى على أثر وساذهب قبل الاوان شأن العباقرة والعظماء .

وكان رجل هندى مخبول قد قرأ كفى ايام الحرب العالمية الثانية وقال لى وكانه يقرأ من كتاب مفتوح : ستحقق كل امانيك فى الحياة ، وستصل الى قمة المجد سريعا ولكنك ستموت قبل ان تصل الى الاربعين ، وكنت وقتئذ فى الخامسة عشرة من عمرى صبيا يتفجر غرورا وطيشا وعدم اهتمام بملاك الموت . .

ولكن عندما بدأت الايام تزحف بى نحو الاربعين راح خوفى يزداد وفزعى يشتد من النبوءة السوداء التى تنبأ بها هندى معتوه ومدينة الاسكندرية على مرمى مدفع من الالمان . . المهم اننى ركبت الطائرة فى الصباح وجاء مكانى الى جوار رجل عجوز يرتدى ملابسه كاملة وطربوش طويل فوق رأسه وفى يمينه عصا كتلك التى كانت مع سيدنا موسى لداعى هش الغنم ومآرب اخرى .

وعندما حلقت الطائرة فى الجو منعت نفسى عن الحركة حتى لا تهتز الطائرة فنسقط جميعا ونموت . وعندما جاءت المضيفة بالشاى رفضت تناوله فقد خيل الى ان اى حركة ستجعل الطائرة تميد بنا وننتهى جميعا فى حقل من حقول القمح التى تمتد تحتنا على طول مجرى النيل .

وفجأة ارتفع صوت الميكرفون يعلن لنا ان الطائرة فوق اسيوط ثم فجأة اهتزت الطائرة بعنف ومالت ثم هبطت كأنها تهوى على الارض . وهتفت فجأة

وبذعر شديد يا خبر اسود الطيارة حتقع . وانتفض الرجل العجوز صائحا كأنما لدغته عقرب ، وهب واقفا مزمجرا وسب دينى ودين أجدادى ثم هبدنى بالقلم على وجهى . وخفت أن أرد عليه حتى لا تقع بنا الطائرة . فانتقلت الى مقعد آخر وظللت مستقرا فى مكانى كأننى تمثال الكاتب الجالس القرفصاء حتى وصلت الطائرة بسلام .

ولقد ظلت هذه التجربة تملأ نفسى بالرهبه ، والخوف والدهشة معا ، فكيف تسنى للانسان أن يخلق مثل هذه الآلة الجبارة التى تحملك كبساط الريح عبر المدن والقرى والحقول وفى متاهات الفضاء الذى ليس له حدود ، لتحط بك فى مكان آخر بعيد . كيف يمكن للحديد أن يطير فوق الريح ، أهى حقيقة أم وهم أم حلم يقظة .. لا يزيد !

ولقد ركبت الطائرة بعد ذلك الف مرة . وركبت طائرات شتى ومن جميع الأحجام والاصناف .. طائرات نفاثة تسابق الصوت ، وطائرات نقل جبارة ، وطائرات عسكرية ، وطائرات بجناح واحد ومحرك واحد مقطوعة النفس هزيلة الصحة مثل معزة المرحوم غاندى . ولكن خوفى من الطائرة لم يتغير .

وحكمة الله أننى أخاف قبل السفر ، ويصيبنى صداع قاتل ، ولكن الخوف يتلاشى ويزول عندما أجلس فى مقعدى وتبدأ محركات الطائرة تدور . يخيل الى أنها نفس الحالة النفسية التى يمر بها المحكوم عليه بالاعدام . القلق والخوف قبل التنفيذ ولكن الهدوء يعود الى نفسه عندما يدخل حجرة الاعدام ، الهدوء وربما الذهول ، ولكن النتيجة واحدة ، وهى أن القلق لم يعد له وجود فى حياة هذا الانسان .

وأنا بطبعى رجل قلق لا أستطيع أن أعيش فى مدينة واحدة طول العام . وأعشق السفر كتعبير عن حاجتى الشديدة الى شيء مجهول ! واكثر الاصوات شجنا الى نفسى صوت باخرة تقلع من الميناء فى الليل ويهزنى بقسوة صفير قطار فى الفجر ، ودائما أتمنى لو كنت واحدا من الذين يركبون فيه .

والسفر هو هوايتى الوحيدة ومتعة حياتى التى لا أشعر بتخمة منها ، أشعر دائما أننى فى حاجة الى المزيد . وانا من النوع الذى لا يهوى الفرجة على الآثار ،

ولا قضاء الوقت فى المتاحف ولكن أحب الحياة مع الناس . ولى فى كل بلد سافرت اليها أصدقاء وأحباء أحن اليهم وأشتاق الى رؤيتهم وأتمنى ان اذهب الى لقائهم بين الحين والحين .

وعلى طول ما لفيت وما نطيت فى الداخل والخارج الا اننى أسف وحزين ، لأنى لم اذهب الى بعض بلاد مصر التى اتمنى لو تتاح لى ظروف زيارتها فى وقت قريب . انا مثلا حتى هذه اللحظة لم أزر مدينة المنيا . ولم اشاهد سوهاج الا خلال نوافذ القطار ، ولم يقع بصرى بعد على شاطىء السلوم . ولم اتفرج على واحة سيوة ، والواحة الوحيدة التى زرتها هى الواحة الخارجة ، وقد زرتها فى ظروف اتمنى على الله الا تعود ! وأحب البلاد الى نفسى هى الجيزة لأننى عشت حياتى هناك ، ولمنطقة القناة منزلة خاصة فى نفسى وكذلك مسقط رأسى قرية قناطر القرنين منوفية حيث اشعر نحوها بحنين دافق فياض .

ولا اكره فى حياتى الا رؤية المقابر ولقاء رجل اكرهه . ولا اشعر باحتقار فى حياتى الا للرجل الندل ، او لا مرأة تخون بلا سبب . ولا أهتم فى حياتى الا بالطعام الجيد والملابس الفاخرة ، ولكنى لا أشعر بأى رغبة فى اقتناء النقود ولا اسعى للحصول على شىء اتركه لاولادى الا السمعة الطيبة والذكر الحسن .

ولقد تعلمت من تجربة حياتى ان الميراث لا يصنع الرجال ولكنها التجربة والرغبة فى قهر الظروف السيئة . واذكر ان زملائى فى مدرسة الجيزة الأميرية قد نجح بعضهم فى الحياة وفشل بعضهم ، ولكن الفاشلين كانوا هم الذين يملكون عقارات واموالا طائلة ، وانا نفسى لم ارث شيئا الا القهر والديون ، ومع ذلك استطعت ان اخرج من مصيدة الحياة الضيقة !

شىء واحد فقط كان على ان احققه فى عام ١٩٥٥ . هو عضوية نقابة الصحفيين وكان الامر بالنسبة لى سهلا ، فأنا تتوافر لى كل الشروط وقدمت أوراقى وانتظرت . ولكن هذا الانتظار طال الى عدة أعوام .

ودخلت من أجل هذا المطلب المتواضع معارك وخضت حروبا وخلعت عددا من اضراسى من شدة الهم والغم الشديد . ولكن لماذا حدثت كل هذه الوقائع

والمعارك فى سبيل أن انال حقا مشروعا لا ينكره على أحد . لهذا قصة طويلة ، احتفظ بها الآن وسأكشفها لكم عندما يحين الوقت لكتابة الجزء الثالث من مذكرات الولد الشقى .

والآن اختتم هذا الجزء الثانى ، وارجو الا اكون قد سببت ازعاجا ، واذا كان احدكم قد صادف مللا من هذه المذكرات . . فعذرى اننى لم أقصد هذا العمل الردىء . كنت اريد ان ابسط امامكم صفحات من حياتى لعلها تكون عظة أو عبرة أو دافعا الى الضحك فى اوقات الظهيرة أو التثاؤب قبل النوم .

على أية حال ، شكرا لكم جميعا . . الذين انبسطوا والذين شعروا بالضيق . شكرا لكم لأنكم صبرتم على قراءة حياة مخلوق هايف لم يخترع قنبلة ذرية ولم يكتشف جرثومة السرطان ولم يحلق بصاروخ فى الفضاء الخارجى ، وارجو أن التقى بكم قريبا فى الجزء الثالث من مذكرات الولد الشقى ، فإلى لقاء قريب !



كتب للمؤلف .

١ ـ السماء السوداء	....	قصص قصيرة
٢ ـ جنة رضوان	....	قصص قصيرة
٣ ـ بنت مدارس	....	قصص قصيرة
٤ ـ الأفريكى	....	قصص قصيرة
٥ ـ عزبة بنايوق	....	مسرحية
٦ ـ الاورنس	....	مسرحية
٧ ـ النصابين	....	مسرحية
٨ ـ فيضان النبع	....	مسرحية
٩ ـ حتى يعود القمر	....	رواية
١٠ ـ الأرزقية	....	رواية
١١ ـ الظرفاء	....	دراسة أدبية
١٢ ـ ألحان السماء	....	دراسة أدبية
١٣ ـ الجزائر أرض اللهب	....	دراسة سياسية
١٤ ـ الولد الشقى	....	الجزء الأول
١٥ ـ الموكوس فى بلاد الفلوس	....	رحلة لبريطانيا
١٦ ـ السعلوكى فى بلاد الافريكى	....	رحلة لأفريقيا

رقـم الايداع
٥٤٠٧ / ١٩٩٠ م
I.S.B.N. 977 – 08 – 0035 – X

طبعت بمطابع أخبار اليوم





طبعت بمطابع دار أخبار اليوم